أخلاقيات الحرب

في السيرة النبوية

تأليف

ناصر محمدي محمد جاد

للنشر والتوزيع

أخلاقيات الحرب

في السيرة النبوية

© دار الميمان للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جاد، ناصر محمدي
أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية. / ناصر محمدي جاد.- الرياض، ١٤٣٢ هـ
٣٠٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٠-٧٩-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الإسلام والحرب ٢- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٥٦ ١٤٣٢/٣٤٥٤

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٣٤٥٤
ردمك: ٠-٧٩-٦٨٦-٩٩٦٠-٩٧٨

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار الميمان للنشر والتوزيع - الرياض
الطبعة الأولى ١٤٣٢هجري - ٢٠١١م

دار الميمان للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٦١٣ ص.ب ٩٠٠٢٠
الموقع: *www.arabia-it.com*
البريد الإلكتروني: *info@arabia-it.com*
هاتف: ٤٦٢٧٣٣٦ (٠١) فاكس: ٤٦١٢١٦٣ (٠١)

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار الميمان للنشر والتوزيع، ولا يجوز طبع أي جزء من الكتاب أو ترجمته لأي لغة أو نقله أو حفظه ونسخه على أية هيئة أو نظام إلكتروني أو على الإنترنت دون موافقة كتابية من الناشر إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

الصف والإخراج الطباعي وتصميم الغلاف: دار الميمان للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الإسلام قد وضع من القواعد المحكمة ما يكفل بها الأمن والسلام، ليس بين المسلمين فحسب، بل بين المسلمين وجيرانهم من غير المسلمين، بحيث أصبح الإسلام بحق دين الأمن والسلام.

فالإسلام كان ولا يزال دين الأمن والسلام، ولم يكن في وقت من الأوقات دين حرب أو مشاحنة وبغضاء، إنما كان يهدف أولا وقبل كل شيء إلى السلام، بل إنه في لفظه مشتق من مادة واحدة مع السلام.

وقد قامت دعوى بعض المستشرقين على أن الإسلام انتشر بحد السيف، ولكن الواقع أن الإسلام لم يكن في وقت من الأوقات يستخدم السيف للتحكم في رقاب الضعفاء، أو التسلط على أعناق الأبرياء، إنما كان السيف وسيلة لحماية الدعوة التي كُلِّف بها المسلمون من قِبَل الله عز وجل، ولكنه مع هذا بين للمؤمنين عدم ضرورة القتال إذا لم يكن هناك ضرورة، فقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٩٠.

وقد حض الإسلام على تأمين الدعوة والدفاع عنها ضد من يقف في سبيلها، حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه؛ فمن أجل ذلك شرع القتال.

بيد أن الإسلام وهو الدين الذي ختم الله تعالى به سائر رسالاته إلى البشر لم يترك مسألة الحرب دون وضع قيود وآداب، بل فرض أخلاقيات يجب أن يلتزم بها المسلمون في قتالهم حينما يلجئون إلى الحرب لفض النزاع القائم بينهم وبين عدوهم.

وبهذه القيود والآداب التي افترضها الإسلام على أتباعه، غيَّر أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوَتَر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض في الجاهلية إذ صارت هذه الحرب في الإسلام جهادًا في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهادًا في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنَّصَف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفًا حتى يؤخذ منه، وصارت جهادًا في تخليص المستضعفين، وصارت جهادًا في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم بالخروج عنها[1].

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٤٢٤.

هكذا نظم الإسلام شئون الحرب من جميع الجهات:

١- من ناحية الهدف.

٢- من ناحية الأسلوب.

٣- من ناحية الشروط والضوابط.

٤- من ناحية الإنهاء والإيقاف.

٥- من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج.

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح في جانبي التنظير والتطبيق في سيرة النبي ﷺ، كما سيأتي تفصيله في هذا البحث إن شاء الله.

وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة، إلا أن التعصب والتجاهل بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، والإصرار على جعله طرفًا في الصراع وموضوعًا للمحاربة، أحدث لبسًا شديدًا في مفهوم الجهاد عند المسلمين، حتى شاع أن الإسلام يدعو إلى الحرب وإلى العنف.

لقد حدد الإسلام جميع الضوابط الحربية المنبثقة من كتاب الله وسنة النبي ﷺ وسيرته.

ويسعى هذا البحث إن شاء الله إلى بيان أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، وللوصول إلى هذا الهدف، رأيت أن أقسم هذه الدراسة إلى أربعة أبواب على النحو التالي:

الباب الأول: تمهيد

جعلت هذا الباب توطئة للدخول في موضوع الدراسة، وقد ناقشت فيه موضوعين مهمين في فصلين على النحو التالي:

الفصل الأول: الحرب ضرورة من ضروريات الاجتماع الإنساني: فقد ناقشت فيه هذا الموضوع لبيان أن الحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على ظهر الأرض، فمنذ وُجد الإنسان وهو يصارع ويحارب، وكعلاقة من العلاقات الاجتماعية الحتمية نشأت الحرب، فالاحتكاك بين البشر لا بد أن يُوَلِّد صدامًا من نوع ما، وعلى ذلك لم يخرج الإسلام، حين شرع القتال، عن هذه الضرورة، فلا يسجل أحد على الإسلام مأخذًا من هذه الناحية.

الفصل الثاني: الحرب عند أصحاب الشرائع والحضارات غير الإسلامية: فقد رأيت من الضرورة، ونحن نرصد الأخلاقيات التي اتبعها النبي ﷺ والآداب التي حض عليها في حروبه، أن نولي هذه الجزئية نصيبا من الرصد والدراسة، وإن كانت هذه الدراسة ليست للمقارنة، إلا أننا أردنا أن نظهر صورة الحرب عند غير المسلمين بصورة موجزة غير مخلة لسببين:

السبب الأول: ليرى الناظر المفارقة بين التعاليم التي أوحتها الحضارات الأخرى، وبين التعاليم الإسلامية في هذا الصدد، فهو يبرز الناحية النظرية لتعاليم الإسلام فيما يخص شئون الحرب.

السبب الثاني: ألا يتعجل مفتر ويسجل على الإسلام في تشريعه للقتال مأخذا، إلا بعد أن يطلع على صورة القتال في الشرائع والحضارات الأخرى، سواء ما يتعلق منها بالتنظير أو التطبيق، لأنه إذا اطلع على هذه الصورة، انكشف له روعة دين الإسلام وسمو تعاليمه.

الباب الثاني: بواعث الحروب وغاياتها في الإسلام

وقد جعلت هذا الباب في ثلاثة فصول تتضافر لبيان بواعث القتال وغاياته في سيرة الرسول ﷺ، وتكشف عن أخلاقيات رجال الجيش الذي بناه النبي ﷺ ليكون هاديا وفاتحا للقلوب، فجاء على النحو التالي:

الفصل الأول: حقائق عن الحرب النبوية: وهذه الحقائق من شأنها أن تزيل ما يكون قد ألبس على البعض من تشريع الإسلام للحرب.

الفصل الثاني: بناء النبي ﷺ لجيش الإسلام: هذا الفصل يوضح أن النبي ﷺ قبل أن يُسَيِّر الجيوش للقتال رباهم على أخلاقيات رفيعة ومبادئ سامية، جعلتهم رحماء بمن يحاربونه، وجعل هدفهم الأسمى هو رد الناس إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها والتي تتمثل في دين الإسلام، وهذه المبادئ التي ربوا عليها جعلتهم قادرين على تنفيذ وصايا النبي ﷺ أدق تنفيذ، وما كان من خطأ أو نسيان لهذه المبادئ، لم يكن ليلقى قبولا عندهم، ويتم معالجته على الفور، وإعطاء كل ذي حق حقه الذي فرضه الله له.

الفصل الثالث: حروب النبي ﷺ بين البواعث والغايات: أردت من هذا الفصل أن يقف القارئ على بواعث الإسلام النبيلة وغاياته السامية من الحروب، ليتبين أنها حروب فاضلة، تعلم الإنسانية كيف يكون الإنسان فاضلا وهو يحارب.

الباب الثالث: أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية

عرضت في هذا الباب لفصلين مهمين

الفصل الأول: غزوات الرسول ﷺ وحروبه بين الشرعية واللاشرعية: قمت في هذا الفصل بالحديث الموجز عن الغزوات والحروب النبوية مركزا على أسبابها، لنرى هل تتصف حروبه ﷺ بالشرعية أو لا؟

الفصل الثاني: أخلاقيات اللقاء المسلح في السيرة النبوية: كان هذا الفصل بمثابة الجزء التطبيقي من هذا البحث، باحثا في كيفية قتال رسول الله ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ قد حارب، فما المبادئ التي كان يدعو إليها وطبقها؟ فكان هذا الفصل مخصصا لهذا الأمر.

الباب الرابع: شبهات وافتراءات حول موضوع الدراسة

تكفل هذا الباب بالردود على ما يثيره غير المسلمين من شبهات وافتراءات حول بعض الموضوعات التي تتعلق بموضوع هذا البحث؛ مثل دعوى انتشار الإسلام بالسيف، وإكراه غير المسلمين على الدخول فيه، والرد على دعوى البعض بأن الإسلام قد أساء إلى غير المسلمين الذين ساكنوا المسلمين في ديارهم، وبعض القضايا الأخرى التي تتصل بهذا الجانب.

على أننا لم نطل في الردود؛ لأن هذه القضايا قد أثيرت في مواضع كثيرة من البحث، وتكفل الرد العملي المعتمد على النقل الصحيح الثابت بالرد على هذه الافتراءات، ولكني أتيت بها لجمعها في مكان واحد، ثم لأنني أتيت بردود علماء غير المسلمين أنفسهم، الذين تولوا هم دحض هذه الافتراءات بحجج سليمة وأدلة ثابتة ودراسات مخلصة.

وأما **الخاتمة**: فقد جمعت فيها أهم ما أسفر عنه البحث من نتائج.

وقد اكتفيت بذكر المعلومات الببليوجرافية للمصادر والمراجع في قائمة المصادر والمراجع آخر الدراسة، مما أغنى عن ذكرها في ثنايا البحث، ورتبتها ترتيبا هجائيا ليسهل على من يريد التحقق من أي عزو أو تخريج، أو يريد مزيد بحث في مسألة من المسائل، الرجوع إليها بسهولة ويسر.

ولا أحب أن أترك هذه المقدمة قبل أن أسجل موفور الشكر إلى جميع المؤسسات والهيئات التي تحرص على نشر تعاليم الإسلام الصحيحة، ومن بينها دار الميمان التي يحرص صاحبها الفاضل الدكتور سليمان الميمان على نشر المفيد من العلوم التي تقوم على خدمة دعوة الإسلام في العصر الحديث.

وأختم كلمتي بالحمد لله والشكر له سبحانه وتعالى على ما أعان ويسر، وأدعوه سبحانه أن يأخذ بأيدينا نحو سبل الخير وشعاب المعرفة، وأن يطهر قلوبنا من زيغ الهوى ورجس الإحن، للعمل على خدمة هذا الدين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

والله ولي التوفيق

nmg_mazn@yahoo.com

البَابُ الأوَّلُ

تمهيد

١

الفصل الأول

الحرب ضرورة
من ضروريات الاجتماع الإنساني
ولم يخرج الإسلام عن نطاق الضرورة

الفصل الأول

الحرب ضرورة من ضروريات الاجتماع الإنساني ولم يخرج الإسلام عن نطاق الضرورة

لقد آثرتُ أن أتناول هنا هذه الحقيقة التي أقرتها أغلب النظم السياسية والاجتماعية؛ حتى لا يكون هناك مجال للسؤال المتكرر الذي يتساءل صاحبه قائلا: لماذا كان الرسول ﷺ محاربا؟

ولنردَّ أيضا على القائلين زورا: إن الحرب ما كانت قط من مسالك الأنبياء والمرسلين في دعوتهم، ولننفي ما أثاره خصوم الإسلام ضده إذ قالوا: إن الإسلام دين شرعت فيه الحرب، والدين الحق يجب أن يتنزه عن ذلك فلا يدعو إلا إلى السلام؛ لأن الحرب من بقايا الوحشية الأولى، ولا يجوز أن يعتمد عليها دين إلهي أنزل ليكون رحمة للعالمين.

لا شك أن الذين يدلون بهذه الشبه لا يعرفون من طبيعة العالم الأرضي ومن عوامل الاجتماع الإنساني، ولا من تاريخ الشرائع السماوية ما يجب أن يعرف ليجيء حكمهم عادلا ورأيهم مسددا.

إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب، ليس فيما بين الناس فحسب، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم، وفيما بين كل فرد والعوامل المتسلطة

عليه من نفسه، ولا تشذ عن هذه القاعدة العامة الحيوانات ولا النباتات أيضا، فدفاع الناس عن أنفسهم وحريتهم ونضالهم في سبيل دفع الأذى عنهم من السنن القويمة التي لا بد منها في حياة البشر والاجتماع.

وقد بنى علماء النباتات والحيوانات وعلماء الإنسان على هذا التدافع كل ترقٍّ طرأ على هذه العوالم الثلاث، ولا نظن أن قارئا يجهل القانون الذي اكتشفه دارون وروسل، وأطلقا عليه قانون تنازع البقاء، وبنيا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضا.

وقد أشار الله عز وجل إلى خطر هذا الأصل العظيم بقوله تعالى فيما يتصل بالإنسان: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

وإنما تفسد الأرض بتغلب الأشرار وتقاعس الأخيار عن التنكيل بهم، وفضلا عن تغلغل الأشرار في شرورهم، فإنهم لا يدعون الأخيار أحرارا في ممارسة فضائلهم[2].

إنها حرب حقا أذن الله بها سياجا للهدى وصيانة لمعالمه، لم تشعلها مآرب النفوس، ولكن فرضتها دواعي الغضب لله[3].

وتمحيصا لنفوس من خاضوها بذل الله عز وجل الوعد بالنصر فيها لمن لا يستغل نتائجها لشخصه ومفاتن دنياه، بل لمن يوجه ثمراتها إلى تمكين دينه وتوطيد عقباه، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ١٦٤.

(٣) الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ٩٩.

بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾(١).

فأي مطعن قد يتصيد لهذا القتال؟

وليست الحكاية فيه عن المسلمين فحسب، وإنما عن كنائس النصارى، وبِيَع اليهود، وصوامع العبَّاد من كل لون، فقد بين الله تعالى أن القتال ضرورة لحفظ كل دين سبق ونصرة أنبياء الله جميعا، ومن ثم ذكر أن الجزاء الموعود من نعيم الخلود لم يسجل في القرآن وحده، بل زُفَّت بُشْرَياتُه في الكتب الأولى وأودعه الله أعظم كتبه فقال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾(٢).

ومع ذلك فإن فريقا من الحانقين على الإسلام حلا لهم أن يتحدثوا عن القتال في الإسلام كأنه بدعة انفرد بها في الأولين والآخرين، وذلك جهد كثير من المستشرقين الذين أخضعوا العلم لنزعات الهوى والتعصب الذميم(٣).

من أجل هذا فإن هذه الافتراءات لا تثبت إذا استحضرنا حقائق التاريخ البشري منذ خلق آدم إلى ظهور النبي ﷺ، وإذا درسنا سير الأنبياء السابقين عليه.

فالحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على ظهر هذه البسيطة، فمنذ وُجد الإنسان وهو يصارع ويحارب، وكعلاقة من العلاقات الاجتماعية الحتمية نشأت الحرب، فالاحتكاك بين البشر لا بد أن يُوَلِّد صدامًا من نوع ما، فلقد جبل الإنسان على غريزة التملك التي تدعوه إلى التشبث بما يملكه، حيث إن هذه الغريزة هي التي تحفظ عليه البقاء في الحياة، وهي بالتالي التي تتولد عنها غريزة المقاتلة، في أبسط صورها دفاعًا عن حقه في الاستمرار والحياة، وقد تتعقد نفسية الإنسان وتصبح

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ١٠٠.

حاجاته ومتطلباته مركبة، فلا يقاتل طالبًا للقوت أو دفاعًا عنه فحسب، بل يقاتل طلبًا للحرية ورفعًا للظلم واستردادا للكرامة.

ويُفَصِّل ابن خلدون هذه الحقيقة في مقدمته فيقول: «إن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منها أهل عصبيته، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع، كانت الحرب وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.

وسبب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده.

فالأول: أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة.

والثاني: وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم؛ لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب، ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم.

والثالث: هو المسمى في الشريعة بالجهاد.

والرابع: هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها، فهذه أربعة أصناف من الحروب: الصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل»[1].

فالحرب أو القتال عمل تقوم به أغلب شعوب العالم إن لم نقل كلها، يلجأ إليه

(١) مقدمة ابن خلدون ١/ ٢٥١.

المتحضر منها عندما تخفق الوسائل والأساليب السلمية فيما يطلبه أو يدفعه عنه، لكن الذي يحكم على هذا العمل بالحسن أو القبح هو شرعية رايته، ونبل أهدافه، وسلامة أساليبه ووسائله.

فليس من العيب إذن أن تكون مدججا بالسلاح، وإنما العيب أن تسطو بسلاحك على الوادعين أو تروع الآمنين[1].

ومن قديم الأزل لما كان البشر بضعة إخوة، وقف أحدهم في طريق آخر مبارزا له بالعداوة مستحلا الدم، كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

وما لبث أن استحال هذا التهديد إلى جريمة نكراء، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾[3].

ولم يكن النبي ﷺ بدعا من الرسل في اللجوء إلى الحرب كضرورة لفض النزاع إذا تعذرت الحلول السلمية بينه وبين من يحاربه، فنبي الله موسى عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، حارب ودعا بني إسرائيل إلى الحرب، ولكنهم ارتدوا على أدبارهم، وقالوا بدافع الجبن والذلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[4].

والمذكور في التوراة التي بأيديهم أن موسى عليه السلام حارب ملوكا وجبارين، واخترق بجيشه ديارهم، وكذلك كثير من الأنبياء وأصحاب الدعوات.

---

(١) الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ٩٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

ففي سفر العدد ورد ما يفيد أن موسى عليه السلام بعد خروجه بقومه من مصر بعث رسلا يتحسسون أمر أرض كنعان - فلسطين - ليستقروا فيها: «فساروا حتى أتوا موسى وهارون وكل جماعة بني إسرائيل إلى برية فاران إلى قادش، وردوا إليهما خبرًا وإلى كل الجماعة، وأروهم ثمر الأرض وأخبروه، وقالوا: قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقا إنها تفيض لبنًا وعسلًا، وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدًّا، وأيضا قد رأينا بني عناق هناك»(١).

وجاء في سفر صموئيل الأول: «فأجاب نابال عبيد داود وقال: من هو داود ومن هو ابن يَسَّى قد كثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده، أآخذ خبزي ومائي وذبيحي الذي ذبحت لجاري وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟ فتحول غلمان داود إلى طريقهم ورجعوا وجاءوا وأخبروه حسب كل هذا الكلام، فقال داود لرجاله: ليتقلد كل واحد منكم سيفه. وتقلد داود سيفه وصعد وراء داود نحو أربعمائة رجل، ومكث مائتان مع الأمتعة»(٢).

وفي سفر الملوك الثاني: «وكان ميشع ملك موآب الثاني صاحب مواش، فأدى لملك إسرائيل مائة ألف خروف ومائة ألف كبش بصوفها، وعند موت آخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل وخرج الملك يهورام في ذلك اليوم من السامرة وعد كل إسرائيل وذهب وأرسل إلى يهوشافاط ملك يهوذا يقول: قد عصى عليَّ ملك موآب، فهل تذهب معي إلى موآب للحرب؟»(٣).

وجاء في حزقيال: «وكان إليَّ كلام الرب قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم وتكلم على المقادس وتنبأ على أرض إسرائيل وقل لأرض إسرائيل هكذا

(١) سفر العدد الإصحاح الثالث عشر، ٢٦-٢٩.

(٢) سفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس والعشرون، ١٠-١٤.

(٣) سفر الملوك الثاني الإصحاح الثالث، ٤- ٨.

قال الرب هأنذا عليك وأستل سيفي من غمده فأقطع منه الصديق والشرير من حيث إني أقطع منك الصديق والشرير فلذلك يخرج سيفي من غمده على كل بشر من الجنوب إلى الشمال فيعلم كل بشر أني أنا الرب سللت سيفي من غمده لا يرجع أيضًا»[1].

وجاء في سفر يوشع: «وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم هو المحارب عنكم انظروا: قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكًا حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب التي قرضتها والبحر العظيم نحو غروب الشمس والرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكم الرب إلهكم»[2].

وجاء في سفر القضاة: «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوا بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل وسكان الجنوب والسهل»[3].

وفي سفر القضاة: «فأما هم فقد أخذوا ما صنع ميخا والكاهن الذي له وجاءوا إلى لايش إلى شعب مستريح مطمئن فضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار ولم يكن مَنْ ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون ولم يكن لهم أمر مع إنسان وهي في الوادي الذي لبيت رحوب فبنوا المدينة وسكنوا بها ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذي ولد لإسرائيل ولكن اسم المدينة أولا: لايش»[4].

وفي سفر صموئيل الأول: «وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل

---

(١) سفر حزقيال الإصحاح الحادي والعشرون، ١-٥.

(٢) سفر يوشع الإصحاح الثالث والعشرون، ٣-٥.

(٣) سفر القضاة الإصحاح الأول، ٢٧-٣٠.

(٤) سفر القضاة الإصحاح الثامن عشر، ٢٧-٣٠.

واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل»[1].

وفي سفر التكوين: «فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابني يعقوب شِمْعُون ولاوي أخوي دينة أخذ كل واحد منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف لأنهم نجسوا أختهم، غنمهم وبقرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت»[2].

وفي سفر التكوين: «فلما سمع إبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان وانقسم عليهم ليلًا هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التي من شمال دمشق واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطًا أخاه أيضًا وأملاكه والنساء أيضًا والشعب»[3].

وفي سفر العدد: «فقال الرب لموسى لا تخف منه لأني قد دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن في حبشون فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق لهم شارد وملكوا أرضه»[4].

وفي سفر العدد: «ثم كلم الرب موسى قائلا: ضايقوا المديانيين واضربوهم؛ لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التي كادوكم بها»[5].

وفي سفر العدد تطالعنا التوراة، أن الله قد أمر موسى، عليه السلام، أن يشن حربًا

---

(١) سفر صموئيل الأول الإصحاح الرابع، ١٤.

(٢) سفر التكوين الإصحاح الرابع والثلاثون، ٢٥-٢٩.

(٣) سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر، ١٤-١٦.

(٤) سفر العدد الإصحاح الواحد والعشرون، ٣٤، ٣٥.

(٥) سفر العدد الإصحاح الخامس والعشرون، ١٦.

على أقوام قد عبدوا غير الله سبحانه وتعالى: «وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلا: كلم بني إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم»[١].

وشبيه به ما ورد في سفر صموئيل: «فقال داود للفلسطيني: أنت تأتي إلي بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم... فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل»[٢].

وفي سفر صموئيل الأول: «فذهب داود ورجاله إلى قعيلة وحارب الفلسطينيين وساق مواشيهم وضربهم ضربة عظيمة وخلص داود سكان قعيلة»[٣].

في سفر المزامير: «يسبح داود الرب ويمجده لأنه يعطيه القوة على محاربة أعدائه: الذي يعلم يدي القتال فتحنى بذراعي قوس من نحاس.. أتبع أعدائي فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم أسحقهم فلا يستطيعون القيام، يسقطون تحت رجلي تمنطقني بقوة للقتال تصرع تحتي القائمين عليَّ وتعطيني أقفية أعدائي ومبغضيَّ أفنيهم»[٤].

هذه بعض من حروب بني إسرائيل التي سجلتها نصوص كتبهم وأسفارهم، فمفهوم الحرب والقتال، ليس مفهومًا كريهًا من وجهة النظر التوراتية، وكأنها حروب مستمدة من الشريعة الدينية التوراتية، وهي كانت دائما تتم بمباركة الرب ومعونته وكأن الرب حسب تعبير التوراة قد استل سيفه من غمده فلا يرجع[٥].

(١) سفر العدد الإصحاح الثالث والثلاثون، ٥٠-٥٣.
(٢) سفر صموئيل الإصحاح السابع عشر، ٤٥-٤٧.
(٣) سفر صموئيل الأول الإصحاح الثالث والعشرون، ٦.
(٤) سفر المزامير المزمور الثامن عشر، ٣٥-٤١.
(٥) سفر حزقيال الإصحاح الواحد والعشرون، ٥.

الحرب في العهد الجديد

كذلك نرى الإنجيل لم يهمل الكلام عن الحروب بالكلية، بل جاء نص واضح صريح، لا يحتمل التأويل ولا التحريف يقرر أن المسيحية على الرغم من وداعتها وسماحتها التي تمثلت في النص الشهير: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» إلا أنها تشير إلى أن السيد المسيح عليه السلام قد يحمل السيف ويخوض غمار القتال إذا دعته الظروف لذلك؛ فجاء في الإنجيل على لسان السيد المسيح: «لا تظنوا أني جئت لأرسي سلامًا على الأرض، ما جئت لأرسي سلامًا، بل سيفًا، فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها والكنة مع حماتها وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته»[1].

مما سبق يتبين لنا واضحًا وجليا أن الحرب والقتال سنة كونية سرت في الأمم جميعًا، ولم نر في تاريخ الأمم أمة خلت من حروب وقتال، ورأينا من استعراض الكتب المقدسة - التوراة والإنجيل - أنه سنة شرعية لم تخل شريعة من الشرائع السماوية السابقة على الإسلام من تقريره والقيام به كما مر.

وكذلك يحكي لنا القرآن الكريم عن بعض هذه الحروب؛ فداود وسليمان مثلا حاربا أعداء الله في زمانهما، ويرصد القرآن الكريم ما ثار من قتال قبل الإسلام فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً

(١) إنجيل متى الإصحاح العاشر ٣٤-٣٦.

فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[1].

هذه حروب ضرورة ألجأت هؤلاء الأبرار من الأنبياء والصالحين لدفع الظلم ونشر العدل بين العباد، ولولا ذلك لفسدت الأرض كما أشار القرآن في آية أخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

لقد كان هذا القدر كافيا في إثبات أن محمدًا ﷺ سائر على سنن من سبقه من الأنبياء، وأن الجهاد لتقرير الحق والعدل مما يمدح به الإسلام؛ لا مما به يشان، وأن ما هو جواب لهم في تبرير هذه الحروب وسفك الدماء كان جوابًا لنا في مشروعية ما قام به النبي ﷺ من القتال والجهاد.

(١) سورة البقرة، الآيات من ٢٤٦-٢٥١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠.

فالقتال موجود منذ الأزل، ولجأت إليه الأمم من قبل، فليس الإسلام إذن أول من شرع القتال والحرب أو انفرد بتقرير هذه الفريضة، بل سبقه وتلاه غيره من الأديان والحضارات، والحاصل أن الإسلام يتميز عن غيره في هديه في القتال؛ فيحرص على نبل أهدافه ونزاهة وسائله وأساليبه، وشرعية رايته كما سنرى في المباحث التالية.

وإذا كان عيسى عليه السلام لم يقاتل؛ فلأنه ما شرع له القتال، وكأنه كان تمهيدا للبعث المحمدي[1].

ومع ذلك تصدى خصوم الدين النصراني للمسيح، وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون في الأرض لا تجمعهم جامعة، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الإمبراطور قسطنطين الروماني، واتفق أنه كان يدين بالنصرانية، فلما ولي الملك أعمل السيف في الوثنيين، وهدم هياكلهم وأجبرهم على قبول النصرانية دينا لهم ومن ذلك العهد أمكن النصارى من الجهر بدينهم، وأن يتخذوا لهم زعامة دينية، وأفادهم هذا الدرس القاسي في ضرورة استخدام السيف لنشر الدعوة، ولقمع الوثنيين حتى دانت لهم أوربا كلها، ولا يمكن أن ينسى أحد ما حدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق في الحيز الذي هو فيه[2].

فإذا كانت قضايا النصارى الدينية ظلت دهورا لا يحلها القساوسة إلا بالسيف، أفكان المسلمون بالسذاجة بحيث يقفون عزلا في معترك يحكمه الحديد والنار؟

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ العهد المدني، ص ٦٩٢.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ١٦٥.

لو أن الدعاية إلى الدين تقوم على منبر حر ومستمعين أحرار، لأرسل الإسلام رجاله يشرحون تعاليم دينهم لمن يجهلها، ويفندون بأدب ولين ما يأخذونه على الشرائع السابقة، وكيف مسخها التحريف وشوهتها الأغراض.

إن الإسلام لم يطلب أكثر من هذا، وهو كذلك مستعد لأن تشرح وجهات النظر الأخرى التي يعتنقها الآخرون في جو من الحوار الهادئ الهادف.

بيد أن أهل الأديان الأخرى ينكرون هذا الأسلوب في عرض قضايا الإيمان، ولم يجربوه منذ ملكوا زمام الدنيا، ما جربوا إلا التعذيب والاضطهاد لمن خالفهم، فأي عاقل ينكر استخدام الإسلام للقوة[1]؟!

فالإسلام كغيره من الرسالات يحتاج دائما إلى قوة تحميه. و قد يخيل إلى البعض - من فرط ما يسمع عن وحشية الإسلام وانتشاره بحد السيف وأنه دين الإرهاب - أن الدنيا كانت غارقة في حلم هانئ وديع إلى أن جاء الإسلام فأيقظ النائم وأفزع الوسنان، وحول حلم سلام العالم إلى كابوس دامٍ.

إن نظام الحرب في الإسلام يقوم على النظرة التي تقوم عليها كل شريعة واقعية أقرت فكرة الحرب، وهي أن في الناس من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان، وأن في الأمم من تغريها قوتها وضعف جيرانها بالعدوان والاستعمار، لا جرم أنه من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ[2].

وحينئذ أيضا لا يسع الإسلام من جانبه مهما كانت ميوله سلمية أن يمنع أصحاب رسالته عن الدفاع عن أنفسهم، وعن الدين الذي أنزل للإنسانية كافة في عالم يضيع

(١) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ١٥٤.
(٢) الأستاذ مصطفى السباعي: نظام الإسلام في السلم والحرب، ص ١٤.

الحق فيه إن لم تكن وراءه قوة تحميه وتؤيده[1].

ومحمد ﷺ لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع، وسوغته جميع العقول، وأن الذين خاطبهم الإسلام بالسيف قد خاطبتهم الشرائع الأخرى بالسيف كذلك، وأن الإسلام عقيدة ونظام، فهو من حيث النظام شأنه شأن أي نظام في أخذ الناس بالطاعة، ومنعهم أن يخرجوا عليه[2].

فلم يكن ﷺ رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب، أو يطلبها وله عنها غنى، ولكن رسالته ﷺ عامة جاءت للناس كافة، فكان لا بد أن تجتاز الأقطار، وتصل الدعوة قوية إلى الأمصار، وذلك لا يكون إلا بالاستعداد للقتال؛ فقد كان العالم محكوما بالملوك الغاشمين، والرؤساء الظالمين، وشريعة محمد ﷺ قد جاءت بمبادئ ضد الأغراض الدنيئة للحكام، وقد قاتلوه عليها، فكان لا بد أن تكون قوة مانعة من الظلم دافعة بالحق، فكان لا بد من الحرب أو الاستعداد لها[3].

أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ كان «محوطا من جهة باليهود، ولهم الحصون والقرى والمزارع والمال والعدة والمركز القوي المتغلغل في حياة العرب، وكان من جهة ثانية على عداء شديد مع أهل مكة بقيادة زعمائها الأقوياء، وكان العرب الآخرون من جهة ثالثة ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبي ﷺ ما يزال ضعيفا منعزلا مع مسلمي الأوس والخزرج، ومهاجري مكة القليلين؛ فكان منهم من يقف موقف المتربص، ومنهم من يقف موقف المناوئ، ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بإثمه إلى مشركي مكة، أو يهود المدينة.

---

(١) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ١٦٢.

(٢) الدكتور إسماعيل حلمي: محمد قائد الأمم، ص ٩٥، ٩٦.

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ العهد المدني، ص ٦٩٢.

وكل هذا يستدعي الحرب، والدفاع والتأديب والتنكيل والبعوث والسرايا والغزوات بصورة مستمرة، ويكفيك أن تعلم مثلا أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ خمسا وستين، قاد النبي ﷺ منها بنفسه سبعا وعشرين، وكل ذلك في نحو عشر سنين لتقدر خطورة الدور الذي كان للجهاد في هذا العهد، وتفهم حكمة شغل موضوعه ذلك الحيز الكبير من القرآن»[1].

هكذا كانت حروب النبي ﷺ من الضرورات التي لا بد منها؛ لأن القاعدة الأساسية التي وضعها الإسلام للحياة «هي ولا شك الطمأنينة والسلام والاستقرار، ولكن الإسلام مع هذا دين يواجه الواقع ولا يفر منه، وما دامت في الدنيا نفوس لها أهواء ونوازع ومطامع، وما دام هناك هذا الناموس الذي يطبق على الأفراد والجماعات على السواء، ناموس تنازع البقاء، فلا بد إذن من الاشتباك والحرب، وحين تكون الحرب لردع المعتدي وكف الظالم ونصرة الحق والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل وتنتج الخير والبركة والسمو للناس، وحين تكون تحيزا وفسادا في الأرض واعتداء على الضعفاء تكون رذيلة اجتماعية وتنتج السوء والشر والفساد في الناس»[2].

ومن هنا جاء الإسلام يقرر هذا الواقع ويصوره، ففي القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[3].

وبذلك كانت أولى نظرات الإسلام إلى الحرب أنها ضرورة اجتماعية أو شر لا بد منه؛ وذلك لما يرجى من ورائه من خير.

(١) الأستاذ محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، ص ٢٧٣.

(٢) رسائل الإمام حسن البنا، ص ٣٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

وهكذا اعترف الإسلام بالحرب مثل سائر الشرائع ولكن كضرورة تقدر بقدرها، فلم يفتح باب الحرب على مصراعيه، بل حصره في أهداف نبيلة وغايات سامية لا تحقق إلا عن طريقها، فالحرب في الإسلام تشبه العملية الجراحية، فهي حتم وبغيرها لا يصلح بدن المريض، ولا تأتي فكرة التدخل الجراحي في جسم الإنسان مطلقا إلا عندما تعجز الأدوية والعقاقير الطبية في العلاج، ولا يقوم بها الطبيب كما يقوم بنزهة، بل ود لو تفاداها بكل وسيلة لولا شدة الاحتياج إليها، ثم إن الطبيب لا يتجاوز موطن الداء إلى غيره بأي حال من الأحوال، إلا إذا تبين له داء قريب من مكان الداء الأصلي، وكان من مصلحة المريض التعامل معه.

فكذلك الحرب في الإسلام لا تقوم إلا لضرورة لا يمكن دفعها إلا بالحرب، وهذا يفسره قول النبي ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية»**[1].

إن الناس لا يستقيم أمرهم إذا لم تكن للمبادئ العادلة قوة تحميها بالحق من غير اعتداء، وفضيلة الإسلام ليست فضيلة خانعة ضعيفة مستسلمة، ولكنها فضيلة قوية دافعة للشر حاملة على الخير، فليس في الإسلام: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، وإنما فيه: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[2].

وفيه العفو والصبر: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ٤/ ٢٣٥، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤١).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

والعفو لا يكون إلا بعد أن يكون الأمر للإسلام، فلا يكون إلا عن مقدرة فيكون عزا لا استسلاما، والله سبحانه أمر بالصبر فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وإن الصبر يوجب ألا يندفع الجيش للقتال، بل يصابر عسى أن يكون صلحا تعصم به النفوس، وتصان به الدماء، وإن الصفح الجميل عمن آذوا أهل الإيمان يحتاج إلى صبر وقوة نفس، فليس الصبر فقط في لقاء الأعداء فحسب، بل يتجلى واضحا في كبح النفس عن شهوة الانتقام.

فالإسلام لم يغفل حتى في موطن الحرب والدفاع عن النفس والدين أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات النفوس[2].

إن حرب النبي ﷺ كما سنرى حرب فاضلة فيها الرفق، وفيها الفضيلة وإن اشتجرت السيوف؛ فهي حملة هداية، وليست حرب إبادة.

وفي ختام هذا الفصل من البحث نتساءل: هل يريد مثيرو هذه الشبه أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية في عالم مبني على مبدأ التدافع والتنازع واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل.

إن المعترضين سيقولون: وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب، وحسم منازعاتها عن طريق التحكيم، وهذا قرآنكم يدعوكم للجهاد ويحثكم على الاستبسال فيه؟

والجواب: أننا أعددنا لهذا العهد من القرآن أيضا: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ١٦٣.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

هذه حكمة بالغة من القرآن الكريم، بل هي معجزة من معجزاته الخالدة، وهي أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع الإنساني التي لا بد منها ما دام الإنسان في عقليته ونفسيته المأثورتين عنه.

غير أنه لم ينفِ أن يحدث تطور عالمي يتفق فيه على إبطال الحرب، فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه؛ ليكون حجة لأهله من ناحية، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى، ولو كان يريدها لذاتها لما نوه بهذا الحكم، بل ولو كان ذُكر له إمكان جنوح الأمم للسلم لكر على هذا القول بالدحض والهدم، ولحض أهله على عدم قبوله أو الإصغاء إليه، على اعتباره من عوامل التثبيط له.

ومما يجب لفت النظر إليه أن الإسلام قد أشاد من بذكر كلمة السلام بما لم يفعله مذهب اجتماعي قبله، ناهيك أن الله تعالى قد سمى نفسه السلام، وجعل السلام تحية الإسلام يتبادلها المسلمون في اليوم ملايين المرات، ونوه القرآن الكريم في آيات عديدة بكلمة السلام، فأجواء البلاد الإسلامية مشبعة بهذه الكلمة، يتنفسها المسلمون ممتزجة بالهواء، وليست هذه سيرة الأمم التي تجعل شعارها الحرب في الحياة، ولكنها سيرة الذين يحبون السلام ويعملون على رفع لوائه بين الناس.

ويزيد الأمر وضوحا أن الإسلام إنما سمح بالحرب لإيجاد السلام، لا لتأييد مبدأ التناحر بين الأنام، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[2].

ومن العجيب أن الأمم المؤيدة للسلام هي في مثل هذه الضرورة اليوم، فقد تجردت لحرب طاحنة مكرهة عليها، لا هم لها إلا إيجاد السلام، فعلى من يتهم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

الإسلام بإقرار مبدأ التناحر أن يعتبر بما سيقت إليه الأمم الديمقراطية اليوم من مجازر بشرية هائلة دُفعت إليها دفعا في سبيل تحطيم مبدأ التناحر لا في سبيل شيء آخر.

فإذا كانت هذه الأمم التي وصلت من المدنية إلى درجة رفيعة، تضطر إلى الدخول في مثل هذه الحرب الماحقة في القرون المتأخرة، أفلا تكون أمثال تلك الضرورة تنشأ في الجماعات التي هي في دور التكون لتحمي وجودها في عالم كان كل ما فيه موجها إليها لحلها، وملاشاة كل ما حملته من عوامل الهدم والبناء لتأسيس عهد جديد يخرج بالإنسانية من الظلمات إلى النور؟

يتضح مما مر أن اعتراف الإسلام بالحرب كضرورة لا محيد عنها، كان لحكمة بالغة، لو أغفلت لكان تلاشى كل ما حُمِّله من عوامل إنهاض الأمم، ووسائل نقلها من عهد كانت فيه ترزح تحت كسف من الضلالات، وتنوء تحت آصار من الأوهام، إلى عهد حرية التعقل والنظر والبحث والتدليل، والمسئولية الشخصية، وهي الثلاثة الأركان التي ابتنى عليها صرح التطور الأخير للإنسانية[1].

والذي سبق إليه الإسلام أيضا هو التفرقة بين الحرب المشروعة والحرب غير المشروعة، فقد أبطل الإسلام حروب العصبية العنصرية، مقررا أن الناس كلهم من أصل واحد، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، موجها النداء إلى الجميع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[3].

(١) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص١٦٦، ١٦٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وأبطل حروب العصبية الدينية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1].

ومنع حروب التشفي والانتقام: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ ﴾[2].

وأنكر حروب التخريب والتدمير، وحروب التوسع والاستيلاء، والاستعلاء ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٨٣ ﴾[3].

إن سيف الإسلام ينبغي أن يحجب عن هذا كله، فحرب المسلمين تتنزه عن هذا كله؛ لأن المسلمين دعاة لا بغاة[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٤) الأستاذ فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون، ص ٢٣٧.

٢

الفصل الثاني

الحرب في الشرائع والحضارات غير الإسلامية

الفصل الثاني

الحرب في الشرائع والحضارات غير الإسلامية

إذا ثبت أن الحرب كما قدمنا القول ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنساني، فكيف كانت صورتها قبل مجيء الإسلام؟

لذا كان لا بد ونحن ندرس أخلاقيات الحرب في سيرة رسول الإنسانية ﷺ أن نمهد لها بعرض صورة موجزة للحرب كما صورها أصحاب الشرائع والحضارات غير الإسلامية، سواء ما يتعلق بالتعاليم التي كانت تدعو إليها هذه الحضارات، أو بما كان يدور في هذه المعارك من أبشع صور القتال.

فإذا كان النبي ﷺ قد وضع للحرب من الآداب والأخلاق ما جعلها حرب رحمة وفضيلة، وحد لها حدودا لا يتعداها المحاربون عن الإسلام، ما جعلهم محررين حقيقيين للأمم بينما كانت هذه الحدود معلومة بأقسامها وتبعاتها في شريعة الإسلام، كانت العلاقة بين سائر الأمم فوضى لا تثوب إلى ضابط، ولا يستقر بينها سلام إلا حيث يمتنع وجود المحارب، فيمتنع وجود الحرب بالضرورة التي لا اختيار فيها.

ففي خارج جزيرة العرب كانت أعتى قوتين في العالم هما الرومان والفرس، والمعنى الذي تدل عليه الكلمتان يوحي بما تنطوي عليه هاتان القوتان من انتهاك معاني الإنسانية؛ فروما في اللاتينية هي «الجبارة»، وفارس تعني «المخربون»[1].

---

(١) فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون، ص ١٦.

كانت شريعة الرومان أن كل قوي يجاورك عدو تقضي عليه، وكذلك كانت شريعة فارس في الشرق مع من يجاورها، وكذلك كانت شريعة الإسكندر وخلفائه على دولته الواسعة، لم تلتفت أي من هذه الإمبراطوريات قط إلى البحث في الحقوق يوم كان الحق كله للسيف، تتولاه دولة واحدة تخضع من حولها من الرعايا المتفرقين ولا تنازعها دولة أخرى في ولايتها عليهم واستبدادها بأمرهم، لم تكن هناك شريعة في الحقوق يوم كانت شريعة السيف كافية مغنية لمن يملكه إذا غلب، ولمن يخضع له إذا حقت عليه الغلبة[1].

وقد كان القتال بين هاتين القمتين «سجالا فنيت فيه جيوش ضخمة، وناءت بمغارمه الشعوب المسكينة، وإذا ذهبت تسأل عن سره لم تجد إلا مطامع الملوك الأقدمين، ورغبتهم المجنونة في الفتوح والتوسع؛ تمكينا لعروشهم، وزيادة في أبهتها ومجدها»[2].

هذا عن الإمبراطوريات خارج الجزيرة العربية، أما عن العرب داخل الجزيرة فقد جاء الإسلام والعرب يشتبكون في حروب لا تحصى ولأغراض لا طائل تحتها.

وكانت بعض القبائل العربية ترى الغزو أمرًا طبيعيا لتسود وتسيطر وتستأثر بالرئاسة والسؤدد؛ كالحروب التي قامت في يثرب بين الأوس والخزرج.

وقد يكون السبب اقتصاديا، فإن ضيق أسباب الحياة في الجزيرة العربية أوجد حركة مستمرة نحو الماء والمرعى، مما كان سببا في قيام الحروب بين المتسابقين، ورغم أن هذا السبب قد يبدو في بعض الأحيان مبررًا مقبولا، إلا أن هذا القبول لا يصمد كثيرا عندما نعلم أن الدافع لحروب العرب أحيانًا قد لا يكون إلا لمجرد الرغبة في

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٨١.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ١١٦.

الغزو - وكأن الغزو وقتل الأبرياء وإسالة الدماء هواية تزجى بها الأوقات - وذلك كالوقائع التي كانت بين تميم و بكر وغيرهما، فقد صار القتال عندهم عادة بل طبعا فيهم، فإذا لم يجدوا إلا الغارة على الأقارب شنوها، وقد عبر عن هذا الواقع المرير الشاعر العربي فقال[1]:

وأحيانا على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

والمعنى: أنهم لاعتيادهم الغارة لا يصبرون عنها، حتى إذا أعوزهم الأباعد عطفوا على الأقارب[2].

وقد يرقى السبب شيئا ما في التفاهة، فيكون مؤججا لحرب ضروس لا ترحم الكبير ولا الصغير، وذلك كأن يكون سبب القتال قصيدة في الهجاء أو لمجرد العصبية القبلية العمياء.

ومن هذا المنطلق نجد أيام العرب الذين ظهر الإسلام في بيئتهم - من الكثرة للغاية التي يصعب استقصاؤها تفصيلًا. وعلى الرغم من كثرة ما رواه الأخباريون عنها، فإنهم لم ينقلوا منها إلا عددًا قليلًا من الأيام التي كانت لها أهمية خاصة.

قال العلامة محمد أمين البغدادي: «اعلم أن الحروب الواقعة بين العرب في الجاهلية أكثر من أن تحصر»[3].

وقد ذكروا أن أبا عبيدة (ت ٢١١هـ) صنف كتابًا أفرده لرواية ١٢٠٠ يوم من أيام العرب، و لكنه للأسف لم يصل إلينا. وذكر الآلوسي أن أبا الفرج الأصفهاني استقصى أيام العرب حسب إمكانه في كتاب أفرده لذلك فكانت ١٧٠٠ يوم»[4].

(١) البيت في الكامل للمبرد ١/ ٥٣.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٤٠. (٣) سبائك الذهب، ص ٤٤٣.

(٤) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ص ٣٧٥، ٣٧٦.

وقد ذكرت كتب التواريخ أيامًا كثيرة للعرب «البسوس، وداحس والغبراء، يوم النسار، يوم الجفار، يوم الفجار، يوم ذي قار، يوم شعب جبلة، يوم رحرحان... إلخ».

وعلى الرغم من أننا لم نقف على إحصاء دقيق لما خلفته هذه الحروب إلا أن الكلمات التي قيلت في وصف آثارها من الفناء والخراب وتيتم الأطفال وترمل النساء... إلخ لتوقفنا على مدى ما أحدثته الحرب في نفوس الناس من اليأس والشؤم، ويصف لنا الشاعر زهير بن أبي سلمى طرفًا من ذلك في معلقته المشهورة وهو يخاطب الساعين للسلام بين عبس وذبيان فيقول[1]:

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فهو يقول للساعين للسلام: إنكما بتحملكما ديات الحرب من مالكما، أنقذتما عبسا وذبيان بعدما يئسوا، ودقوا بينهما عطر منشم، ومنشم هو اسم لامرأة كانت تبيع العطر يضرب بها المثل في التشاؤم، دليل على عظم اليأس الذي أصاب نفوس الناس من انتهاء هذه الحرب[2].

هكذا كانت أحوال الحروب داخل الجزيرة فقد أكلتهم الغارات المتبادلة، وكان الغزو والسطو مترادفين، ولكثرة سفك الدماء لسبب ولغير سبب ألجأتهم الحاجة إلى الاتفاق على أوقات معينة من العام يدعون فيها القتال، فكانت الأشهر الحرم عندهم أشهر سلام وهدوء يتفرغون فيها لشئون معاشهم، وهذه الأشهر أربعة؛ ثلاثة منها متواليات؛ وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، وسميت الأشهر الحرم لحرمة القتل والقتال فيها.

---

(١) شرح القصائد التسع الجاهليات، لابن النحاس ص ٥٢٨.

(٢) الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص ٨٣.

بيد أنه شق عليهم الكف عن القتال ثلاثة أشهر متواليات، فقد كان الشره إلى الدم والشوق إلى الطغيان يهزهم، فأدخلوا على الأشهر الحرم تعديلا يتيح لهم تقصير هذه المدة، وهو نظام «النسيء»[1]؛ وذلك بأن يراعوا حرمة شهرين متتابعين؛ وهما ذو القعدة وذو الحجة بدلا من ثلاثة، ويحلوا القتال في شهر المحرم، على أن ينسئوا حرمته وينقلوها إلى شهر آخر كصفر مثلا، فإذا جاء صفر مثلا واحتاجوا فيه إلى القتال أحلوه وحرموا ربيعا الأول وهكذا، فكان المعتبر في التحريم عندهم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر[2].

و في ذلك يقول الحق جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[3].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

«هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضَبِية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة الأشهر الأربعة، كما قال شاعرهم، وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان[4]:

---

(١) من نسأه إذا أخر أجله. لسان العرب مادة (ن س أ).

(٢) الدكتور علي عبد الواحد وافي: بحوث في الإسلام والاجتماع، ص ١٩٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(٤) الأبيات في سمط اللآلي ١/ ٢٤.

لَقَدْ عَلمت مَعد أنَّ قَومِي كــرَامُ النَّاس أنَّ لَهُمْ كِراما
ألسْنا الناسئينَ على مَعد شُهُورَ الحِل نَجْعلُهَا حَرَاما
فأيّ النَّاسِ لَم تُــدْرَك بوتْر وأيّ النَّاس لم نُعْلك لجاما»[1]

وهكذا كانت حياة العرب قتالًا في قتال، دماء تسفك ودماء تراق، ولم يكن يطفئ الدم إلا دم جديد، وبذا يتعدد القتل والثأر، وتتوارث القبائل المتخاصمة الثارات.

والمتأمل في هذه الملاحم والأيام يرى أن الحماسة الشديدة والعصبية العمياء وعدم الاكتراث بعواقب الأمور، والشجاعة المتهورة التي لا تتسم بالعقل، كانت هي الوقود المحرك لهذه الحروب، هذا فضلًا عن تفاهة الأسباب التي قامت من أجلها هذه المجازر، والمدة الزمنية الطويلة التي استمرت في بعضها عشرات السنين، والآثار الرهيبة التي خلفتها هذه الحروب.

وإذا ما تجاوزنا الأمم والحضارات البشرية، وتأملنا في الكتب السماوية المقدسة «التوراة والإنجيل»، وحاولنا أن نرصد التعاليم الخاصة بشأن الحروب في الأسفار المقدسة، فإننا سنقابل تعاليم شديدة الوطئة على الأعداء، لا تعرف رحمة، ولا تركن إلى ضابط، بل إنها تنتهج فكرة أن كل شيء في الحروب مباح، وسنرى مدى البشاعة التي تصورها هذه الأسفار لدى اليهود والنصارى.

فقد جاء في سفر التثنية: «حين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولا، فإن أجابتكم إلى الصلح، واستسلمت لكم فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم، وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها، فإذا أسقطها الرب إلهكم إلى أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٠.

من أسلاب، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إلهكم. هكذا تفعلون بجميع المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا.

وأما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم ميراثا، فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمروها عن بكرة أبيها؛ كمدن الحِثِّيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، كما أمركم الربِ إلهكم، لكي لا يعلموكم رجاستهم التي مارسوها في عبادة آلهتهم، فتغووا وراءهم، وتخطئوا إلى الرب إلهكم»[1].

فظهر من هذا النص أن الله أمر بأن يقتل بحد السيف كل ذي حياة من رجال الشعوب الستة: الحثيين، والأموريين، والكنعانيين، والفرزيين، والحويين، واليبوسيين، وأمر فيما عداهم بأن يدعَوا:

أولًا: إلى الصلح، فإن رضوا به، وقبلوا الطاعة والخضوع وأداء الجزية، فبها.

ثانيًا: وإن لم يرضوا، يحاربوا.

ثالثًا: فإذا تم الظفر بهم، يقتل كل ذكر منهم بحد السيف، وتسبى نساؤهم وأطفالهم، وتنهب دوابهم وأموالهم، وتقسم على المحاربين.

وهكذا يفعل بكل الشعوب البعيدة عن الشعوب الستة.

هكذا توصي الأسفار المقدسة بحرب الإبادة التي لا تبقي في ديار الأعداء إنسانا أو حيوانا، وقد نفذ المتدينون بهذه الأسفار هذه الوصايا بدقة، واستوحوا منها مسالكهم تجاه خصومهم في العقيدة أو في الرأي، إنهم يسفكون الدماء لا على أنها جرائم، بل على أنها قربات يطلبون بها رضوان الرب، إنهم يعتصرون أعناق الضحايا كما يبدءون

(١) الإصحاح العشرون من سفر التثنية، فقرة ١٠ وما بعدها.

في إقامة صلاة سواء بسواء»[1].

وجاء في سفر الخروج: «... إذ يسير ملاكي أمامك حتى يدخلك بلاد الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين الذين أنا أبيدهم، إياك أن تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل أعمالهم، بل تبيدهم وتحطم أنصابهم»[2].

هذه معالم حرب الإبادة كما تصفها الكتب المقدسة.

وفي سفر الخروج جاء أيضًا- في شأن هؤلاء الشعوب الستة: «احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلا يصيروا فخا في وسطك، بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم»[3].

فهل من الممكن أن تنضح عاطفة رحمة وسط هذه المجازر المتعاقبة.

وفي سفر العدد: «وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلًا: كلم بني إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة، وتخربون جميع مرتفعاتهم، تملكون وتسكنون فيها لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم، الكثير تكثرون له نصيبه، والقليل تقللون له نصيبه. حيث خرجت له القرعة فهناك يكون له. حسب أسباط آبائكم تقتسمون. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون

(١) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ٢٩٧.
(٢) الإصحاح الثالث والعشرون من الخروج، فقرة ٢٢ وما بعدها.
(٣) الإصحاح الرابع والثلاثون من سفر الخروج، فقرة ١١ وما بعدها.

منهم أشواكًا في أعينكم ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها. فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم»[1].

هذه هي المبادئ والأسس التي يصدر عنها رجال لا يستحيون من اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف.

وفي سفر التثنية: «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتملكها وتطرد شعوبًا كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك. ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم، لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم، بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك؛ لأنه يرد ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيحمى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا، ولكن هكذا تفعلون بهم؛ تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار؛ لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك»[2].

هكذا يزعمون كما يتضح من هذا النص أن الله أمر بإهلاك كل ذي حياة من الأمم السبع، وعدم الشفقة عليهم، وعدم إبرام أي معاهدة معهم، وتخريب مذابحهم، وتكسير أصنامهم، وإحراق أوثانهم، وتقطيع سواريهم، وطالب بإهلاكهم، وشدد في ذلك تشديدًا بليغًا، حتى قال لهم إن لم ينفذوا: «إني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم».

ثم إذا تابعنا النصوص الواردة في أسفارهم المقدسة التي تحمل أوامر مشددة بالقتل والإبادة فإننا نجد كل ما يشيب ويريب.

---

(١) الإصحاح الثالث والثلاثون من سفر العدد، فقرة ٥٠ وما بعدها.

(٢) الإصحاح السابع من سفر التثنية، فقرة ١ وما بعدها.

ففي سفر الخروج يقول عن عبدة العجل: «ولما رأى موسى الشعب أنه معرى، لأن هارون كان قد عراه للهزء بين مقاوميه. وقف موسى في باب المحلة. وقال: من للرب فإليَّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي، فقال لهم. هكذا قال الرب إله إسرائيل، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه، وكل واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى، ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل»[1].

إن هذه التعاليم الإلهية في نظر اليهود والنصارى هي أساس الصلات بينهم وبين من يحاربونه. وهي التدمير الذي يسقط جثة الأب إلى جوار ولده، وإلى جوار امرأته، ثم يهدم البيت فوق الجميع.

لقد نعى الله تعالى على أهل الكتاب السابقين هذا التوحش في مسالكهم، فقال تعالى لليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[2].

وقال عن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[3].

وقد هبت على حضارات العالم كلها سموم محرقة من لفح هذه العداوات والأحقاد[4].

---

(١) الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج، فقرة ٢٥ وما بعدها.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٤.

(٤) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ٢٩٩.

ففي سفر العدد: «وأقام إسرائيل في شطيم وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب، فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن. فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن، وتعلق إسرائيل ببعل فغور، فحمي غضب الرب على إسرائيل، فقال الرب لموسى: خذ جميع رءوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل، فقال موسى لقضاة إسرائيل: اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور. وإذا رجل من بني إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع، فلما رأى ذلك فينحاس بن ألعازار بن هارون الكاهن، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحًا بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة، وطعن كليهما الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها، فامتنع الولاء عن بني إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالولاء أربعة وعشرين ألفًا»(١).

وجاء في سفر العدد: «وقال الرب لموسى: انتقم من المديانيين لبني إسرائيل، وبعدها تموت وتنضم إلى قومك. فقال موسى للشعب: جهزوا منكم رجالا مجندين لمحاربة المديانيين والانتقام للرب منهم. أرسلوا للحرب ألفا من كل سبط من أسباط إسرائيل. فتم اختيار ألف من كل سبط، فكانوا اثني عشر ألفا من بين ألوف إسرائيل مجردين للقتال، فأرسلهم موسى ألفا من كل سبط للحرب بقيادة فنحاس بن ألعازار الكاهن الذي أخذ معه أمتعة القدس وأبواق الهتاف، فحاربوا المديانيين كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر، وقتلوا معهم ملوكهم الخمسة؛ أوي وراقم وصور وحور ورابع، كما قتلوا بلعام بن بعور بحد السيف، وأسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدنهم كلها بمساكنها وحصونها واستولوا على كل الغنائم والأسلاب من الناس والحيوان»(٢).

---

(١) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر العدد، فقرة ١، وما بعدها.

(٢) الإصحاح الحادي والثلاثون من سفر العدد، ١٣.

وإذا انتقلنا إلى يشوع فإننا نجده قد قام بقتل الملايين وذلك بعد موت موسى، كما هو مذكور في سفره.

وفي سفر القضاة: إن شمشون قتل ألف رجل بلحي حمار: «ووجد لحي حمار طريا، فمد يده وأخذه وضرب به ألف رجل، فقال شمشون: بلحي حمار كومة كومتين، بلحي حمار قتلت ألف رجل»[1].

وفي سفر صموئيل الأول: «وصعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والجرزيين والعمالقة؛ لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض من عند شور إلى أرض مصر وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلًا ولا امرأة، وأخذ غنمًا وبقرًا وحميرًا وثيابًا ورجع إلى أخبيش»[2].

فهذا هو داود -كما تقدمه لنا النصوص المقدسة- رجل يسطو على البلاد، ويخرب الديار، فما كان يبقي رجلًا ولا امرأة، ولا دابة ولا متاعًا.

وفي سفر صموئيل الثاني: «وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات. فأخذ داود منه ألفًا وسبعمائة فارس وعشرين ألف راجل. وعرقب داود جميع خيل المركبات وأبقى منها مائة مركبة. فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل، وجعل داود محافظين في آرام دمشق وصار الآراميون لداود عبيدًا يقدمون هدايا»[3].

وفي سفر صموئيل الثاني: «فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها، وأخذ تاج ملكهم عن رأسه ووزنه وزنة من الذهب مع حجر كريم وكان

(١) الإصحاح الخامس عشر من سفر القضاة، فقرة ١٥، وما بعدها.
(٢) الإصحاح السابع والعشرون من سفر صموئيل الأول، فقرة ٨، وما بعدها.
(٣) الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الثاني، فقرة ٣، وما بعدها.

على رأس داود. وأخرج غنيمة المدينة كثيرًا جدا. وأخرج الشعب الذي كان فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفئوس حديد وأمرهم في أتون الآجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون»[1].

هكذا تكلمت أسفار العهد القديم، وبهذا آمن كهنة العهد القديم، فماذا تقول أسفار العهد الجديد؟ وبماذا يؤمن كهنة العهد الجديد؟

يعقب بولس على هذا كله وغيره وهو كثير- بقوله: «وماذا أقول أيضًا لأنه يعوزني الوقت إن أخبرت عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا برًّا، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، أطفئوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقووا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوشًا غرباء»[2].

فبولس -أعظم كهنة العهد الجديد- يرى أن ما فعله هؤلاء الذين عدد أسماءهم إنما هو بر وإيمان وتقوى وإصلاح وخير.

وهكذا يتناقل الكهنة القدامى والمحدثون أخبار الدمار والخراب والقتل والتشريد بالابتهاج والتسبيح والتحميد... وتفريخ الكرامات والآيات والمعجزات.

وعلى وقع الترانيم الكنسية يرددون قول المسيح: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا، بل سيفًا»[3].

هذه بعض النصوص التي تصور الحرب في الأسفار المقدسة لدى اليهود والنصارى، وفيها مئات النصوص التي تتضافر مع هذه النقولات لتؤكد على أن

(١) الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني، فقرة ٢٩، وما بعدها.

(٢) العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين، ص ٣٢٦.

(٣) إنجيل متى، الإصحاح العاشر، ٣٤.

الحرب للانتقام وحب السيطرة والرغبة في التملك، وليس فيها من المبادئ التي يسيرون عليها، بل إن المبدأ هو الانتقام من الناس واستعبادهم.

هذا عن التعاليم التي يدينون بها، أما عن القسوة والوحشية في الحروب، فحدث ولا حرج عن بشاعتها مما سجلته التوراة نفسها، كما يقرر غوستاف لوبون حيث يقول: «ويعرف جميع قراء التوراة وحشية اليهود التي لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ ليقنع بذلك إلا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم يهوه من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء»[1].

ونوجز هنا تاريخ الاضطهاد الصليبي للتعرف على مدى القسوة المتبادلة بين المتناحرين[2].

ويمكن تقسيم هذا الاضطهاد إلى نوعين:

النوع الأول: كان فيه الصليبيون هم المضطهَدين.

والنوع الثاني: كانوا هم المضطهِدين.

والذي علينا هو أن نلقي نظرات فاحصة لنتعرف على ملامح القوم في الحالتين!

---

(١) غوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات، ص ٤٧.

(٢) يمكن الرجوع في ذلك إلى الدكتور توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص ١١٤ وما بعدها، والشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٧٨ وما بعدها، ومناظرة بين الإسلام والنصرانية، لمجموعة علماء، ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، سنة ١٤٠٧هـ.

علينا أن نتعرف على ما نزل بالنصارى من أعدائهم في فجر تاريخ النصرانية، ثم ما أنزله النصارى بأعدائهم ومخالفيهم بعد قوتهم وسيطرتهم وتمكنهم وتحكمهم.

لقد كان النصارى -في أول عهدهم- مغلوبين على أمرهم، تنزل بهم صنوف العذاب، وألوان الضيم والخسف والوحشية، ثم لما آل إليهم الأمر، وأصبح بيدهم السلطان، أنزلوا بأعدائهم ومخالفيهم ألوانًا من القتل والذبح والتشريد.. حتى أنشئوا للعذاب البربري ديوانًا سموه «الديوان المقدس» ومحاكم سموها «محاكم التفتيش».

أما تعاليم الرحمة والغفران، ونداءات المسيح التي يتشدقون بها:

«سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك وأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده».

«سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعدائكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم»[1].

أما هذه الوصايا والنصائح، فقد ذهبت أدراج الرياح.

كانت هذه نبذة يسيرة عن الأسلوب الذي عاشت به النصرانية بعد رفع المسيح، وهو أسلوب لا يجرؤ منصف على تبريره أو تبرئة رجاله، بل إن منازع العدوان والجبروت تصبغه وتزري به، وتنادي بضرورة وقاية العالم أجمع من فتكاته وغدراته.

---

(١) إنجيل متى الإصحاح الخامس، ٣٨-٤٤.

النصارى تحت وطأة الاضطهاد

لقد بدأ اضطهاد النصارى منذ وقت مبكر، وقد كان المسيح نفسه - حسبما تصوره أساطيرهم - ضحية لهذا الاضطهاد. وقد نزل بأتباعه فيما بعد كثير من العسف والظلم، وكان اليهود مصدر هذه القسوة.

لكن النصرانية بدأت تنتشر على الرغم من اليهود، وغلبتهم على أمرهم، وحينئذ تقدم أباطرة الرومان، ليقوموا بدورهم المشهور في اضطهاد النصارى، وذلك لأن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر ذلك الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية، ولقد كانت اليهودية موضع كراهية واشمئزاز من الرومانيين. وذلك على غير ما جرى عليه العرف من أن الإمبراطورية الرومانية تعطي أبناءها حق الحرية الدينية.

ذلك أن اليهودية - بتعصبها وعنصريتها- أثارت الحقد والضغينة في القلوب، وكان الأباطرة - قبل المسيح - يقاومون ذلك التيار اليهودي العدواني الجارف، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إنه مما أثار حقد الرومان على النصرانية - كذلك - أن النصرانية أخذت من اليهودية تعصبها، فأعلنت - حتى في عهود ضعفها - أنها تناصب العقائد الأخرى العداء، وأنها ستعمل على تحطيم الحضارة الرومانية عندما تتهيأ لها الفرصة.

أما هذا التحول الذي أعلنته النصرانية من التسامح والرضا والرحمة، إلى الحقد والثأر، فإنه يمثل تحولها وانتقالها من وصايا عيسى، إلى أفكار بولس، كما يؤكد ذلك كثير من المؤرخين والباحثين(١).

ولعل أبشع حركات الاضطهاد التي عاناها النصارى في القرن الأول تلك التي أنزلها بهم نيرون الطاغية سنة ٦٨م، فقد ألقى بعضهم للوحوش الضارية تنهش

(١) الدكتور مصطفى حلمي: الإسلام والأديان دراسة مقارنة، ص ١٨٩.

أجسامهم، وأمر فطليت بالقار وأشعلت لتكون بعض مصابيح الاحتفالات التي أقامها نيرون في حدائق قصره !!

وفي القرن الثاني كان النصارى يعتبرون أنجاسًا لا يسمح لهم بدخول الحمامات والمحال العامة، وكانوا - كما حدث في عهد نيرون وغيره - يلقون للوحوش الضارية تفترسهم في مدرج عام يضم خصومهم الذين يحضرون للتلهي بمشاهدة هذه المظاهر.

ولقد سجل القرن الثالث صورًا أخرى من أبشع وأشنع أنواع التعذيب والاضطهاد للنصارى، وذلك في عهد الإمبراطور دقلديانوس، فقد أمر بهدم الكنائس، وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها، وقرر اعتبار النصارى مذنبين، وأسقط حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين، وصب عليهم العذاب ألوانًا.

ونفذت هذه التعليمات في جميع المناطق، فامتلأت السجون بالنصارى ومات الكثيرون بعد أن مزقت أجسادهم بالسياط، والمخالب الحديدية، وأحرقت بالنار، ومزقت إربًا إربًا، أو طرحوا للوحوش الضارية أو غير هذا من وجوه التعذيب، وقد سمى النصارى عصره الممتد من سنة ٢٨٤ إلى ٣٠٥م عصر الشهداء.

وفي مطلع القرن الرابع تغيرت الأحوال فقد أصدر الإمبراطور قسطنطين مراسيم التسامح سنة ٣١١، ٣١٢م، ثم دخل النصرانية بعد ذلك بعشر سنوات، وسرعان ما قويت النصرانية، ورجحت كفتها، فانقضَّت على أعدائها، تقتل، وتعذب، وتفتك، فتأسست الجمعيات الثورية باسم الدين، وكان أشهرها جمعية «الصليب المقدس» في تورينو، التي أخذت على عاتقها استئصال شأفة بقايا الرومانيين الوثنيين.

حدّث بعد ذلك ولا حرج، عن الدماء التي سفكت، والأرواح التي أزهقت، مما جعل «هارثمان» يصف الانتقام النصراني، بأنه أفظع المجازر البشرية التي سجلها التاريخ !!

ولم يقف الاضطهاد النصراني، أو الانتقام النصراني عند الوثنيين فحسب، بل تعداهم إلى النصارى أنفسهم؛ إذ إن النصرانية التي ظهرت وأصبحت ذات كيان وسلطان، لم تكن نصرانية عيسى عليه السلام، وإنما هي نصرانية بولس ونصرانية الفلسفة الإغريقية، لكنها كانت - ولا تزال- تحمل اسم النصرانية على أي حال.

وإذا كانت هذه النصرانية قد ابتدعت أشياء لا يرضى عنها النصارى الحقيقيون كألوهية المسيح، والتثليث، والصلب والفداء، وما إلى ذلك، فقد بدأ صراع جديد اعتُبر فيه النصارى الحقيقيون متمردين، وأوقعت بهم النصرانية الإغريقية أو نصرانية بولس، ألوانًا من العنت والاضطهاد، واستمرت الكنيسة في تفريخ البدع، وترويج الخرافات كالعشاء الرباني، وصكوك الغفران.

ووجد من النصارى من يعارض هذه الخرافات، فووجه بقسوة لا نظير لها، ووحشية تشمئز منها النفوس.

وسنوجز في هذه العجالة القول في العنت والاضطهاد الذي أنزله النصارى بإخوانهم النصارى.

في القرن الرابع الميلادي، عارض «آريوس» القول بألوهية المسيح مما دعا إلى عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م.

وقرر هذا المجمع إدانة آريوس، وإحراق كتاباته وتحريم اقتنائها وخلع أنصاره من وظائفهم ونفيهم والحكم بإعدام كل من أخفى شيئًا من كتابات آريوس وأتباعه.

وفي عهد تيودوسيوس سنة ٣٩٥م، ظهرت لأول مرة محكمة التفتيش.

وتم تنظيمها فيما بعد في القرن الثاني عشر وكان أعضاؤها من الرهبان، وكانت وظيفتهم اكتشاف المخالفين في العقيدة، ولهم سلطان كبير فلا يسألون عما يفعلون.

وتاريخ محكمة التفتيش هو تاريخ الاضطهاد الديني في أقسى صوره، وقتل حرية الفكر بأبشع أسلوب.

ومن أشد أساليبها انحرافًا، أنها نادت بضرورة أن ينهي كل إنسان - في غير ما تواطؤ، أو تباطؤ- ما يصل إلى سمعه أو علمه من أخبار الملحدين، وهددت من يتوانى في ذلك بعقوبات صارمة في الدنيا والآخرة، فانتشر بسبب ذلك القرار الإرهابي- نظام التجسس حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

وفي القرون التالية كثر صرعى هذا النظام، وتعرض للشنق والإحراق والإعدام جماعات كثيرة لأنهم في نظر الكنيسة وكهنتها هراطقة[1].

وكثيرًا ما كانت الكنيسة تلجأ إلى الإعدام البطيء مبالغة في التعذيب، إذ كانت تسلط الشموع على جسم الضحية، وتخلع أسنانه كما فعل ببنيامين كبير أساقفة مصر، لأنه رفض الخضوع لقرارات مجمع خلقيدونية الذي يرى أن للمسيح طبيعتين: إلهية وإنسانية.

وكان الإعدام يطبق بصورة بشعة من التعذيب؛ كالكي بالنار والضرب المبرح، لعل المتهم يعترف أو يقر، فإن لم يعترف قتل.

وكان شعار المحاكمات: المتهم مجرم حتى تثبت براءته. وليس: المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

وإذا اعترف المتهم بجريمته استمر تعذيبه قبل القضاء عليه لعله يعترف بأسماء أنصاره وشركائه.

(١) الهراطقة: اسم أطلقه النصارى على من انتقد عقائد النصارى منهم، ومعناه: المبتدعة من النصارى، وقد اقتربوا في هذا الانتقاد من عقائد المسلمين في المسيح حيث أقروا بعدم الصلب، كما أنكروا ألوهيته وغير ذلك. حسني يوسف الأطير: عقائد النصارى الموحدين بين المسيحية والإسلام، ص ٣٥.

وكانت القوانين تقضي أن يحمل الأبناء والأحفاد تبعة الجرم الذي يتهم به الآباء.

واستعملت الكنيسة الرومانية مرات كثيرة الاضطهادات والطرد ضد البروتستانت، وذلك في ممالك أوروبا، وقد بلغ عدد من أحرق بالنار قرابة ٢٣٠ ألفا من الذين آمنوا بيسوع دون البابا.

وفي فرنسا قتل في يوم واحد ثلاثون ألف رجل، وفي مدينة تولوز قتل ألف ألف، وفي كالابريا الإيطالية سنة ١٥٦٠م، قتل ألوف الألوف من البروتستانت، يقول أحد الكتاب الرومانيين: إنني أرتعد كلما تذكرت ذلك الجلاد والخنجر الدموي بين أسنانه والمنديل يقطر دمًا بيده، وهو متلطخ اليدين إلى نهاية المرفقين، يسحب واحدًا بعد واحد من المساجين كما يفعل الجزار بالغنم !!

وكارولوس الخامس سنة ١٥٢١م، أصدر أمرًا بطرد البروتستانتيين من بلاد الفالامنك برأي البابا وبسبب ذلك قتل خمسمائة ألف.

وبعد كارلوس تولى ابنه فليبس ولما ذهب إلى إسبانيا سنة ١٥٥٩م، استخلف الأمير ألفا على طرد البروتستانتيين، ويذكر المؤرخون أنه في أشهر قليلة قتل على يديه ثمانية عشر ألفًا! وبعد ذلك كان يفخر بأنه قتل في جميع المملكة ستة وثلاثين ألفًا!

هذا ما فعله الكاثوليك بالبروتستانت.

فماذا فعل البروتستانت بالكاثوليك عندما قدروا؟

أصدر البروتستانت هذه القوانين:

- لا يرث كاثوليكي تركة أبويه.
- لا يشتري واحد منهم أرضًا بعدما يجاوز عمره ثماني عشرة سنة إلا إذا صار بروتستانتيًا !!

- لا يشتغل أحد منهم بالتعليم، ومن خالف هذا الحكم يسجن سجنًا مؤبدًا.
- من كان من الكاثوليك يؤدي ضعف الخراج.
- إن أرسل أحد منهم ولده خارج إنجلترا للتعليم يقتل هو وولده وتسلم أمواله ومواشيه كلها.
- لا يعطى لهم منصب في الدولة.
- من لم يحضر منهم يوم الأحد أو العيد في الكنيسة البروتستانتية يغرم غرامة مالية شهرية كبيرة، ويكون خارجًا عن الجماعة.
- لا يسمع استغاثة أحد منهم عند الحكام وحسب القانون.
- لا تنفذ أنكحتهم، ولا تجهز موتاهم ولا تكفن، ولا تعمد أولادهم إلا إذا كان ذلك على طريقة كنيسة إنجلترا.
- لا يحضر القسيس عند قتلهم ولا عند تجهيزهم وتكفينهم.
- لا يصح لواحد منهم أن يمتلك سلاحًا.
- إن أدى قسيس منهم خدمة من الخدمات المتعلقة به يسجن سجنًا مؤبدًا.

ولقد حمل كثير من رهبانهم وعلمائهم بأمر الملكة إليزابيث في المراكب، ثم أغرقوا في البحر، وجاء عساكرها إلى أيرلندا ليدخلوا الكاثوليك في المذهب البروتستانتي، فأحرقوا كنائس الكاثوليك، وقتلوا علماءهم، وكانوا يصطادونهم كاصطياد الوحوش البرية، وكانوا لا يؤمنون أحدًا، وإن أمنوه قتلوه أيضًا بعد الأمان !!

وفي إسبانيا فقط قدمت محكمة التفتيش للنار أكثر من ٣١ ألف نسمة، وحكمت على ٢٩٠ ألفا بعقوبات أخرى تلي الإعدام.

وفي عام ١٥٦٨م أصدر «الديوان المقدس» حكمه بإدانة جميع سكان الأراضي المنخفضة، والحكم عليهم بالإعدام واستثنى من الحكم بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم، وبعد عشرة أيام من صدور الحكم دفع للمقصلة ملايين الرجال والنساء والأطفال.

ومن أهم المذابح التي دبرها الكاثوليك للبروتستانت مذبحة باريس في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢م، التي سطا فيها الكاثوليك على ضيوفهم من البروتستانت، هؤلاء الذين دعوا لباريس لعمل تسوية تقرب بين وجهات النظر، ثم قتلوا خيانة وهم نيام، فلما أصبحت باريس كانت شوارعها تجري بدماء هؤلاء الضحايا، وانهالت التهاني على شارل التاسع من البابا وملوك الكاثوليك وعلمائهم على هذا العمل البطولي النبيل.

وقد أسلفنا أن البروتستانت لما قويت شوكتهم مثلوا نفس الدور، دور القسوة والاضطهاد الدنيء مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية في معاملة خصومهم وأعدائهم السابقين.

وهكذا دَوَّن تاريخ النصرانية أخبار بحار من الدماء، وأكداس من جثث الضحايا البشرية التي تحولت إلى رماد محترق، وآهات ودموع وأنين ووحشية وبربرية وأصوات استغاثة.

الاضطهاد النصراني لليهود

يقول ابن البطريق: «وأمر الملك ألا يسكن يهود بيت المقدس، ولا يمر بها، ومن لم يتنصر يقتل، فتنصر من اليهود خلق كثير، وظهر دين النصرانية. فقيل لقسطنطين الملك: إن اليهود يتنصرون من فزع القتل، وهم على دينهم. قال الملك: كيف لنا أن نعلم ذلك منهم؟ قال بولس البترك: إن الخنزير في التوراة حرام، واليهود لا يأكلون

لحم الخنزير، فأمر أن تذبح الخنازير، وتطبخ لحومها، وتطعمهم منها، فمن لم يأكل منه علمنا أنه مقيم على دين اليهودية. فقال الملك: إذا كان الخنزير في التوراة حرامًا فكيف يجوز لنا أن نأكل لحم الخنزير ونطعمه الناس؟ فقال له بولس البترك: إن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما في التوراة، وجاء بناموس آخر، وبتوراة جديدة، وهو الإنجيل، وفي إنجيله المقدس، أن كل ما يدخل البطن ليس بحرام ولا بنجس وإنما ينجس الإنسان الذي يخرج من فيه. فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها، وتقطع صغارًا صغارًا، وتصير على أبواب الكنائس في كل مملكته يوم أحد الفصح، وكل من خرج من الكنيسة يلقم لقمة من لحم الخنزير، فمن لم يأكل منه يقتل، فقتل لأجل ذلك خلق كثير»[1].

وليست هذه هي الحادثة الوحيدة التي صب فيها النصارى العذاب صنوفًا على رءوس اليهود... وإنما هناك عبر سنوات التاريخ وعصوره حوادث وحوادث... نختصر بعضها في هذه السطور:

كان الكاثوليك يعتقدون أن اليهود كفار، ولهذا أجروا عليهم عدة أحكام منها:

- من حمى يهوديًّا ضد نصراني خرج عن الملة.
- لا يعطى يهودي منصبًا في دولة من الدول.
- لو كان نصراني عبدًا ليهودي فهو حر.
- لا يأكل أحد مع يهودي، ولا يتعامل معه.
- أن تنزع أولادهم منهم ويلقنوا العقيدة النصرانية.

وقد أجلي اليهود من فرنسا سبع مرات.

(١) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤/ ٢٣٢.

وعدد اليهود الذين أخرجوا من النمسا وحدها ٧١ ألف أسرة.

وفي النمسا أيضًا قتل كثير منهم ونهبت أموالهم، ونجا منهم القليل، وهم الذين تنصروا.

وفي النمسا -أيضا- مات كثير منهم بأن سدوا عليهم أبوابهم ثم أهلكوهم إما بالإغراق في البحر، أو بالإحراق في النار.

وفي إنجلترا، ذاق اليهود ألوان الذل والتشريد والطرد، حتى إن إدوارد الأول لما ولي الملك أصدر أمره بنهب أموالهم كلها ثم أجلاهم من مملكته، فأجلى أكثر من خمسة عشر ألف يهودي في غاية الفقر والحاجة !

وقد نقل أحد المسافرين واسمه «سوتي»: «أنه كان حال البرتغاليين، أنهم كانوا يأخذون اليهودي، ويحرقونه بالنار، ويجتمع رجالهم ونساؤهم يوم إِحراقه كاجتماع يوم العيد، وكانوا يفرحون أعظم الفرح، وكانت النساء يصحن وقت إحراقه سعادة وسرورًا».

ولو ضممنا إلى هذا كله ما فعله النصارى بالمسلمين، في الحروب الصليبية، وكذلك في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، ثم ما فعله الاستعمار الصليبي القديم والحديث بالمنطقة الإسلامية، لتبين لنا أن النصرانية التي يصر معتنقوها على اعتبارها دين الرحمة والتسامح ما هي إلا باب من أبواب العذاب والتنكيل، وجحيم لا يطاق من التآمر والفتك، وملحمة من ملاحم الاغتيالات والكراهية والحقد! وجرح لا يندمل في قلب البشرية وضميرها يطفح بالدم والصديد.

هكذا كانت الحروب قبل الإسلام وبعده، في جزيرة العرب وغيرها، وهكذا جاءت التعاليم في أسفار اليهود والنصارى، تصدر عن بواعث دنيئة، وترمي إلى أهداف خسيسة، إننا «عندما نقرأ أنباء الجيوش الزاحفة في عصرنا هذا، أو في

العصور السالفة، تمر بأعيننا صور من الدمار الشامل والهلاك المبين، وتتقزز أنفسنا من سيطرة البغي والأثرة على الساسة والقادة الذين يشعلون الحروب الدامية إشباعا لكبريائهم وإرضاء لأطماعهم غير مكترثين لما يحل بالبلاد والعباد من نكبات طامة وفتن عمياء.

والحق أن أكثر الحروب التي ثارت في العالم قديما وحديثا كانت وليدة غرور فردي أو طيش عنصري، وأن أغلب الإمبراطوريات الكبرى سواء منها ما تأسس في عصرنا هذا أو في العصور الأولى لم يتكون إلا على أنقاض الحق والخير وسائر المثل العليا.

أما الحروب التي اشتبك الإسلام فيها مع خصومه فهي ضرب آخر من القتال يخالف في بواعثه ونتائجه ما ألف الناس رؤيته في ساحات الوغى، وما ألف التاريخ تسطيره في صفحاته القانية»[1].

لقد تفجر الإسلام في قلوب صلدة انتعشت بتعاليمه، وأقبل العالم على حضارة تجعل الإيمان صنو الأمان، والإسلام قرين السلام، وتقطع مطامع النفس ووساوس الشيطان، وتهتف بقول الحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[2]. لقد طلع على الناس فجر جديد في تحديد العلاقات العامة وصيانتها من العبث والمظالم، وأصبح قتل إنسان ظلما، أو مصادرة ماله غصبا جريمة من أقبح الجرائم، وأحقها بسخط الله[3].

---

(١) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ١٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٣) الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ١١٦.

لقد غير الإسلام أهداف الحروب ووسائلها وسلوكها «التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوَتَر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض في الجاهلية إذ صارت هذه الحرب في الإسلام جهادًا في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهادًا في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنَّصَف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفًا حتى يؤخذ منه، وصارت جهادًا في تخليص المستضعفين ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[1].

وصارت جهادًا في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم بالخروج عنها بحال.. إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهادًا مقدسًا»[2] كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥.

(٢) الشيخ صفي الرحمن المبار كفوري: الرحيق المختوم، ص ٤٢٤.

الباب الثاني

بواعث الحروب
وغاياتها في الإسلام

١

الفصل الأول

حقائق عن الحرب النبوية

الفصل الأول

حقائق عن الحرب النبوية

ثمة مجموعة من الحقائق ظهرت لنا أثناء البحث ينبغي أن تستحضر في الذهن؛ لأنها ستظهر لنا الاختلاف بين دين الإسلام، وبين النظم والحضارات الأخرى فيما يتعلق بشأن الحرب، ذلك أن الإسلام ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحا للانتصار، وأن الشرائع والأنظمة الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبي ﷺ لو كانت دعوتها كدعوته، ومن الحقائق التي لا بد من تسجيلها ما يلي:

الحقيقة الأولى

أن حرب النبي ﷺ كانت أمرا ضروريا منه؛ ليقيم الحق ويخفض الباطل، وما كانت رسالته تدعو إلى استخذاء الخير أمام الشر، وما كانت دعوته لتسير في مسارها إلا إذا أزالت الحواجز التي تحاجز دونها، ليتم التبليغ والناس بعد ذلك يختارون الهداية أو يستمرون على ما هم عليه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[1].

الحقيقة الثانية

أن حرب النبي ﷺ كانت حربا فاضلة مثالية تعلم الإنسان أنه قد يكون محاربا وهو

(١) سورة الزمر، الآية: ٤١.

فاضل، وأن الإنسانية تحترم والسيوف مشتجرة، وكما علم النبي المؤمنين الصلاة وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»(١).

فكذلك علمهم الحرب الفاضلة أيضا، فحربه ﷺ قد أدت مقصدها، وهو جعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولا تزال المثل السامية التي صورتها الحرب المحمدية قائمة تهدي العالمين وترشدهم(٢).

الحقيقة الثالثة

فرض الإسلام الحرب على محمد ﷺ وعلى من يتبعونه ويتخذونه أسوة، جهادا وعبادة من أعظم العبادات التي يتقرب بها العباد إلى الله، لأن إظهار الحق عبادة رفيعة الدرجة، فليست عبادة الإسلام عكوفا في الصوامع من غير عمل نافع، بل كل عمل نافع فيه عبادة إذا نواها المؤمن(٣).

الحقيقة الرابعة

أن ظن القائلين بأن الإسلام دين قتال إنما يصدق لو صدق في بداية عهد الإسلام يوم دان بهذا الدين كثير من المشركين، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل في سبيله سلاح.

لكن الواقع أن الإسلام في بداية عهده كان هو المعتدى عليه، ولم يكن من قِبَله اعتداء على أحد، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبي ﷺ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤/ ٥٤١ (١٦٥٨).

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ القسم الثاني (العهد المدني) ص ٧١٤.

(٣) المرجع السابق.

ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[١].

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه.

ومن مقاصد حروب النبي ﷺ الدفاع، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع اتقاء للهجوم، بعد التيقن من نكث العهد والإصرار على القتال، وتستوي في ذلك حروبه مع قريش أو مع اليهود أو مع الروم؛ ففي غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة، وكان قد سرت إلى النبي ﷺ الأنباء أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزو على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره[٢].

«ولم يعمد المسلمون قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التي تصدهم عن الإقناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها؛ لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء.

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها، ولذلك حاربوا الفرس؛ لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب النبي ﷺ، أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه.. ولم يفاتح النبي ﷺ أحدا بالعداء في بلاد الدولتين، إنما كتب إلى الملوك يبلغهم دعوته بالحسنى، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم، إلا بعد تحريضهم القبائل في العراق والشام على غزو الحجاز، وإعداد العدة لقتال المسلمين، وقد علم المسلمون بإصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) الدكتور إسماعيل حلمي: محمد قائد الأمم، ص ٩٠.

بالحرب من أطراف الجزيرة، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية في بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها، أو التحصن دونها»[1].

الحقيقة الخامسة

أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع، أو يحارب أناسا يستجيبون للحوار وينأون عن السيف.

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف سلطة تقف في طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء، والتعرف على تعاليمه، لأن السلطة تزال بالسلطة ولا غنى في إخضاعها بالقوة.

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء، وفي الأعقاب بعد الأسلاف، وكل حجتهم التي يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه.

وقد قصد النبي ﷺ بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها؛ لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون وصول الدعوة المحمدية إلى أسماع الرعايا، وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة فيمتنع القتال.

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث، كما دل عليها التاريخ القديم، أن

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٦٧.

السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب، فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكر بالقوة، ولا بد من التمييز بين العملين؛ لأنهما جد مختلفين.

الحقيقة السادسة

أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها، فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ما عسى أن تفعل إن لم تحتكم إلى سلاح؟

وهذا ما قضى به القرآن حيث جاء فيه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[1].

والدولة التي يحمل أناس من أهلها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بماذا تفض الخلافات بينهم إن لم تفض بقوة السلطان، وهذا ما قضى به القرآن أيضا كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح، ثم يأتي الصلح والتوفيق أو يأتي التفاهم والرضا والاختيار.

الحقيقة السابعة

أن الشرائع الكتابية بينها فروق موضوعية لا بد من ملاحظتها عند البحث في هذا الموضوع:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩.

فاليهودية: كانت أشبه بالعصبة المحصورة في أبناء إسرائيل منها بالدعوة لجميع الناس، فكان أبناؤها يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم فضلا عن امتشاق الحسام لتعميم الدين اليهودي، وإدخال الأمم الأجنبية فيه، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام في هذا الاعتبار.

أما النصرانية: فقد عنيت أولا بالآداب والأخلاق، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة، وقد ظهرت ثانية في بلاد المعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان، فهي قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين.

وقد ظهرت ثالثة في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول، وليس للوطن الذي ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة في ميدان القتال.

أما الإسلام: فقد ظهر في وطن لا سيطرة فيه للأجنبي عليه، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة، وتقويم المعاملات، وتقرير الأمن والنظام، وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب، ثم فيما وراء الحدود العربية.

أضف إلى ذلك النزعة العالمية لهذا الدين، جعلت شعورا حيويا مخلصا يتسلل إلى قلوب أتباعه، فما إن يهدي الله أحدا إلى هذا الدين إلا جاشت في نفسه هذه الروح فأحب أن يتيح هذا الخير للآخرين ولا ينطوي على نفسه في عزلة مقيتة تحبس ذلك الخير أن ينتشر بين الناس.

لقد كانت بعض الشرائع السابقة على الإسلام تدعو إلى العزلة، وتجعل الترهب في الصوامع القصية، والانقطاع في الأديرة حتى الموت، وهجر الحياة ومطالبها، والإقبال على النفس بالمجاهدة، كان ذلك كله آية اليقين والصفاء التام.

وبهذا النهج كان الفرد المؤمن إذا تطلع إلى مزيد من التقوى تقربه إلى الله، ركن إلى الذكر والصلوات بما يعينه على تحقيق هذه الغاية.

أما الإسلام: فقد رسم للعباد المجتهدين طريقا أخرى غير هذه الرهبانية الخاشعة المتبتلة، طريقا يجشمهم السير في الرمضاء وتحت الصخور، إنه لم يقل لمن يحبون الله اعتزلوا الحياة وتأملوا، بل قال لهم: انغمروا في الحياة وعالجوا باطلها بالحق، وقاوموا طواغيتها بالقوة، وابذلوا في تقويمهم المال والدم.

وبهذا التعريف للتقوى أصبح المؤمنون فرسانا لا رهبانا، ورفض الإسلام الترهب الذي يدع الإثم يسير من غير نكير، وأصبح الإقبال على الحياة ومعالجة كروبها وهمومها لإثبات معروف ومحو منكر، جهادا مبرور الغدو والرواح.

ولا شك أن أهل الشر وحضنة الفساد كرهوا الإسلام لهذه النزعة البادية في تعاليمه؛ فهم لا يضارون من رجال يتقربون إلى الله بالفرار من شرور الدنيا، وإنما يضارون من رجال يتقربون إلى الله بالهجوم على هذه الدنيا لتقييد الشياطين المهتاجة في جنباتها[1].

فاختلاف هذه الطبائع حصر اليهودية والنصرانية في نطاق أضيق مما يطمح إليه الإسلام باعتباره دعوة عالمية لا تقتصر على قطر دون قطر.

الحقيقة الثامنة

أن الإسلام شرع الجهاد، وأن النبي ﷺ قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»**[2].

---

(١) الشيخ محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، ص ٧٣، ٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة=

وجاء في القرآن الكريم: ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾[1].

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب، ولم يفتحوها، ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح.

إلا أن هذه الفتوح قد تأخرت في الزمن، ولم يتم شيء منها قبل استقرار الدولة للإسلام، فلا يمكن أن يقال: إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور، وقد ظهر الإسلام قبلها، وتمكن من أرضه، واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت في سبيله.

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة، إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها، فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه، لوجب في ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في أرض فارس والروم، ووجب أن يكف الشر الذي يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسري منهما إلى حماه.

الحقيقة التاسعة

أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع.

فقد استقرت مبادئ السلام بين تلك الشعوب ولم يكن لهم قرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم، وكانت جميعا مباحة لكل غاصب من ذوي الأمر والجاه.

= فخلوا سبيلهم) ١/ ٥٠، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/ ١٥٥ (٣٤).

(١) سورة النساء، الآية: ٨٤.

فإن قيل: إن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين.

فلا ينفي هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين. إن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار.

الحقيقة العاشرة

أن الحروب النبوية لم تكن قط للإكراه على العقيدة؛ لأنه من أهم المبادئ التي قررها الإسلام أنه لا يُكرَه أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام؛ «لأن هداية القلوب لتقبل الحق والإذعان له أمر بيد الله وحده»[1].

إن شريعة الإسلام «أول شريعة أباحت حرية الاعتقاد وعملت على صيانة هذه الحرية وحمايتها إلى آخر الحدود، فلكل إنسان طبقا للشريعة الإسلامية أن يعتنق من العقائد ما شاء، وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته أو اعتناق غيرها»[2].

لقد احترمت تعاليم النبي ﷺ في مجال العلاقات الإنسانية مع أهل الشرائع الأخرى حرية العقيدة احتراما كاملا، كما نفى القرآن أن يكون الإكراه طريقا لاعتناق دين، ومنع المؤمنين أن يكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام، فقال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[3].

وورد الخطاب في القرآن الكريم موجها إلى النبي ﷺ قائلا له: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[4].

---

(١) الدكتور محمد السيد الجليند: دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢) الأستاذ عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي ١/ ٣١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٩٩.

ويؤكد القرآن الكريم أن الهداية القلبية ليست من وظيفة الرسل، ولكن الله يهدي قلب من يشاء متى قدم بين يدي الله أسباب الهداية، وقد رفع القرآن الكريم عن النبي ﷺ الشعور بالحرج والضيق من امتناع البعض عن الاستجابة والهداية، فخاطب الله نبيه في آيات عديدة قائلا: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]. ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[2]. ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[3].

فليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، لأن كل محاولة لفرض ديانة عالمية هي محاولة غير موفقة، بل هي مناهضة لسنة الوجود؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾[4].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة في القرآن: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[5].

هكذا يجعل الإسلام أساس الاعتقاد أن يكون بالاختيار الحر الخالي من كل إكراه، وأن يكون أساس الاختيار سليما؛ فلا يكون بإكراه بأي وسيلة كانت.

وعلى ذلك يذهب بعض العلماء إلى أن حرية الاعتقاد تتكون من ثلاثة عناصر[6]:

---

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١، ٢٢. (٢) سورة النور، الآية: ٥٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٨.

(٥) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٧٨.

(٦) الشيخ محمد أبو زهرة: المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام (ضمن المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية) ص ٤٤٠.

أولها: تفكير حر غير مأسور بتعصب لجنسية أو تقليد أو شهوة، فكثيرا ما تتحكم الأهواء والعنصرية باسم الدين.

ثانيها: منع الإكراه على عقيدة معينة بتهديد أو تعذيب.

ثالثها: أن يكون حرا بمقتضى دينه لا اضطهاد في الظهور بدينه وإقامة شعائره.

بل إن الشريعة الإسلامية لم تكتف بإرساء مبدأ حرية العقيدة فحسب، بل عملت على حمايتها، ومن بين الطرق التي اتخذتها لحماية هذه الحرية طريقان[1]:

الأول منهما: إلزام الناس أن يحترموا حق الغير في اعتقاد ما يشاء، وفي تركه يعمل طبقا لعقيدته، فليس لأحد أن يكره أحدا على اعتناق عقيدة أو ترك أخرى، ومن كان يعارض آخر في اعتقاده فعليه أن يقنعه بالحسنى، ويبين له وجه الخطأ فيما يعتقد، فإن قبل أن يغير عقيدته عن اقتناع فليس عليهما حرج، وإن لم يقبل فلا يجوز إكراهه ولا الضغط عليه، ولا التأثير عليه بما يحمله على تغيير عقيدته وهو غير راض، ويكفي صاحب العقيدة المضادة أنه أدى واجبه فبين الخطأ وبين الحق ولم يقصر في إرشاده وهدايته إلى الطريق المستقيم.

وثانيهما: إلزام صاحب العقيدة نفسه أن يعمل على حماية عقيدته وألا يقف موقفا سلبيا، فإذا عجز عن حماية عقيدته تحتم عليه أن يهاجر من مكانه إلى مكان آخر تحترم فيه عقيدته، فإذا لم يهاجر وهو قادر على الهجرة فقد ظلم نفسه قبل أن يظلمه غيره وارتكب إثما عظيما، أما إذا عجز عن الهجرة فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ففي القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا

(١) الأستاذ عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي ١/ ٣١، ٣٢.

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[١].

فالقتال ربما كان لحماية العقيدة، لكنه ليس لفرض هذه العقيدة.

والواقعة التالية من الوقائع التي تدل على أن قضية الحرب ليست لكفر أو إسلام، وإنما لقضية العداوة والموادعة؛ إذ لما وقع العباس عم رسول الله ﷺ أسيرا في بدر وجاء وقت فداء الأسرى، قال العباس: يا رسول الله، إني كنت مسلما. فقال رسول الله ﷺ: **«الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك»**[٢].

وفي رواية أخرى: فقال له رسول الله ﷺ: **«أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك»**[٣].

فلو كانت القضية قضية فرض عقيدة، لقبل النبي مقالته ورفع عنه عبء الفداء، لكن هذا الموقف يوضح أن النبي ﷺ يتعامل مع الأمر أنه قضية موادعة أو عداوة.

إن الشريعة الإسلامية قد بلغت غاية السمو حينما قررت حرية العقيدة للناس كافة، وحين تكفلت بحماية هذه الحرية لغير المسلمين، وقد جسدت المواقف العملية للنبي ﷺ هذا المبدأ في دولة الإسلام في السلم فضلا عن الحرب، فقد روي أن رجلا يقال له: الحصين. كان له ولدان على غير دين الإسلام وهو مسلم، فسأل النبي ﷺ عما إذا كان يجوز له إكراههما على أن يتركا دينهما ويعتنقا دين الإسلام، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧-٩٩.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ١٤٣.

(٤) تفسير الطبري ٤/ ٥٤٨، وتهذيب الكمال للمزي ٥/ ١٠٢.

وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم بعد رسول الله ﷺ على هذا المبدأ الرشيد في معاملاتهم مع غير المسلمين، ووعوا هذا المسلك جيدا؛ فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءته امرأة مشركة في حاجة لها، فدعاها إلى الإسلام فرفضت، ثم قضى لها حاجتها، ولكنه خشي أن يكون مسلكه هذا قد انطوى على إكراه، فاستغفر الله مما فعل ثم قال: اللهم إني أرشدت ولم أُكرِه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1].

«إن الإسلام يجعل الاعتقاد الصحيح ثمرة الإرادة الحرة، وكما أن المكره على عمل ما لا يتحمل نتائجه، فكذلك المكرهون بالعنف على الدخول في دين ما لا يعتبرون متدينين به موضوعا وإن خضعوا له شكلا»[2].

هكذا قرر الإسلام هذا المبدأ وحث أتباعه على التعامل مع غير المسلمين في السلم والحرب وفق هذا المبدأ القويم، وكذلك جسدته مواقف النبي ﷺ وصحابته الكرام؛ لأنه لا يعقل الإكراه في شئون العقيدة «فالعقيدة أمر نفسي لا يعرفه ولا يسيطر عليه غير صاحبه، ولا يستطيع أي ضغط خارجي أن يمحوه أو يستبدل به غيره، وكل ما يستطيع الضغط أن يفعله هو أن يرغم الشخص على التلفظ باللسان، ومجرد التلفظ باللسان لا يقوى على محو عقيدة قديمة، ولا على إنشاء دين جديد»[3].

ولأن الله تعالى قال في المؤمنين: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[4].

ويلزم في كونهم خير أمة أن انتصاراتهم خير الانتصارات، وأن حروبهم خير

---

(١) الدر المنثور ٣/ ١٩٩.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ٨١.

(٣) الدكتور علي عبد الواحد وافي: بحوث في الإسلام والاجتماع، ص٦٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

الحروب، فما طبيعة تلك الحروب؟ فإن معرفة طبيعتها من الأهمية بمكان؛ إذ مقومات النصر في هذه الطبيعة نفسها: إنها:

أ- حرب إيمانية:

حمل المسلمون أمانتها لينشروا دين الله في الأرض، ولم تثرها دواعي الطمع، ولم تبلغ ما بلغت من الروعة والقوة بالجشع وهي حروب فذة في تاريخ البشر، وقد عين الله هدفها الإيماني وهدف الحرب الكافرة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

ولهذا لا يكون للكفار غرض سوى زحزحة المؤمنين عن دينهم: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾[2].

وتخصيص الحرب الإسلامية بهذا الهدف دلالة على أن فكر الإنسان وقلبه أفضل ما فيه، ولذلك كان القضاء على العقيدة أو تحويل الناس عنها أعظم جرما من إراقة الدم وإزهاق النفس: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾.

فأمر الله بالقتال حتى يسلم الدين وتوأد الفتنة: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[3].

ومن البين أن القتال لدفع الفتنة ليس مادي الغاية، وإنما هو دفاع عن الإنسان المفكر الذي تختنق الطواغيت قلبه، وتكرهه على معتقداتها وفلسفاتها بالبطش والنكال.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

إن أعظم ما في حروب الإسلام أنها قامت لحماية قلب الإنسان وعقله، وهما أساس سموه وازدهاره الحضاري.

ولنا على ذلك أدلة كثيرة منها؛ منع شن الحرب لغاية مادية، ومنع الانتهازيين، أرباب المكاسب الشخصية، من الاشتراك فيها؛ إذ كان مفهوم الغزو عند الجاهليين الحيازة والغنم، فألغى الإسلام هذا المفهوم البائد وأحل مفهوما جديدا، هو القتال لإعلاء كلمة الله، وفي القرآن الكريم تصوير للنفسية العربية وهي تعاني النقلة من القتال المادي إلى القتال من أجل الله، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وكشف لهم عن حقيقة الحرب الجديدة لا مغنم فيها إلا الأجر ولا غاية إلا نشر الدين ليصيروا حملة رسالة بعد أن كانوا مطية ضلالة قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾[2].

ومن الأدلة على ذلك أنه قَبِل علانية الذين يعلنون إسلامهم على تخوف من الأسر أو القتل، ونهى عن قتلهم أو أسرهم: فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٥.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٤.

ومنها ما نظم من أمر الغنيمة و الفيء النظام المعروف في الإسلام، بعد أن كانت الغنيمة في الجاهلية للغانم وحده أو بشركة سيد القبيلة.

ب- حرب إنسانية:

ولذلك يمكننا أن نصف الحروب الإسلامية بحق أنها حرب إنسانية إذ جعل الله رسالة المؤمن أن يكافح الأذى والسوء وأن يقضي على الطغيان في الأرض وقد قضت سنة الله أن الشر لا يدفعه إلا الخير، وأن الظلم لا يرفعه إلا الحق.

وهذه الصفة ظاهرة في حروب الإسلام، فلم تكن إلا دفاعا عن المضطهدين عربا كانوا أو عجما، وليس في حروب المسلمين غير هذا المعنى مهما جهد المؤرخون في وضع النظريات لمنشأ الحروب وغاياتها، إنها حرب إنسانية بأوسع ما في هذه العبارة من معنى سواء كانت دفاعا عن النفس أو عن الآخرين.

فإذا كانت دفاعا عن النفس فللرد على ظلم غاشم ومن صفات المؤمنين الأصلية في كتاب الله الأنفة من قبول البغي ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

وقد جعلت لها صفتها الإنسانية آثارا بعيدة المدى باقية على الزمان إذ أعانت على انتشار الإسلام، فأقبل الناس عليه إقبال الغرقى على سفينة النجاة، ولم يلق المقاومة والكيد إلا في الموتورين الحاقدين على الدين والإنسانية كلها.

أما الحروب المنبعثة من الجشع أو شهوة القهر والسلطان فإن آثارها تزول بزوال أصحابها.

وطبيعتها الإنسانية لا تمنع أن تكون حربا هجومية، إنها هجومية في أقوى مضمون لهذه الكلمة، لا نداجي ولا نجامل ولا نخجل من هذا المحتوى ولا يحملنا حاضر

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٩.

المسلمين التعيس على إلقاء ظلال كاذبة زائفة على حروبنا، فهي هجوم على الكفر والإلحاد والطغيان ودفاع عن الروح والعقيدة والإنسان، إن هذه الصفة باقية لها ما بقي للإلحاد تطاول في وجه الإيمان.

وهذه الصفة الإيمانية الإنسانية تفرض أن يكون لها شعار واحد ثابت على الدهور، هو «لا اله إلا الله، محمد رسول الله» وإنها لتفقد جوهرها وتفرغ من مضمونها إن اتخذت ستارا غيره ولا تسمى حربا إسلامية أيٌّ حرب اتخذت شعارا يعارض الحقيقة التي ينبثق منها هذا الشعار، وإن كان وقود هذه الحرب جنودا من أبناء المسلمين.

ج- حرب عادلة:

وتتجلى عدالتها في مواقف المسلمين السمحاء، باعتراف من أعدائهم، ومردها إلى التزامهم بتعاليم الله التي شرعها لهم في معاملة المغلوبين والمعتدين.

ويكفي أن نشير إلى العدالة المطلوبة في الحال التي تدعو إلى الرد على العدوان؛ إذ جعل الله للرد مقدارًا هو جزاء المثل، وقيده بالتقوى. قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾[1].

فأوجب الله على المسلم أن يحكم التقوى في سلوكه في المواقف كلها، بل وفي اللحظة التي لا يخشى في البطش حسيبا من الناس، ولكنه يخشى الله- عز وجل- فيمسك فإذا هو المحارب التقي العادل.

ويعطي الرد العادل أطيب النتائج للفريقين معا، فهو يكف عن المسلمين بأس الذين كفروا، ويفتح لهؤلاء باب الدخول في الإسلام وقد وجدوا جنده مثلا في العدل والرفق.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

وهكذا يدخل المسلمون الحرب بقانون ويديرونها بقانون ويمسكون عنها بقانون، وفي كل المواقف تبقى إنسانيتهم التي أعطاهموها الدين ظاهرة فليس غريبا بعد هذا أن يقول كاتب غربي: لم يعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب[١].

(١) غوستاف لبون: حضارة العرب، ص ٤١٥.

٢

الفصل الثاني

بناء الرسول ﷺ لجيش المسلمين

الفصل الثاني

بناء الرسول ﷺ لجيش المسلمين

من الموضوعات المهمة التي تلقي الضوء على أخلاقيات الحروب في سيرة النبي ﷺ موضوع كيفية بناء الرسول الكريم ﷺ للجيش المسلم، ومعرفة الأسس التي ربى عليها هذا الجيش ليصبح جيش رحمة للعالمين، فالتعرف على نفسية المحاربين وأخلاقياتهم من صميم الحديث في هذا الموضوع.

وتتلخص سيرة النبي ﷺ وحياته المباركة في التوحيد والجهاد، فلقد وحد النبي ﷺ منذ مبعثه في مكة إلى هجرته في المدينة من أجل الجهاد الأفكار والصفوف والأهداف بالتوحيد، وجمع الشمل بالتوحيد، وبنى الإنسان بالتوحيد، وأزال نعرات الجاهلية بالتوحيد.

لقد كانت حياته المباركة ﷺ في مكة المكرمة عبارة عن توحيد من أجل الجهاد، وجاهد منذ هجرته إلى المدينة من أجل التوحيد، فكان جهاده ﷺ لتبليغ الدعوة إلى الناس كافة، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض.

وكانت همته ﷺ بتأييد من الله وتوفيقه منصرفة بكل طاقاتها المادية والمعنوية إلى غاية سامية واضحة المعالم وهي: بناء الإنسان المسلم؛ ليكون قدوة للآخرين في السلم والحرب، أخلاقا وسلوكا، معاملة ومنهاجا، وأسلوبا للحياة الدنيا والآخرة معا.

وكان سبيله إلى بناء الإنسان المسلم هو التوحيد من أجل الجهاد، والجهاد من أجل التوحيد؛ فبالتوحيد أشاع الانسجام الفكري والعاطفي لأول مرة في التاريخ بين المسلمين، وهذا الانسجام جعل التعاون الوثيق بينهم ممكنا، إذ لا تعاون بدون انسجام فكري يذيب الاختلافات، ويقضي على النزعات، ويعصم من الأهواء.

كما أن هذا الانسجام جعل الجهاد ممكنا، يقود إلى النصر ويؤدي إلى الظفر؛ فالتعاون الوثيق والجهاد الذي تستثيره العقيدة الراسخة، جعل من المسلمين قوة لا تقهر أبدا.

وأول ما فعله النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة بناء المسجد أولا، وفي المسجد تبنى الرجال ويعد الأبطال، فكان النبي ﷺ يعد فيه الخطط العسكرية ويعقد في رحابه مجالس الجهاد، ويصدر الأوامر والقرارات والوصايا الخاصة بهذا الشأن.

وقد استطاع النبي ﷺ بناء المجاهد المسلم على ثلاث دعائم؛ العقيدة الراسخة، والقدوة الحسنة، واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.

أما العقيدة الإسلامية: فهي عقيدة بناءة صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنها تهتم بالمادة اهتمامها بالروح، وتعنى بالحياة الدنيا عنايتها بالدار الآخرة، وتغرس الضبط والنظام في القلوب والنفوس معا، وتلتزم بالخلق الكريم والمعاملة الحسنة والمثل العليا، وتأمر بالشجاعة والثبات، وتنهى عن الجبن والفرار[1].

وأما القدوة الحسنة: فقد كان خلق النبي ﷺ القرآن، وكأن تعاليم الإسلام تمشي على الأرض بشرا سويا، لا يأمر بشيء إلا طبقه على نفسه أقوى ما يكون التطبيق، ولا ينهى عن شيء إلا ابتعد عنه أشد البعد، وكان مثلًا أعلى للشجاعة والإقدام، وكان

(١) الدكتور عبد الحميد مذكور: دراسات في العقيدة الإسلامية، ص ٥٢.

القمة العالية في عمله ومعاملاته[1].

أما اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب: فقد كان مثالا رائعا في الالتزام بالعمل الصالح والخدمة المثمرة والكفاية العالية في اختيار قواده وحفظة وصاياه وتوجيهاته.

لقد استطاع النبي ﷺ بالدعامة الأولى - **العقيدة الراسخة** - أن يجعل من ضمير الفرد رقيبا عتيدا عليه، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، وأن يجعل من المجتمع الإسلامي إخوة متحابين في الله.

واستطاع بالدعامة الثانية - **القدوة الحسنة** - أن يجعل المسلم مؤمنا بأن العقيدة الإسلامية قابلة للتطبيق عمليا.

واستطاع بالدعامة الثالثة - **اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب** - أن يجعل الفرد المسلم يعتمد على قدرته وإيمانه، ويجعل المجتمع المسلم يثق بعدل القيادة وترفعها عن التحيز والأهواء.

هكذا أعد الرسول ﷺ الجندي المسلم، وكل فرد مسلم جندي مجاهد في جيش المسلمين مؤمنا بعقيدته الراسخة، واثقا بقيادته الأمينة، لا يخشى على مستقبله الظلم والانحراف، مطمئنا على حاضره غاية الاطمئنان.

وهؤلاء الأفراد يؤلفون المجتمع الإسلامي، وهو جيش المسلمين المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله؛ يشيع فيه التوافق الفكري والنفسي بالعقيدة الراسخة، يثق بقادته، ويتولى أمره النخبة المختارة من أبنائه من أصحاب الكفايات العالية والإيمان العميق.

---

(١) الدكتور عبد الحميد مدكور: دراسات أخلاقية، ص ١٢٦.

لقد كان هذا الجيش يصطحب معه المبادئ الراقية التي تعلمها من القرآن والسنة، فكان يجاهد وهو معه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾(1).

وكان يحمل: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾(2).

وكان يعلم أنه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾(3).

كان هذا الجيش على علم بأن: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾(4).

كان على يقين مِن أن مَن قتل في سبيل الله ليسوا أمواتا ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾(5).

ويرى المطالع لآيات القرآن الكريم وأحاديث السنة المطهرة، أن المجاهد في سبيل الله، هو ذلك الفارس النبيل الأخلاقي المدرب على أخلاق الفروسية العالية الراقية؛ حتى يستطيع أن يمتثل الأوامر والنواهي الربانية التي تأمره بضبط النفس قبل

(1) سورة البقرة، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.
(2) سورة البقرة، الآيتان: ١٩٢، ١٩٣.
(3) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(4) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.
(5) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

المعركة وأثناء المعركة وبعد المعركة، فقبل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع، وألا يخرج مقاتلا من أجل أي مصلحة شخصية، سواء كانت تلك المصلحة من أجل نفسه أو من أجل الطائفة التي ينتمي إليها، أو من أجل أي عرض دنيوي آخر، وينبغي أن يتقيد بالشروط التي أحل الله فيها الجهاد، وأن يجعل ذلك لوجه الله تعالى، ومعنى هذا أنه سوف يلتزم بأوامر الله، ويستعد لإنهاء الحرب فورًا، إذا ما فقدت الحرب شرطًا من شروط حلها أو سببًا من أسباب استمرارها، وسواء أكان ذلك الفارس منتصرًا، أو أصابه الأذى من عدوه، فإن الله يأمره بضبط النفس، وعدم تركها للانتقام، والتأكيد على الالتزام بالمعاني العليا، وكذلك الحال بعد القتال، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخصٍ مؤذٍ لمجتمعه أو لجماعته أو للآخرين، وبالرغم من أن لفظة الجهاد إذا أطلقت انصرف الذهن إلى معنى القتال في سبيل الله. إلا أن الرسول ﷺ قد أسماه بالجهاد الأصغر، وسمى الجهاد المستمر بعد القتال بـ«الجهاد الأكبر»؛ لأن القتال يستمر ساعات أو أيامًا، وما بعد القتال يستغرق عمر الإنسان كله.

لقد أسس بنيان هذا الجيش على تقوى من الله ورضوان؛ جيش يعرف لم يقاتل وعلام يقاتل؟ جيش تحلى بمكارم الأخلاق والسير، وهذه الأخلاق يشهد بها أعداء الدعوة أنفسهم، وهو ما عبر عنه أحد جنود هرقل عندما تعجب من هزيمة جيشه أمامهم فسأل عن هؤلاء الرجال الذين غلبوا الروم القوة التي لا تقهر في ذلك الوقت.

فقد روي أن منهزمة الروم قدمت على هرقل وهو بأنطاكية، فدعا رجالا من عظمائهم فقال: ويحكم! أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلوهم، أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى. يعني العرب. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن. قال: ويلكم! فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ فسكتوا، فقال شيخ منهم: أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون. قال: أخبرني. قال: إذا حملنا

عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا صدقوا، ونحمل عليهم فنكذب ويحملون علينا فلا نصبر. قال: ويلكم ! فما بالكم كما تصفون وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا؟ قال له: من أين هو؟ قال: لأن القوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحدا ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغضب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. قال: صدقتني، والله لأخرجن من هذه القرية، فما لي في صحبتكم خير وأنتم هكذا[1].

هكذا علم النبي ﷺ تلامذته، علمهم أن الجهاد عبادة يخرج فيها المسلم طالب ثواب لا طالب دنيا، ومحرر عبيد لا مستعبد أحرار، ومصلح أوضاع لا مثير فوضى، فإذا لم تتحقق هذه المعاني في القتال، فالإسلام منه بريء[2].

إن النظام يجب أن يغلب الفوضى، والعلم يجب أن يمحق الجهل، والأخلاق ترجح حتما على الضعة والتحلل، وقد كانت فضائل القوة كلها إلى جانب الصحابة الفاتحين[3].

وننقل هنا حوارا جليلا دار بين نفر من فرسان المسلمين وبين قواد كسرى وحاشيته؛ ليرى أولو الألباب مبلغ فقه الصحابة الفاتحين لدينهم، ويعرف إلى أي مدى كان الجيش الذي بناه النبي ﷺ على التحلي بالضمائر النقية والأسلحة العفيفة؟ وكيف كان يلقى خصومه؟

(١) عيون الأخبار ١/ ١٢٦، ١٢٧.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ١٥٥.

(٣) السابق: ص ١١٦.

إذ لما نزل رستم قائد الفرس بالقادسية بعث إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما يسأله عنه. فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجاركم من الدخول إلى بلادنا. فقال له المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولا قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز. فقال له رستم: فما هو؟ فقال: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله. فقال: ما أحسن هذا ! وأي شيء أيضا؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضا، وأي شيء أيضا؟ قال: والناس بنو آدم، فهم إخوة لأب وأم. قال: وحسن أيضا. ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم، أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: وحسن أيضا. قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام، فأنفوا من ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه. ثم بعث إليه سعد رسولا آخر بطلبه، وهو ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها،

ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضيَ إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيوما أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ! أما ترى إلى ثيابه؟! فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب.

ثم بعثوا يطلبون في اليوم الثاني رجلا، فبعث إليهم حذيفة بن محصن، فتكلم نحو ما قال ربعي. وفي اليوم الثالث أقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول. فقالت السفلة: صدق والله العربي. وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة، فمازحه رستم ليمحو ما

صنع، وقال له: يا عربي، إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق، ما هذه المغازل التي معك؟ قال: ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة، ثم راماهم وقال: ما بال سيفك رثا؟ قال: رث الكسوة حديد المضربة، ثم عاطاه سيفه، ثم قال له رستم: تكلم أم أتكلم؟ فقال المغيرة: أنت الذي بعثت إلينا فتكلم. فأقام الترجمان بينهما وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوله وقال: لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الأعداء أشرافا في الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين أو الشهر والشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضي رد إلينا عزنا وجمعنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم، ثم إنه لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا أمرا منكم؛ كنتم أهل تقشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئا ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالسيئ من التمر والشعير، ثم نردكم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم.

فتكلم المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئا فإنما هو الذي يصنعه هو له، وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا فنحن نعرفه ولسنا ننكره فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه، والدنيا دول ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا إليها، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله

رحمة يرفه بها عنا، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا. ثم ذكر مثل الكلام الأول.

فخلا رستم بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ ألم يأتكم الأولان فجسراكم واستخرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا وسلكوا طريقا واحدا، ولزموا أمرا واحدا؟ هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين! والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء[1].

هكذا كانت أخلاق الفاتحين، أخلاق جيش النبي ﷺ، كانت تعبر عن وجهة نظر الإسلام في الوثنية السياسية التي مدت جذورها قرونا في هذه البلاد المستعبدة.

وهكذا تتحول عقيدة التوحيد إلى سياج يحفظ الحقوق العامة للإنسان، ويوطد أركان العدالة في المجتمع. فممثلو هذه المفاوضات لا يناقشون الفرس في عبادة النيران، بل يخبرونهم أنهم جاءوا ليخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله.

إنهم يتركون الناحية الشخصية، ويقررون الحرية الدينية، لكنهم يحطمون العبودية السياسية، ثم ينقلون الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، أي إنهم يمهدون للناس باسم الإسلام حياة رخية تتوافر فيها أسباب الأمان والراحة والترفيه[2].

وسواء أكان توافق المفاوضين في آرائهم عفوا أو قصدا، فهو بيان حاسم عن طبيعة المبادئ التي يحملها الفاتحون، ولذلك قال أحد المستشرقين: «وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ٣/ ٥١٧-٥٢٤، والبداية والنهاية ٩/ ٦٣١.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ١١٠.

بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين»[1].

هكذا كانت أخلاقيات المحاربين، ويمكن رصد أبرز خصائص الجيش الإسلامي فيما يلي:

١- القتال من أجل هدف علوي:

فإذا كانت الأمم ترسل بجيوشها إلى الجبهات حلا لأزماتها؛ كالتزايد في السكان أو التضخم في الإنتاج، أو لتأمين مواد أولية وأسواق لمصانعها أو للسيطرة على بقاع من الأرض، وبسط النفوذ على شعوب تسخرهم فيما يلائم مصالحها وحاجاتها فإن المسلمين لم يقاتلوا لواحدة من هذه أو أشباهها، ولا ينبغي لهم أن يقاتلوا لمثل هذه الأغراض، بل نحق الحق إذا قلنا: إن الله بعثهم يقاتلون هذه الأغراض، ويقدمون للإنسانية مثلا جديدا من أمثال التحرك الإنساني، تحركا يثير الخير، ويئد الشر.

إن الجندي المسلم يبرز للنزال وهو خالي الذهن من أي غرض ذاتي أو حاجة دنيوية، ليس له من هم إلا أن يعلم الله مكانه ويرى بلاءه، ويفوز بمرضاته منتصرا أو شهيدا. لقد حل ارتباطات نفسه من الأرض ووصلها بربه الذي به آمن وعليه اتكل، وأحبه حبا يسرع به إلى رضاه ولو اصطلحت عليه الأخطار وترصد له الردى. ولا نبالغ إذا ادعينا أن المؤمن المحارب يكاد يشعر أن وسط الأخطار والمحن والزلازل والتضحيات وسطه الحقيقي فإنه ينفذ منه إلى الجنة وما زلنا نذكر كيف ألقى عمير بن الحمام، أخو بني سلمة تمرات كانت بيده يأكلهن قائلا: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم

(١) غوستاف لبون: حضارة العرب، ص ١٢٧، ١٢٨.

حتى قتل[1].

كان عمير رضي الله عنه يعالج بقتاله باب الجنة حتى فتح له.

لقد قضى الجندي المسلم على شبح الخوف من الموت، فلم يبق له حساب في سير المعركة، يقينا منه أن الاستشهاد فيها خير من ثمرات البقاء التي يقاتل لها الكفرة، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[2].

٢- القدرة على احتمال الزلزلة في القتال:

ومن خصائص هذا الجيش أن أفراده المبشرين بالنصر لا يجنون ثمرته حتى يستفرغوا جهدهم في القتال، ويثبتوا ثباتا يقطع عزم الأعداء، لأن هذه القدرة من الاحتمال هي البرهان العملي على ما وقر في القلب من حل التضحية قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾[3].

ثم يخرجون من هذه التجارب أصلب من الصخور الراسية لا تجتاحهم عاصفة من رهبة ولا سيل من غزو، وقد وضع الله المسلمين الأولين في ميادين الاختبار ورماهم بالعدو الكثير العنيد الحقود فظفروا بمرضاة الله وكانوا أحق بها وأهلها وذكر الله ما لقوا من عدوهم في غزوة الأحزاب فقال: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ثبوت الجنة للشهيد ٣/ ١٥٠٩ (١٩٠١).

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١١.

٣- المصابرة والمرابطة والثبات:

ومن ثم صدرت الأوامر من الله إلى الجيش الإسلامي بالمصابرة والمرابطة والثبات، فإنها أعمدة النصر المنتظر إن رفعت على تقوى الله والتزام حدوده فقال عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[1].

والسر في ذلك أن الصبر من الحرب كالروح من الجسد، وأن الفريق الأجلد والأصبر هو الفائز بالنتائج الرابحة في المعركة ولذلك أمرنا الله أن نصابر الكافرين في القتال حتى نغلبهم في الصبر، ولو أنعمنا النظر في كثير من حروب الإسلام المهمة لوجدنا أن الثبات العظيم الذي لبسته فئة مختارة من المجاهدين كان له الأثر البليغ في تلك المعارك وفي مستقبل المسلمين.

ففي معركة أحد جهد المشركون للوصول إلى نبينا محمد ﷺ وألحقوا به الأذى حتى ظنوا أنه قد قتل، ولكن نفرا من الصحابة استماتوا في حياطته والدفاع عنه، فجالدوا جلادا عنيفا، وكان منهم أبو دُجانة، ترس دون رسول الله ﷺ بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل، ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان يرشقهم بالنبل رشقا دون رسول الله ﷺ والرسول يناوله السهام وهو يقول: «ارمِ، فداك أبي وأمي»[2].

ويوم حنين ولى المسلمون عن رسول الله ﷺ حتى خيل للمرتابين هزيمتهم، وما إن أمر رسول الله ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن ينادي: «يا معشر الأنصار، يا معشر

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه ٤/ ٢٦٥.

أصحاب الشجرة». حتى تيقظت في النفوس الذكريات، وتأججت العواطف الخالدة فأجابوا: لبيك لبيك. وأسرعوا إليه، وما إن تجمع منهم مائة حتى حمي الوطيس، كما قال رسول الله ﷺ، وثبتوا للعدو، وأخذوا في زحزحته وتقطيعه، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مُكتَّفين عند رسول الله ﷺ فحقق الله نصره بسيوف هذه المائة من الصابرين وبقلوبهم المؤمنة.

٤- القوة المعنوية العظمى.

وقد جعل الله الثبات والصبر في متناول المسلمين، لما نفحهم به من روح معنوية غالبة على إمكانيات العدو النفسية كلها، إذ أمرهم ألا يسمحوا للوهن أن يجد إلى نفوسهم مدخلا، وبين لهم أن المؤمن الذي يريد أن يسلم له الإيمان نقيا من الشوائب بريئا من المفسدات، هو الذي يضل الخوف عن قلبه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[١].

ذلك أن الوهن النفسي أول الهزيمة ولا يسببه إلا استعظام الموت.

وهكذا أولى الله هذا العامل النفسي اهتماما كبيرا لأثره الفعال في تقرير مصير المجاهدين، ولذلك أقر النبي عليه الصلاة والسلام ما فعله بعض المؤمنين في القتال مما فيه دلالة على رفعة معنوياتهم، وهو عند الله ورسوله مبغض في غير هذا الموطن، ففي يوم أحد أخذ أبو دجانة السيف من يد رسول الله ﷺ بحقه، وهو أن يقاتل به حتى ينحني. فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، وكان إذا اعتم بها علم الناس أنه سيقاتل، وجعل يتبختر بين الصفين. فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن**»[٢].

هكذا كان جيش الرسول ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/ ١٠٤ (٦٥٠٨).

٣

الفصل الثالث

حرب النبي ﷺ بين البواعث والغايات

الفصل الثالث

حرب النبي ﷺ بين البواعث والغايات

يحاول أعداء الإسلام بين الحين والآخر أن يشيعوا عن الإسلام أنه دين القهر للشعوب، وأنه يضع القوة موضع الإقناع، ويعول على السيف في حمل الناس على قبوله والإذعان له، ويستغلون ما ورد في الكتاب والسنة من آيات وأحاديث تدعو إلى جهاد الكفار فيحرفونها عن مواضعها، ويتجاهلون الظروف الملابسة لنزولها.

وينتهي بهم الأمر إلى تصوير الإسلام في صورة بشعة لا تعرف الرحمة ولا السماحة، ويهدفون من وراء ذلك تشويه الإسلام أمام المسلمين بغرض صدهم عن دينهم، وأيضا لمحاولة وضع جسور وحجب من الظلمات أمام من يريد أن يتعرف على هذا الدين من غير المسلمين.

وبمنطق الحقد الدفين حاول البعض منهم أن ينكر الأساليب السلمية التي تمت بها دعوة الإسلام، مدعين أنها لم تحقق أي نجاح يذكر في سبيل نشر الإسلام، وإنما القوة كانت هي الأساس الأول وراء دخول من دخل في الإسلام.

ولا تزال هذه الافتراءات تتردد على ألسنة أعداء الإسلام وتلوكها الأفواه الحاقدة إلى اليوم، لذلك قبل الحديث عن أخلاقيات المسلمين في قتالهم في السيرة النبوية، أحب أن ألخص القول في بواعث الجهاد والحرب في الإسلام لتكون أساسا بين يدي الحديث عن هذا الموضوع الجلل.

لقد جاء الإسلام ليكون دين الإنسانية كلها على اختلاف أشكالها وأجناسها، وفي هذا الصدد يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]. ويقول الله أيضا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]. وأمر الله تعالى رسوله أن ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[3].

وقد جمع هذا الدين كل ما تصبو إليه البشرية من تقدم ورقي، ومن أسباب العدل والفلاح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[4]. فمن تحقيق العدل لا بد أن تساق هذه الرحمة، وهذا العدل إلى الناس أجمعين.

ولأن عدالة الإسلام إنما جاءت لتغمر العالم، وتشمل الدنيا كلها، فلا بد أن تطلع الشعوب على الإسلام، وتتعرف عليه وعلى تعاليمه ووصاياه، ومن حقها على المسلمين أيضا ألا يحول بينها وبينه حائل، وألا تصدها عنه قوة؛ لأنهم ربما يقتنعون بمبادئه فيؤمنون به ويدخلون فيه ويكونون من أنصاره، فإذا وقفت سلطة بينهم وبين التعرف على هذا الدين، فالعدالة الإسلامية تقتضي أن تقاوم هذه القوة ولو بالقتال لإعطائهم الحرية للتعرف عليه، ومنحهم الفرصة للتفكر فيه واختياره أو عدم اختياره، في نطاق حر ورؤية مجردة.

وعلى ذلك فالإسلام لا يُكره أحدا على اعتناقه، ولكن يَكره الذين يقفون عقبة كئودا في طريقه للحيلولة دون وصوله لأسماع الآخرين من كل البشر، ويمنعون الناس حقهم في الاطلاع عليه، وعلى ما فيه من مبادئ وتشريعات، ولذلك لا بد

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

أن تزول هذه العقبات من طريق إبلاغ الدعوة إلى الناس كافة؛ لأن الدعوة قد جاءت للناس كافة؛ لأن الرسول ﷺ ليس رسولا إلى العرب وحدهم، بل هو رسول رب العالمين إلى العالمين.

ولعل الفرق واضح بين توطيد الأمن للدعوة أن تسير بين الناس وتنطلق، وتمكين الدعاة إلى الله أن يجوبوا الآفاق بتعاليم هذا الدين مطمئنين، وبين الإكراه على الدخول في الإسلام؛ فليس فيما فعله النبي ﷺ إكراه لأحد على الدخول في هذا الدين، «فالعمل على توطيد الأمن شيء غير إكراه الناس على العقائد، فهدف الأول إقصاء الضغط والفتنة على المجتمع، حتى إذا آمن فرد في قبيل لم يجد من يصب عليه سوط عذاب. أما الآخر فيريد بالسوط أن يحمل الناس على عقيدة معينة»[(١)].

ولذلك لما أراد النبي ﷺ أن يدعو دعا أولا الملوك والعظماء، فقد كان ﷺ يدرك ما تعانيه الشعوب والأمم من اضطهاد ووحشية من زعمائها، فكيف يكتب إلى هؤلاء المغلوبين على أمرهم المقهورين من حكامهم، فقد أرسل دعاته ﷺ إلى الرؤساء أولا، كما أن السرايا التي أرسلها الرسول إلى كل فج «كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾[(٢)].

فالسعي لمعاجزة الآيات أمر خطير، ولو كانت معاجزة اللسان ما اكترث لها أحد، فهيهات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر، إنها معاجزة بالسطو والقهر: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ

(١) الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ٣٦٥.

(٢) سورة الحج، الآيات: ٤٩-٥١.

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾[1].

وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل»[2].

فالجهاد في الإسلام حرب مشروعة عند كل العقلاء من بني البشر، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات:

- من ناحية الهدف.
- من ناحية الأسلوب.
- من ناحية الشروط والضوابط.
- من ناحية الإنهاء والإيقاف.
- من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج.

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح في جانبي التنظير والتطبيق في دين الإسلام وعند المسلمين.

وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة، إلا أن التعصب والتجاهل بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف، والإصرار على جعله طرفًا في الصراع وموضوعًا للمحاربة، أحدث لبسًا شديدًا في مفهوم الجهاد عند المسلمين، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنه يدعو إلى الحرب وإلى العنف، ويكفي في الرد على هذه الحالة من الافتراء، ما أمر الله به من العدل والإنصاف، وعدم خلط الأوراق، والبحث عن الحقيقة كما هي، وعدم الافتراء على الآخرين، حيث قال سبحانه في كتابه العزيز:

(١) سورة الحج، الآية: ٧٢.

(٢) الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ٣٦٦.

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١﴾[1].

ولقد فطن لبطلان هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو توماس كارليل، حيث قال في كتابه «**الأبطال وعبادة البطولة**» ما ترجمته: «إن اتهامه -أي: سيدنا محمد ﷺ- بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم؛ إذ ليس مما يجوز في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس، أو يستجيبوا له، فإذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم، فقد آمنوا به طائعين مصدقين، وتعرضوا للحرب من غيرهم قبل أن يقدروا عليها»[2].

وهكذا أراد النبي ﷺ أن يعم خير الإسلام على بقية أنحاء العالم تحقيقا لعالمية رسالته ﷺ، فأخذ يخاطب ملوك الأرض، وذلك ببعثة الرسل إليهم حاملين رسائله التي تضمنت دعوتهم إلى دين الإسلام.

فالإسلام يعطي الحق للناس بعد أن تصل إليهم دعوة الإسلام، ويتعرفوا عليها في اعتناق هذا الدين أو لا، فلا يجبرهم على الدخول فيه، ولا يُكره أحدا على اعتناقه بل هو فقط يعرفهم بدعوته وبتعاليمه ومبادئه، ثم من شاء بعد هذا العرض السلمي أن يؤمن، ومن شاء ألا يؤمن فلا إعنات ولا إكراه.

لكن إذا اعتنق الإسلام قوم، ثم حاولت قوة من القوى أن تصدهم عن دينهم، أو تصرفهم عن عقيدتهم، فلا بد إذن من التعرض لهذه القوة الغاشمة وردها عنهم؛ لأن الجهاد حينئذ واجب مقدس لدرء الفتنة، ورد العدوان، وحماية أصحابه.

فأهداف الجهاد في الإسلام لا تخرج عن نطاق العدالة وإقرارها بين الناس، ومنع الفساد أن يقع، وحماية الضعفاء من الظلم والطغيان، فإذا وجدت قوة في الأرض

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧١.

(٢) الأستاذ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٦٦.

تظلم الناس وتقتات عليهم وتسلب حقوقهم وتخدش كرامتهم، وتحبس ضمائرهم أن تنطلق وعقولهم أن تفكر، وقلوبهم أن تؤمن، فمن حق الإسلام في مثل هذه الأحوال أن يقاتل الباغين، ويمنع الفساد في الأرض؛ قياما بشريعة الله في العدالة الإنسانية.

إن إعانة المظلوم وحماية المضطهد وإنقاذه من أيدي القوى الغاشمة أمر يهدف إليه الإسلام، ويسعى إلى تقريره بين المسلمين وغير المسلمين على السواء.

وإذا كان الإسلام يقاتل البغاة من المسلمين أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

إذا كان الإسلام يتخذ هذا الإجراء الذي دعت إليه الآية الكريمة مع المسلمين، فإنه أيضا يقاتل البغاة من غير المسلمين؛ دفعا للفساد، ودرءًا للفتن، وإقامة للعدل وحماية للضعفاء، وإعلاء كلمة الله في الأرض، وتقريرا للكرامة الإنسانية.

لا بد للإسلام إذن أن ينطلق ويتحرك، ولا يتقوقع في مكانه، ولا بد أن تبلغ الدعوة جميع الأسماع فالإسلام «جاء ليعم وينتشر لا ليقيم ويستسلم، ولا ليقبع في مكان ويرضى باليسير من الحياة، فلا بد أن يسعى لهدفه، وهو دعوة الناس إلى الخير، وإخراجهم من عبودية البشر إلى عبادة الخالق، ومن ذل المعصية إلى عز الطاعة، ومن الحيرة إلى الهدى، وهو متمسك بهدفه، وباذل في طريقه كل غال حتى يتحقق المطلوب»[2].

ولا يتنافى ذلك مطلقا مع القاعدة المقررة بأنه لا إكراه في الدين، فلا مجال للخلط بين الأمرين؛ بين وجوب الدعوة إلى دين الله، وبين الإكراه على الدخول في الدعوة، فلم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته.

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) الأستاذ سيد قطب: معالم في الطريق، ص ٨٩.

نعم إن المسلمين حاربوا وقاتلوا وجاهدوا، ولكن هل قاتلوا ليكرهوا الناس على الإسلام؟ إنهم قاتلوا لتقرير حرية التدين، وكسر القيود التي فرضتها القوى الغاشمة على الشعوب، فالإسلام لا يحارب أمما ولا شعوبا، وإنما يحارب حكومات ظالمة وقوى غاشمة، فإذا أقرت العدل ورفعت الظلم تركت الناس وما يدينون ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1].

وبذلك كانت أولى نظرات الإسلام إلى الحرب أنها ضرورة اجتماعية أو شر لا بد منه، فلا يتورط المسلمون في حرب إلا لما يرجى من ورائها من خير ففي الوقت الذي يقرر الإسلام فيه هذا الواقع يحرم الحرب ويسمو بها، ولا يدعو إليها أو يشجع عليها إلا لأغراض سامية، ويمكن أن نوجز أغراض الحرب في الإسلام بعد أن أوجزنا القول في بواعثها فيما يلي:

رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين:

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[2].

وكانت أول آية من آيات القتال نزلت وفيها الإذن به قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[3].

وفي آية أخرى نزل القرآن يقول: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٩.

مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[1].

فالأصل في الحرب في الإسلام أنها حرب دفاعية؛ سواء كانت بسبب ظلم وقع على المسلمين، أو بسبب وقوف قوى عائقا في طريق الدعوة الإسلامية ومحاربتهم لها.

ومن هنا جاءت الآيات الحاضة على القتال في سبيل الله، أي في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية، والتمكين لها من الوصول إلى الناس أداء للرسالة المحمدية، وقياما بواجب البلاغ الذي كُلف به الرسول الأمين للناس أجمعين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

وقد نزلت هذه الآية عندما تحالفت غطفان وبقية قبائل المشركين مع قريش بتحريض وإيعاز من اليهود على قتال الرسول والمسلمين في غزوة الأحزاب، فأمر الله تعالى المسلمين بمقاتلة المشركين كافة؛ لأنهم بدءوهم بالقتال كافة، فالأمر بالقتال هنا دفاعا عن النفس والعقيدة.

وكذلك الشأن عندما نكث اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ وطعنوا في الإسلام وذهبوا يؤلبون قبائل العرب على المسلمين[3]، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥. (٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٨، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٦، ٧.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ١٢، ١٣.

لعل في هاتين الآيتين ما يقطع بأن الله لم يأمر المسلمين بقتال المشركين واليهود إلا من بعد ما بدأ المشركون القتال ونكث اليهود العهد، بل وذهبوا يؤلبون على رسول الله ﷺ رغبة في القضاء عليه وعلى دعوته، ولكن الله غالب على أمره، ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله في الإسلام ليس قهرا للشعوب والأمم على اعتناق الإسلام، ولكن دفاعا عن الدعوة والرسالة، ولتأخذ طريقها إلى الناس، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

«فالعلاقة بين الناس في دستور الإسلام علاقة سلم حتى يضطروا إلى الحرب دفاعا عن أنفسهم، أو اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع، فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوبا لا هوادة فيه، وهو مع وجوبها مأمور بأن يكتفي من الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة»[1].

ولذلك يحض الإسلام على بر الكفار غير المقاتلين، فالقرآن يأمر المؤمنين بأن يعاملوا من لم يقاتلهم خير معاملة، وينص على السماح للمسلمين بأن يتقدموا إليهم بالبر إذا عاش أولئك في سلام ووئام ولم يوقعوا ضررا بالمسلمين، فقال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

فهل بعد ذلك دليل على أن القتال في الإسلام ليس عدوانا، وإنما هو دفاع عن الدعوة والذود عن حياضها؟ فمن سالم المسلمين، فإن الله يأمر بمسالمتهم، بل ولا ينهى عن

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٧٢.

(٢) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.

البر بهم والإحسان إليهم. فالمودة هي أساس العلاقات الإنسانية «إن الإسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة وكل نحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك»[1].

تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم:

كما يحارب الإسلام أيضا منعا للفتنة، والفتنة التي تكرر في القرآن ذكرها على أن إطفاءها نهاية للحرب المعلنة من جانبه، تعني استغلال السلطة لمصادرة الحق ومطاردة أهله، كما فعل آلاف الطغاة قديما وحديثا.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[2].

ويقول تعالى أيضا: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[3].

فالإسلام يبني جهاده على أن الإكراه لا يؤسس عقيدة، فهو لا يضغط على أحد حتى يلجئه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، لكنه في الوقت نفسه لا يقبل من قوة

(١) الشيخ عبد الله دراز: نقلا عن الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

غاشمة أن تضطهد المؤمنين وتصدهم عن دينهم، وترجعهم إلى الجاهلية التي تركوها.

حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعا ويتحدد موقفهم منها تحديدا واضحا:

وذلك أن الإسلام رسالة اجتماعية إصلاحية شاملة عامة لجميع البشر، تنطوي على أفضل مبادئ الحق والخير والعدل وتوجه إلى الناس جميعًا كما قال الله تبارك وتعالى لنبي الإسلام محمد: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[(١)].

هكذا أوحى الله تعالى إلى نبيه الكريم ﷺ أن دعوته ليست إقليمية تقتصر على العرب وحدهم، ولا يختص بها جنس دون جنس، بل هي للناس كافة فالإسلام دين البشر قاطبة و«من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن الرسالة الخاتمة جاءت شاملة لكل ما يحتاجه المسلمون في حياتهم الدينية والدنيوية، موجهة لكل الثقلين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ذلك أن الهدف هو هداية الله للإنسان، دون قصر الدعوة على جنس بذاته، أو مكان معين؛ إذ إن دعوة الرسول ﷺ موجهة إلى الناس كافة»[(٢)].

فلا بد أن تزول من طريقها كل عقبة تمنع من إبلاغها، ولا بد أن يعرف موقف كل فرد وكل أمة بعد هذا البلاغ، وعلى ضوء هذا التحديد تكون معاملة الإسلام وأهله للناس؛ فالمؤمنون إخوانهم، والمعاهدون لهم عهدهم، وأهل الذمة يوفى لهم بذمتهم،

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، ص ٤٨.

والأعداء المحاربون ومن تخشى خيانتهم ينبذ إليهم، فإن عدلوا عن خصومتهم فيها وإلا حوربوا جزاء اعتدائهم حتى لا يكونوا عقبة في طريق دعوة الحق، أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها لا إكراها لهم على قبول الدعوة ولا محاولة لكسب إيمانهم بالقوة لأنه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[1].

تأديب ناكثي العهد:

من البواعث التي شرعت لأجلها الحرب في الإسلام كذلك تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التي تتمرد على أمر الله، وتأبى حكم العدل والإصلاح، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

ويقول تعالى أيضا: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[3].

إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين:

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.

ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

إن «أول ما وجه النبي ﷺ همته إليه، أن جعل للطائفة التي اتبعته غاية سامية تسعى للوصول إليها؛ لأن كل جماعة لا يكون لها غاية تركد حيث هي، وتكتفي من الحياة بما يحفظ وجودها الشخصي وكيانها القومي، وقد تلبث على هذا عشرات السنين حتى تبيد أو تفنى في جماعات أقوى منها، فكانت الغاية التي عينها النبي للجماعة التي يرأسها أن تكون نواة الدين الذي شُرع لإصلاح جميع الأديان، وأن تُحمى الدعوة إليه ضد كل من يحاول أن يحول بينها وبين الانتشار»[2].

بهذه الأهداف السامية وهي فضائل كما نرى وعلى هذا النهج السمح الكريم، كانت شرعة الحرب في سيرة رسول الإنسانية، فكل ما سوى هذه الأغراض الإنسانية الإصلاحية الحقة من المقاصد المادية أو النفعية فإن الإسلام لا يجيز الحرب من أجلها بحال من الأحوال، وذلك واضح كل الوضوح في إضافة الإسلام القتال أو الجهاد دائما إلى سبيل الله، فلا ترد واحدة من هاتين الكلمتين في بحث من البحوث الإسلامية إلا مقرونة بهذا السبيل، على أن القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال لغير هذه الأغراض المشروعة وأكدت هذا التحريم أحاديث النبي محمد، وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئا أبدا إلا وجه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها أو بعضها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ١٩٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٤.

ويقول تعالى أيضا: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[1].

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، ويقاتل للمغنم أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2].

وقد التقى رسول الله ﷺ هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان. فقال رسول الله ﷺ: «**أما إنه من أهل النار**». فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحا شديدا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: «**وما ذاك؟**» قال: الرجل الذي ذكرت آنفا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحا شديدا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**»[3].

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٤/ ٢٠١، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ٣/ ١٥١٢ (١٩٠٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ٥/ ١٣٢.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا فقال: **«لا أجر له»**. فأعاد عليه ثلاثا، كل ذلك يقول: **«لا أجر له»**[1].

وروي عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال: بعثنا رسول الله في سرية فلما بلغنا المغار - أي مكان المغارة - استحثت فرسي فسبقت أصحابي، فتلقاني أهل الحي بالرنين فقلت لهم: قولوا: لا إله إلا الله تحرزوا. فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا: حرمتنا الغنيمة. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت، فدعاني فحسن لي ما صنعت، ثم قال لي: **«أما إن الله قد كتب لك لكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر»**. وقال: **«أما إني سأكتب لك بالوصاة بعدي»**. ففعل وختم عليه ودفعه إلي[2].

«تأمل فرحة الرسول ﷺ بهذا الرجل، وإشادته بصنيعه وتنويهه بما اكتسب من ثواب، وتوصية الخلفاء والأمراء من بعده أن ينتفعوا بسياسته في الحرب؛ لأنها مبنية على التقوى وصدق الإيمان.

إن في ذلك دلالة على الرغبة في حقن الدماء، وسوق النفع المجرد إلى الناس ابتغاء ما عند الله»[3].

هكذا تضافرت توجيهات الكتاب والسنة على إخلاص النية في هذا الجهاد لله، وتمحيصه لنصرة الحق، والتسامي به عن أغراض النفس وأعراض الدنيا، ولقد تأثر أصحاب النبي حتى الأعراب منهم بهذا السمو في الغرض من القتال حتى روي أن رجلا من الأعراب جاء فآمن بالنبي، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى النبي به بعض

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في من يغزو ويلتمس الدنيا ٣/ ١٤ (٢٥١٦)، وابن حبان في صحيحه ١٠/ ٤٩٤ (٤٦٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٤/ ٣٢١ (٥٠٨٠).

(٣) الشيخ محمد الغزالي: الإسلام والاستبداد السياسي، ص ٢١٦.

أصحابه، فكانت غزاة غنم النبي فيها شيئا فقسم وقسم له فقال: ما هذا؟ فقال: **«قسمته لك»**. فقال الرجل: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا - وأشار بيده إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال ﷺ: **«إن تصدق الله يصدقك»**. فلبثوا قليلا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به إلى النبي ﷺ محمولا قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي ﷺ: **«أهو هو؟»** قالوا: نعم. قال: **«صدق الله فصدقه»**[1].

ومن هنا كان قصد الفاتحين في المقام الأول هو رد الناس إلى الله، وقد جرت في موقعة اليرموك محاورة لطيفة بين خالد بن الوليد وهو عربي مسلم، وبين جرجة بن تيودور وهو نصراني رومي، وهذه المحاورة تشهد لعواطف الاستبشار والغبطة التي لقي بها المسلمون أي داخل في دين الله، فقد نادى: ليخرج إليَّ خالد، فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه، فوقفه بين الصفين؛ حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد أمن أحدهما صاحبه، فقال جرجة: يا خالد، اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ قال: لا. قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه. فقال: **«أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين»**. ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين. قال: صدقتني. ثم أعاد عليه جرجة: يا خالد، أخبرني إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله.

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهداء ٤/ ٦٠ (١٩٥٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ١٥.

قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا؛ شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا، ثم أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا. قال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني؟ قال: بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة، وإن الله لولي ما سألت عنه. فقال: صدقتني. وقلب الترس ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام. فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى ركعتين[1].

وصحف التاريخ فياضة بمثل هذا الحب لإسلام الخلق، وهذه الزهادة منهم في عرض الحياة الدنيا وغنائم الفتح، وأن غرضهم من الجهاد لم يكن شيئا إلا إعلاء كلمة الله وحماية دعوته في الناس.

وإذا طالعنا سيرة الرسول الكريم ﷺ وسير صحابته الكرام رضوان الله عليهم ومسالكهم في البلاد التي فتحوها، سنرى مبلغ عزوفهم عن المطامع والأهواء وانصرافهم لغايتهم الأساسية الأصلية، وهي إرشاد الخلق إلى الحق حتى تكون كلمة الله هي العليا، وستتأكد مبلغ الخطأ في اتهامهم رضوان الله عليهم بأنهم إنما كانوا يريدون الغلب على الشعوب والاستبداد بالأمم والحصول على الأرزاق.

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ٢/ ٣٣٧.

وقد عبر عن هذه الغاية الشريفة أحد جنود الإسلام وهو النعمان بن مقرن حين خاطب يزدجرد قائلا له: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين؛ فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، فدخلوا معه جميعًا على وجهين؛ مكروه عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم؛ وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم[1].

هكذا تتميز عقيدة الجهاد في الإسلام بوضوح الهدف، وهو سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وهو هدف يسع كل القيم الإنسانية السامية؛ كالدفاع عن الوطن والعرض والكرامة والحق والعدل والسلام.. أما العدوان والاغتصاب فليست من أهداف الجهاد الإسلامي في شيء.

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ٢/ ٣٩١.

الباب الثالث

أخلاقيات الحرب
في السيرة النبوية

١

الفصل الأول

غزوات الرسول ﷺ وحروبه
بين الشرعية واللاشرعية

الفصل الأول

غزوات الرسول ﷺ وحروبه بين الشرعية واللاشرعية

في هذا الفصل نعرض لغزوات الرسول ﷺ وحروبه مركزين على الأسباب، حتى يتبين للناظر أكانت شرعية أم لا؟

إذ لما استقر النبي ﷺ بالمدينة، وأسس حكومته النبوية كان مستهدفا من قبل قريش، ولا يعقل أن تغمض عينيها ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامة الدين في البلاد العربية عن قيام زعامة أخرى في بلد كيثرب يصبح منافسا لأم القرى، وربما بزها سلطانا على العقول وباد على قريش فأباد خضراءها وسلبها حقها الموروث.

ولا يسع الإسلام وإن كانت ميوله سلمية أن يمنع أنصاره من الدفاع عنه والحفاظ عليه، ولا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذي يشهره خصومهم في وجوههم، فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ

ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن، موطن الدفاع عن النفس والدين، عن أن ينصح أتباعه بعدم العدوان؛ لأن القضية ليست للتشفي، بل لحماية الحق، ودفع العدوان ونشر الإسلام.

والإسلام باعتبار أنه دين عام للناس كافة، يعد العالم كله أمة واحدة، غير معتد بما أحدثته البيئات والتقاسيم الجغرافية بينهم من الفروق واللغات والأديان. لهذا السبب ولأن موحيه هو رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء، أحيطت جميع آيات الجهاد فيه بأوامر مشددة في مراعاة العدل مع المحاربين، وعدم الإسراف في سفك دمائهم، والاعتداد بالظاهر من أعذارهم، مما يعد مثلا عليا لم تصل المدنية الحديثة بعد سيرها الطويل ألوفا من السنين إلى خيال منها، ناهيك أنه يحرم على أهله أن يقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال كما سيأتي بيانه، فقد قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[2]. وقال أيضا: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[3]. وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[4].

بهذه القيود الرحيمة، وفي هذه الحدود العادلة أذن الله تعالى للمسلمين أن ينبذوا لأعدائهم على سواء، وأن يقابلوا قوتهم بمثلها حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل، ويظهر دين الله على جميع ما حاكته الأوهام من عقائد باطلة وخيالات عاطلة، ولما

(١) سورة الحج، الآيات: ٣٩-٤١. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨.

كان القرشيون قد صارحوا النبي ﷺ وأصحابه بالحرب ولو كان تركهم وشأنهم بعد هجرته إلى المدينة ما تركوه وشأنه فقد اعتبرهم في حالة حرب وعاملهم على موجب هذا الاعتبار[1].

لقد هاجر المسلمون إلى المدينة، وتركوا مكة وهي أحب بلاد الأرض إليهم وفيها الكعبة متعبد العرب منذ عهد إبراهيم ومهوى أفئدتهم، وخلفوا وراءهم كل شيء بعد أن أعلنت قريش الحرب طوال ثلاثة عشر عاما، لم تدع كريهة إلا أذاقتها إياهم وأنزلتها بهم، وكان من الطبيعي أن يتوقع المسلمون أن جيوش الشرك من قريش لاحقة بهم في مهاجرهم بالمدينة بعد أن أعلنت عليهم الحرب وأخرجتهم من ديارهم، وكان مقتضى ذلك أن يحتاط المسلمون للأمر ويتخذوا له أهبته؛ حتى لا تفاجئهم قريش بحرب ولا تأخذهم على غرة، فبدأ النبي ﷺ بعقد العهود والمواثيق مع يهود المدينة إيذانا بتكوين الدولة الإسلامية الجديدة، ولما نقض اليهود العهد المبرم معهم وأرجفوا وطعنوا المسلمين من الخلف، وبيتوا ما بيتت قريش من اغتيال الرسول، فاستحقوا ما نزل بهم من خزي وإجلاء عن المدينة.

وكان من الطبيعي أن يتوقع المسلمون هجوم قريش عليهم بالمدينة، فبعد أن استتب لهم الأمر فيها وعاهدوا اليهود، أخذ الرسول ﷺ يبعث السرايا والبعوث في ظاهر المدينة؛ ليتسمعوا أخبار قريش من قوافلها التي لا زالت توالي رحلات التجارة صيفا وشتاء من مكة إلى الشام جيئة وذهابا، حتى إذا ما علموا بمقدم قريش للحرب استعدوا لها.

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن النبي ﷺ هو الذي بدأ بالعدوان على قوافل قريش، وتلقفوا بعض العبارات من كتب السيرة وبنوا عليها أن المسلمين صادروا الكثير من قوافلها.

---

(١) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ١٦٤.

وعلى فرض صحة هذا القول وهو ما لا أسلم به أفلا يكون للمسلمين حق في ذلك ما دمنا قد أثبتنا أنه عند هجرتهم كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش؟ أليس تبيح القوانين الدولية لمن يكون في حالة حرب أن يغنم من خصمه ما يستطيع؟ خصوصا وقد علمنا أن ذلك الخصم أخرجهم من ديارهم وأموالهم وذرياتهم ونسائهم؛ بأن أكرهوا على ذلك بالأذى والتعذيب والحصار وإعلان حرب المقاطعة، ثم قتلوا بعض المسلمين واتفقوا على قتل نبيهم.

ومع كون ذلك من حقوق المسلمين المشروعة في كل شريعة، وفي قواعد القانون الدولي الحديثة، إلا أن من يتتبع سير الوقائع بإمعان من كتب السيرة يجد أن المسلمين لم يبدءوا العدوان، بل كانوا يردون الاعتداء بمثله.

ويمكن القول بأن سير الغزوات ووقائعها كانت ضمن المبادئ القرآنية، فكل سرية أو بعث أو غزوة وقعت في زمن النبي ﷺ، إنما كانت ردا على عدوان، أو دفعا لأذى، أو تنكيلا بناكث أو غادر، أو تأديبا لبغاة أشرار، أو ثأرا لدم إسلامي أهدر، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغيا وعدوانا[1].

وفيما يلي نعرض لغزوات الرسول ﷺ وحروبه لنقف على مقدماتها وأسبابها، لنرى هل تعد هذه الغزوات ضربا من قطع الطريق كما يزعم الزاعمون؟[2]

سرية سيف البحر[3]

كانت في رمضان في السنة الأولى للهجرة، وقد بعثت هذه السرية لدراسة أحوال

(١) الأستاذ محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، ص ٢٧٩.

(٢) رجعت في هذه الغزوات إلى سيرة ابن هشام، تاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير، والمنتظم لابن الجوزي، فضلا عما ورد من أحداث السير في الصحاح والسنن والمسانيد.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٥.

مكة ووجد الأعداء أن المسلمين منتبهون فانصرفوا عنهم، وقد انصرف المسلمون بدون قتال بعد أن حجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني.

سرية الرابغ

في شوال من السنة الأولى للهجرة، بعثت هذه السرية لتفقد أحوال أهل مكة فرأت جمعًا عظيمًا من قريش بأسفل ثنية المرة، فانصرف المسلمون بدون قتال أيضا.

سرية ضرار

في ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة، خرج بها سعد بن أبي وقاص حتى بلغ الجحفة، ثم رجع ولم يلق كيدًا.

غزوة ودان وهى غزوة الأبواء

في صفر من السنة الثانية للهجرة، وفيها عاهد النبي ﷺ عمرو بن مخشي الضمري على ألا يعين قريشًا ولا المسلمين.

غزوة بواط[1]

في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، خرج فيها النبي ﷺ بنفسه حتى إذا بلغ إلى بواط ناحية رضوى، لقي في الطريق قريشًا وأمية، ثم رجع إلى المدينة.

غزوة سفوان أو بدر الأولى[2]

كانت في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، خرج النبي ﷺ في سبعين من أصحابه في طلب كرز بن جابر الفهري، الذي أغار على سرح المدينة فخرج في طلب العدو حتى بلغ واديا يقال له: سفوان. فلم يدركه.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٠١.

غزوة ذي العشيرة

حدثت في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، وادع النبي ﷺ بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

سرية عبد الله بن جحش[1]

كانت في رجب من السنة الثانية للهجرة، وكانت سببا لغزوة بدر الكبرى، وقد أرسلت لاستطلاع عير لقريش فوقع الصدام.

وإذا جاز لنا اختصار القول فيما سبق من السرايا، فلا ينبغي لنا أن نختصر القول في هذه السرية؛ لأنها أبرزت جوانب مهمة تكشف عن أهداف المسلمين من القتال، وأنه ليس لشيء إلا لله، وبناء على ذلك انتظر النبي ﷺ التوجيه الإلهي فيما لا يستطيع بشر أن يبت القول فيه.

لقد سار عبد الله بن جحش على رأس رجاله متوخيا ما أمره النبي ﷺ به؛ حيث سلمه النبي ﷺ كتابا، وأمره ألا يفضه إلا بعد أن يبعد عن المدينة مسيرة يومين، ففعل ما أمره به، ووجد في الكتاب هذه العبارة: «**إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا أخبارهم**».

فلما وصل إلى مكان يقال له: نخلة. مرت به قافلة لقريش يحرسها أربعة رجال، فحمل عليها برجاله، فقتلوا واحدا وأسروا اثنين، واستاقوا الإبل وما عليها، ورجعوا إلى المدينة، فعابهم المسلمون على ذلك؛ لأن قتالهم وقع في شهر رجب، وهو شهر كان يحرم فيه القتال عند العرب، وقال لهم النبي ﷺ: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**». فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا.

---

(١) البداية والنهاية ٥/ ٣٦.

وقد عابهم اليهود، وسلقتهم قريش بألسنة حداد، وبدءوا يطعنون على محمد وصحبه أنهم يسفكون الدماء، ويستحلون القتال في الأشهر الحرم، فندموا على ما فعلوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[1]. فسري عنهم.

ومعنى الآية: يسألونك يا محمد عن الشهر الحرام أيجوز القتال فيه؟ فقل لهم: إن القتال في الشهر الحرام ذنب كبير، ولكن الصد عن سبيل الله، والكفر به، والصد عن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، يعتبر عند الله ذنبا أكبر من ذنب القتال في الشهر الحرام، وما فيه الكافرون من الجاهلية الجهلاء أكبر هولا من القتل الذي ارتكبته السرية[2].

وننقل هنا إيجازا كتبه الأستاذ محمد فريد وجدي عما ينبغي أن نلتفت إليه من هذه الحادثة يقول: هنا لا نرى بدا من لفت الأنظار إلى انتقال خطير في فهم علاقة الحياة البشرية بالتقاليد الدينية، افتتح به الإسلام عهدا للإصلاح الجلل الذي حمله للإنسانية، وحمى وجوده الخالد به من صدمات فادحة تقتضيها الانتقالات العقلية والاجتماعية في خلال الأطوار المتعاقبة التي لا تبقي من الأوضاع القديمة إلا أطلالا دارسة، لا يكون لها وجود إلا في ذكريات أهلها، دون أن يكون لها تأثير في حياتهم الدنيوية.

ونحن لأجل بيان هذا الإجمال نقول:

إن الذي عابته قريش على قائد السرية من خرقه حرمة الشهر الحرام، كان يرتكبه الجاهليون على وجه يسجل عليهم الجمود والتلاعب معا. فقد كانوا إذا اضطروا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٢.

للقتال في شهر حرام ارتكبوه، ولكن تحت ستار حيلة صبيانية، وهي أنهم كانوا يتقاتلون في أي شهر حرام أياما، ويحرمون القتال على عددها أياما من شهر غير حرام، كما يضطر مريض للفطر أياما من رمضان ويصوم بعددها أياما من أي شهر آخر؛ أداء لما فاته من الأيام المفروضة.

وقد فضح الله أمر الجاهليين في هذه الناحية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وهذا الذي كان يسميه الجاهليون بـ«النسيء» هو إبدالهم أياما عادية بأيام من الأشهر الحرم كما قدمنا، ليستمروا في القتال والتناحر، وهذا العمل زيادة في الكفر يضل به الشيطان الذين كفروا، يجعلونه حلالا عاما وحراما عاما آخر، وقد زينت لهم أعمالهم السيئة، والله لا يهدي الكافرين.

والفرق بين الذي كان يأتيه الجاهليون، وبين ما رخص فيه الله كبير: فالأول مبني على الحيلة التي لا تجوز إلا على الجاهلين، وتنطوي على معنى التلاعب والاستخفاف، ومثل هذا التحايل في حياة الأمم الأدبية يفضي إلى إباحات لا تحصى، لا تبقى معها شريعة، ولا يصان معها من العبث أصل.

ولكن الثاني، وهو الترخيص في القتال في الشهر الحرام، قائم على أصول قيمة يبتني عليها انتقال بعيد المدى لعقلية الشعوب، ويضع حدا للجمود على الأوضاع، ويقضي على صفة خسيسة في النفوس، وهي التحلل من الواجبات بحيل صبيانية[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص١٧٠، ١٧١.

غزوة بدر الكبرى

في غزوة بدر لم يبدأ المسلمون بالاعتداء، بل كانوا يردون العدوان عليهم، فهم قد كانوا يبعثون السرايا والبعثات لاستطلاع أخبار عدوهم الذي هو على حرب معهم، وكان اعتراض قافلة قريش الكبرى عام بدر لمثل هذا الغرض، ولنسلم أيضا بما ذهب إليه الرأي الآخر من أن المسلمين حين خرجوا إلى القافلة قصدوا الظفر بما فيها من مال قصاصا لما أخذ من أموالهم، فنتساءل: أفلا يباح لهم ذلك ما دامت حالة الحرب قائمة بين الطرفين، بل ما دامت الحرب معلنة من جانب قريش وقائمة بينهما؟ أظن أن الجواب نعم.

ومع ذلك ماذا حدث؟ لا خلاف بين مسلمين وغيرهم أن السرية التي أرسلت لم تظفر بالقافلة، وكان يمكن أن ينتهي الأمر عند ذلك، ولكن قريشًا نادت بالنفير وخرجت من مكة بقضها وقضيضها تبغي المدينة لمحاربة المسلمين، والقضاء عليهم في عقر دارهم التي هاجروا إليها، فهل خرج المسلمون إلى مكة ليهاجموا قريشا؟

كلا، فلم يكن موقف المسلمين إذن في غزوة بدر إلا موقف المدافع عن نفسه، وكانت الحرب من جانبهم حربا دفاعية لا هجومية.

لقد كان جيش المسلمين في عدته وعدده ثلث جيش قريش، ولما علم النبي ﷺ بمقدم قريش خرج للقائها خارج المدينة، فالتقى الجمعان في بدر، وهي أقرب للمدينة منها إلى مكة، وكان المسلمون يعتقبون الإبل لكل ثلاثة بعير، بينما قدمت قريش بخيلها وخيلائها أي أن وقت القتال ليس في صالح المسلمين ولذلك أخذ الرسول ﷺ يسأل ربه النصر الذي وعده إياه ويقول: **«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»**[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم ٣/ ١٣٨٤ (١٧٦٣).

فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[١].

وهكذا شاء الله تعالى أن تدور على أهل البغي والعدوان الدائرة، وقتل من كبرائهم الكثير، ومع ذلك فلم يخرج المسلمون لقتال إلا بعد أن أذن الله لهم بذلك في أول آية نزلت من آيات القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٢].

فإذن الله تعالى للمسلمين والترخيص لهم في الحرب كان معللا بأنهم يقاتلون من قريش، وأن القتال من جانب قريش كان ظلما وبغيا وعدوانا، ولم يكن حربا مشروعة، وبقية الآية جعلت الكثير يذهبون إلى أن الإذن بالقتال جاء معللا بما وقع من قريش من إخراج المسلمين من ديارهم، وهذه البقية تجري مع ما قبلها كالآتي: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

والرأي الذي أراه، وهو أن آخر الآية جاء وصفا وبيانا للذين ظلموا فقال: إنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وتبقى على الإذن بالقتال في صدر الآية بأن غيرهم بدأهم بالقتال ظالما، فلا بد لهم من رد هذا القتال دفاعا عن أنفسهم، واتباعا لسنة الله منذ بدء الخليقة بأن يتعين عليهم دفع الاعتداء بمثله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[٣].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٠.

وزاد الله تعالى في الآيات بما يثبت من عزائم المعتدى عليهم حين أباح لهم دفع هذا العدوان بقوله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

وقيل: إن الآيات نزلت في قتال قريش وهي: ﴿ وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[2].

ولنقف عند هذا الجزء من الآية ونكرر قراءته حتى لا يخالجنا أدنى شك بأن الآية أمرت بأن يقاتل المسلمون من يقاتلهم، وعلى الرغم من وضوح المعنى في الجملة الأولى، إلا أنه أراد توكيده بعبارة أخرى فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا ﴾. أي: لا تبدءوا بالعدوان، ولا تجاوزوا في قتالكم الحد الكافي لرد العدوان.

وأراد الله أن يستوثق على المسلمين في هذه الأوامر فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

وتساءل بعض المسلمين عما إذا كان يحل لهم أن يطئوا مكة، بعد أن نصرهم الله في بدر، مع أن في مكة المسجد الحرام الذي لا يحل فيه قتال ولا بغي ولا ظلم، ولا سيما وقد ورد في القرآن: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾[3].

ومن راودته هذه الفكرة كانت ردا على قدوم قريش إلى المدينة ومحاربة المسلمين في عقر دارهم، فرد الله على هذا التساؤل بأن ذلك مباح للمسلمين عل شرط أن يبدأ

(١) سورة الحج، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

المشركون بالعدوان، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[1].

وهناك آية سجلت استغاثة المسلمين الذين لم يقدروا على الهجرة من مكة حيث بلغ بهم الأذى والعدوان، إنهم كانوا يسألون الله إخراجهم من هذه القرية الظالم أهلها، وجاء تسجيل هذه الاستغاثة في قوله تعالى تسجيلا لاعتداء قريش، وتأييدا لما نزلت به آية الإذن بالقتال من إباحة رد العدوان بمثله، يقول تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾[2].

وإلى هذا الحد لم يأذن الله للمسلمين بمحاربة أحد لإجباره على الإيمان، ولم يأذن بحرب أحد من الجزيرة العربية سوى قريش لبدئها بالعداء والأذى ومحاربة الدعوة بكل الوسائل والسبل.

سرية عمير بن العدي الخطمي

وقعت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وفيها قتل عمير أخته التي كانت تحض قومها على الحرب ضد المسلمين.

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٩١-١٩٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٥.

سرية سالم بن عمير الأنصاري

في شوال من السنة الثانية للهجرة، كان أبو عكفة اليهودي يستفز اليهود على المسلمين فقتله سالم.

غزوة بني قينقاع

كانت في شوال من السنة الثانية للهجرة، وسببها أن اليهود نقضوا العهد واعتدوا على امرأة من نساء الأنصار، فدعا النبي ﷺ رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك ما لقيت من قومك، فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾[1].

فلم يرفعوا بهذا القول رأسا، وما زالوا يحيكون المؤامرات ضد الدولة الإسلامية رغم العهود المبرمة، حتى أجلاهم الرسول ﷺ إلى أذرعات الشام[2].

غزوة السويق

كانت في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة، وسببها أنه لما بلغ أبا سفيان مقتل ابنه في معركة بدر، هاج هائجه، وأقسم ألا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمدا، وسولت له حميته الجاهلية أن يخرج في مائتين من رجاله، وقصد أن يقابل رئيس بني النضير من اليهود ليستنصر بقومه، فلم يسمح بمقابلته، فأرسل بعض رجاله فحرقوا نخلا بجوار المدينة، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه، فخرج إليه النبي ﷺ في مائتين من المسلمين، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب، فهرب هو ورجاله، وأخذوا يخففون

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٤٨.

من أثقالهم بإلقاء ما معهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير ويسمونه السويق، فسميت غزوة السويق.

غزوة قرقرة الكدر أو غزوة بني سليم

وكانت في محرم من السنة الثانية للهجرة، خرج العدو يغزو المدينة، فانصرف حين رأى جمعًا من المسلمين، وأسر عبد اسمه يسار فأطلق سراحه.

سرية قرقرة الكدر

بعثت هذه السرية إكمالًا للسابقة؛ إذ اجتمع الأعداء مرة أخرى، ولكنهم فروا لما رأوا من تيقظ المسلمين.

سرية محمد بن مسلمة

في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة، كان كعب بن الأشرف يحرض القبائل من اليهود ضد المسلمين، وأخذ يهجو النبي ﷺ، ودعا قريشًا للحرب فوقعت غزوة أحد.

غزوة ذي أمر أو غزوة غطفان أو أنمار

في ربيع من السنة الثالثة للهجرة، اجتمعت بنو ثعلبة وبنو محارب للإغارة على المدينة، فانصرفوا حين رأوا جمعًا من المسلمين، حيث خرج النبي ﷺ في أصحابه حتى بلغ نجدًا، وهنا أسلم دعثور الذي هم بقتل رسول الله ﷺ، إذ لما هربت الأعراب فوق ذرى من الجبال، ونزل رسول الله ﷺ ذا أمر، وعسكر به، فأصابهم مطر كثير، فذهب رسول الله ﷺ لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبل ثوبه، وقد جعل رسول الله ﷺ وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة، ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله ﷺ، فقالت الأعراب لدعثور، وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من

أصحابه حيث إن غوث بأصحابه لم يغث حتى تقتله، فاختار سيفا من سيوفهم صارما، ثم أقبل مشتملا على السيف، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف مشهورا فقال: يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟ قال: «**الله عز وجل**». ودفع جبريل في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقام على رأسه فقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، لا أكثر عليك جمعا أبدا، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، ثم أدبر ثم أقبل بوجهه ثم قال: والله لأنت خير مني، قال رسول الله ﷺ: «**أنا أحق بذلك منك**». فأتى قومه فقالوا: أين ما كنت تقول، وقد أمكنك والسيف في يدك؟ قال: قد كان والله ذلك رأيي، ولكن نظرت إلى رجل أبيض طويل فدفع في صدري، فوقعت لظهري فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمدا رسول الله، والله لا أكثر عليه، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، ونزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

سرية قردة

في جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة، خرج زيد بن حارثة في بعث، فتلقى قريشًا في طريقهم إلى العراق، أسر فراء بن سفيان دليل القافلة التجارية فأسلم.

غزوة أحد

قبل أن تبرح قريش ميدان المعركة في بدر أعلنت استمرار قيام حالة الحرب بينها وبين المسلمين، فأمر كبيرهم من ينادي: يا محمد، الحرب سجال بيننا وبينك، وموعدنا

(١) سورة المائدة، الآية: ١١.

العام القابل، ونذر أبو سفيان ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا[1].

وأنفذت قريش وعيدها، وجاءت جبل أحد بثلاثة آلاف مقاتل، وهي ثلاثة أضعاف جيشها في بدر، ونزلت على مسيرة يوم من المدينة، فخرج إليهم المسلمون في ألف مقاتل، فهل من شك في أنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم ونسائهم ومدينتهم.

لا خلاف على ذلك، ولا أريد إطالة الحديث عن أحد فيما عدا ما يعنينا في هذا المقام، من أنها كانت من جانب المسلمين حربا دفاعية أيضا، وكانت من جانب قريش استمرارا لحالة الحرب المعلنة من قبل ضد المسلمين، ولكن أود أن أشير إلى أنه على الرغم من مخالفة بعض المسلمين لرغبة الرسول ﷺ في البقاء بالمدينة والتحصن فيها، إلا أنهم في أول المعركة انتصروا حتى أجلوا المشركين عن مواقعهم، ولكنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ ثانية، وغرت بعضهم الدنيا فأسرعوا إلى ميدان المعركة بعد أن انشمر عنه المشركون ليجمعوا الغنائم، ومنهم رماة النبل الذين أمرهم النبي ﷺ ألا يبرحوا مكانهم حتى يأمرهم مهما كانت نتيجة المعركة لنا أو علينا، فلما تركوا مكانهم طمعا في الغنائم، وكانوا بين فجوتين من الجبل علاهم خيالة قريش وأتوهم من الخلف ونادوا أصحابهم الذين انهزموا فعادوا، وانحصر جيش المسلمين بين قوتين معاديتين، فاستشهد منهم كثيرون، ونزلت آيات تعلمهم ألا يخالفوا أمر الرسول ﷺ أبدا، ولكنها على كل حال كانت درسا للمسلمين وعوه وما انهزموا بعده قط.

فغزوة بدر وغزوة أحد كانتا من جانب المسلمين حربا دفاعية عن النفس والمال والدين، والواقع أن أول حرب في الإسلام لم يوقدها المسلمون، بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوها، ولا أقول: إنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل

(١) الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ٢٥٧.

كانوا معلنيها عمليا، والمتسببين فيها من طريق مباشر، وما كان من المسلمين إلا أن قبلوا التحدي وردوا الاعتداء[1].

ليس لمكابر إذن أن يدعي أن النبي إنما حمل الإسلام لفرض عقيدته، والقرآن يقول: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[2]، وليس لهذا المكابر أن يدعي أن فكرة التوسع والتحكم في الخلق كانت مسيطرة على المسلمين والقرآن يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3]. ولكن أهداف حروبهم كانت واضحة ومحددة على نحو ما سبقت الإشارة إليه.

سرية قطن أو سرية أبي سلمة المخزومي

وقعت في غرة محرم الحرام من السنة الرابعة للهجرة، وسببها تأليب طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين لقومهما على المسلمين.

سرية عبد الله بن أنيس

حدثت في الخامس من محرم الحرام من السنة الرابعة للهجرة سمع عبد الله بأن سفيان الهذلي استنفر قومًا ضد المسلمين بعرفى، فوصل عليها وقتل بها أبا سفيان.

سرية الرجيع

في صفر من السنة الرابعة للهجرة، قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني عضل والقارة، وهما قبيلتان من بني الهون، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم في الدين، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت، وكان هؤلاء الرجال

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز: نظرات في الإسلام، ص ١١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.

غير صادقين في دعواهم، بل مأجورين لبني لحيان، فلما بلغت السرية الرجيع، أحسوا بالغدر، وقد خرج من بني هذيل نحو مائتين في طلبهم، فاضطر رجال السرية للجوء إلى جبل هناك والاستعداد للمقاومة، فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان، فاغتر بهم ثلاثة رجال، فلما صاروا في أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم حين شعر منهم بالغدر، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يثأر لقتلاه من مكة وهناك قتلا.

سرية بئر معونة

في صفر من السنة الرابعة، وفد على النبي ﷺ أبو عامر بن مالك من صناديد بني عامر، وكان يدعى لبطولته ملاعب الأسنة، فدعاه النبي ﷺ للإسلام، ولكنه لم يذعن ولم يبعد فقال للنبي ﷺ: إني أرى أمرك هذا حسنا، فلو بعثت معي رجالا إلى أهل نجد، فإني أتوقع أن يستجيبوا لهم. فقال له النبي ﷺ «**إني أخشى عليهم أهل نجد**». فقال ملاعب الأسنة: أنا لهم جار.

فأرسل النبي ﷺ سبعين من أصحابه اشتهروا بحفظ القرآن حتى أطلق عليهم لقب القراء، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة، ومنها بعثوا أحدهم حرام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل، فلما وصل إليهم لم يلتفت إلى الكتاب، ولكنه ثار على مقدمه وقتله، ثم استثار قومه على بقية إخوانه، فلم يقبل بنو عامر أن يخفروا ذمة ملاعب الأسنة، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بني رعل وذكوان وعصية، وهي قبائل من بني سليم، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوهم قتالا عنيفا، حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجا، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم؛ أي مع حيوانات سائمة لهم، فخلص من القتل.

فلما بلغ النبي ﷺ أمر هذه المجزرة حزن حزنا شديدا.

غزوة بني النضير

في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، تم إجلاؤهم لأنهم هموا بقتل الرسول ﷺ فهم كبني قينقاع الذين قلبوا ظهر المجن للمسلمين، فقد جروا على سنة سابقيهم، فحدثتهم أنفسهم أن يغتالوا النبي ﷺ.

وذلك بينما كان رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه في ديار بني النضير، تآمر رجال منهم إلى إلقاء صخرة عليه من مكان عال رغم ما بينهم من عهود ومواثيق فلما تبين رسول الله قصدهم رجع إلى المدينة، وأرسل محمد بن مسلمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب حيث يشاءون.

فتهيأ القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين، فأرسل إليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان، وأنهم وإياهم متكافلون في الحياة، وقد حكى القرآن ما قالوه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾[١].

---

(١) سورة الحشر، الآيات: ١١-١٧.

ولكن بنو النضير اطمأنوا إلى هذا الوعد، وتلكئوا عن الجلاء، فأمر النبي ﷺ بالتعبئة، فلما اجتمع العدد المطلوب خرج بهم، فلما بلغ بني النضير خبر خروجه دخلوا إلى حصونهم وامتنعوا فيها، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أبي، فلم يمدوا إليهم يدا بمساعدة، كما لم يفعل مع بني قينقاع من قبلهم.

فطلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آلة الحرب، فقبل النبي ﷺ ما طلبوه وخرجوا، فمنهم من نزل بخيبر، ومنهم من هاجر إلى الشام، وأسلم منهم اثنان.

غزوة ذات الرقاع

بلغ النبي ﷺ أن قبيلتين من قبائل نجد، وهما بنو محارب وبنو ثعلبة، تتهيأان لحرب المسلمين، فجرد من صحابته سبعمائة مقاتل، وخرج بهم لملاقاة عدوهم، وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى ديار القوم، فلم يجدوا بها رجالا، وذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا فارين بالجبال.

غزوة بدر الأخرى التي وعد بها أبو سفيان

كان أبو سفيان قد وعد اللقاء في بدر من العام المقبل، وقبل النبي ﷺ تحديه، ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفي بوعده، وخشي أن يتهم بالنكول فعمد إلى الحيلة، فكان ما حاكه أنه استأجر رجلا يقال له: نعيم بن مسعود، ليأتي المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة، ليكسر شوكة المسلمين، وينال من قواهم النفسية، لكن النبي ﷺ وصحابته لم يبالوا بهذا الكلام، وخرجوا إلى بدر فلم يجدوا أحدا؛ لأن أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه إلى بدر، وأرسل الرجل الذي استأجره للإرجاف، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه.

فقال لقومه: إن هذا عام مجدب، ولا يصلح للقتال غير عام معشب، هلموا للرجوع، وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قريشا وفت بتحديها، وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم.

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتحرون في سوقها الذي كان ينعقد في شعبان من كل سنة، فأصابوا خيرا كثيرا، وسجلوا على أعدائهم الخذلان، وقد حكى الله هذه الحادثة في الكتاب الكريم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ
أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ
يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾
وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾
ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ
أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن

يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1].

غزوة دومة الجندل

كانت هذه الغزوة في ربيع الأول من العام الخامس للهجرة، وسببها أن النبي ﷺ بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم، وأنهم يريدون الدنو من المدينة، وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة.

فأمر الرسول بتعبئة الجيش، فلما رأوا ذلك تفرقوا وكفى الله المؤمنين القتال.

غزوة بني المصطلق أو المريسيع

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبي ﷺ أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق يحشد الجيوش لمحاربة المسلمين، فلما عبأ النبي ﷺ جيشه وخرجوا لملاقاة العدو، ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم، فانتصر المسلمون وأسروا منهم خلقا كثيرا.

وكان من بين الأسرى برة بنت الحارث سيد بني المصطلق، فتزوجها رسول الله ﷺ، فلما رأى أصحابه أن بني المصطلق صاروا أصهار النبي ردوا ما أخذوه من الغنائم، وأطلقوا الأسرى؛ لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت إلى النبي ﷺ بسبب.

غزوة الخندق

بعد أن استقر النبي ﷺ في المدينة عقد مع اليهود معاهدة، فنقضها يهود بني

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٦٤-١٧٩.

قينقاع بعد غزوة بدر بأشهر، فحاربهم وأجلاهم عن المدينة، وبعد غزوة أحد نقض بنو النضير عهدهم كذلك فحاربهم المسلمون وأجلوهم أيضا عن المدينة، على نحو ما مر بيانه، فرجع زعيمهم حيي بن أخطب إلى قريش وغطفان، وأخذ يطوف على قبائل العرب بالجزيرة يؤلبهم على قتال المسلمين ويؤلف بينهم، ويحسن لهم أنهم إذا اجتمعوا على محمد وصحبه لأبادوهم عن آخرهم، فتحالفت القبائل من أهل الشرك على ذلك، وسارت جيوشهم إلى المدينة، ونزلوا بالقرب من جبل أحد أيضا، وبلغت عدتهم عشرة آلاف مقاتل، ورأى المسلمون أنهم قلة، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على الرسول ﷺ بحفر الخندق حول المدينة والتحصن به، ولم يكن للعرب سابق علم بحفر الخنادق كوسيلة من وسائل الدفاع، وكانت عدة جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل، وسميت هذه الوقعة بغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب.

وقد مر بنا أن حيي بن أخطب أتى يهود بني قريظة في حصونهم، وكانوا بأعلى المدينة أي في جنوبها، وخلف جيش المسلمين وحملهم على نقض عهدهم مع المسلمين، ولما علم بذلك المسلمون وهم في ميدان القتال شق عليهم، وفكر فريق منهم في العودة إلى المدينة، وأولئك هم المنافقون بقيادة عبد الله بن أبي ابن سلول بحجة أن بيوتهم عورة ومكشوفة في المدينة، وقد يدخلها بنو قريظة من الخلف.

وأراد النبي ﷺ أن يستوثق من نقض العهد، فأرسل إلى بني قريظة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فشتمهما اليهود وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد. وكانت فتنة كادت أن تعصف بالمسلمين ولكن الله سلم، وتدارك المؤمنين وأوقع الخلف بين الأحزاب، وأرسل عليهم الريح التي حملتهم على العودة إلى بلادهم، وانقلبوا إلى ديارهم يجرون أذيال الخيبة.

هكذا كفى الله المؤمنين القتال.

غزوة بني قريظة

ولما عاد الرسول ﷺ بعد الأحزاب أمر بالسير إلى يهود بني قريظة، فحاربهم وانتهى من أمرهم.

وليس ثمة من يكابر في أن حروب النبي ﷺ الثلاثة لليهود كانت مشروعة في لغة القانون الدولي الحاضر، فقد نقضوا العهد فئة بعد أخرى، واعتدوا على المسلمين، على الرغم من أن بنود الوثيقة التي أبرمها النبي ﷺ معهم حين قدم المدينة تنص على أن من كان عدوا للنبي ﷺ يكون عدوا لليهود، فلا يجار قرشي ولا من يناصر قريشا، فعلى اليهود ألا يوالوا المشركين؛ لأنهم أعداء النبي ﷺ، وذلك لأن الميثاق يجعل عدو أهل المدينة من المسلمين واليهود واحدا؛ ليكون الأمن للجميع واحدا، فمن هاجم فريقا من أهل المدينة فقد هاجم المدينة كلها، وذلك بلا ريب يلزم اليهود لأن الوثيقة أعطتهم حقوقا، وأوجبت عليهم واجبات، فإذا أخلوا بما يجب عليهم فقد أسقطوا ما لهم من حقوق.

وقد وفى المسلمون بذلك العهد؛ لأن الميثاق يوجب الوفاء من الجانبين، فإن أخلَّ أحدهما ذهبت الحقوق التي تضمنتها الوثيقة، وإذا كان الإخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية وهي موالاة اليهود للمشركين ضد المسلمين، فإنه بذلك تزول صفة الجوار، ويكون من الواجب على من ينكث العهد أن يترك هذا الجوار، ويتخلى عن الإقامة في المدينة، كما يحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها، فإن لم يفعل فله أن يحمي ظهره ولو بقتله؛ لأنه صار عدوا[1].

وقد حافظ الرسول ﷺ على نصوص الميثاق، ومد يده إلى اليهود مصافحا، وتحمل الأذى مسامحا، حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به ومحو دينه، استدار

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ القسم الثاني، ص ٦٧٤.

إليهم وجرت بينهم من الوقائع ما هو مسطور في كتب السير والتواريخ مما مر بيانه[1].

الإذن بقتال مشركي الجزيرة العربية كافة

كانت غزوة الخندق دليلا قاطعا على تحالف المشركين في الجزيرة العربية وأهل الكتاب من اليهود على القضاء على الإسلام والمسلمين، وقد أعلنوها حربا شاملة وجاءوا بجموعهم إلى المدينة فردهم الله عنها وكفى المؤمنين القتال، وكانت آيات القتال قبل ذلك إذنا من الله بمحاربة قريش ردا لعدوانها، أما بعد الخندق فتحتم أن يكون حرب المسلمين للمشركين في الجزيرة كافة جزاء ما ابتدءوا به من تحالف على الإسلام.

وقد أثبتت الحوادث التي قبل غزوة الخندق وبعدها أن منهم قوما مردوا على النفاق ونقض العهد وتأليب القبائل على حرب المسلمين، وهم اليهود، ومن مشركي الجزيرة من بدءوا بالعدوان، وهم قريش؛ طعنوا في الدين، وبدءوا المسلمين بالأذى والعدوان، وقبل ذلك الإخراج من مكة بعد الحصار، وبدءوا أول حرب ضد المسلمين، وها هي غطفان وقبائل قريش الأخرى بدءوا المسلمين بحرب الأحزاب، وتحالفوا مع قريش بعد أن كانوا تاركين الإسلام وشأنه وتاركين للنزاع بينه وبين قريش، فكانوا محايدين، أما وقد تركوا حيادهم وحالفوا مشركي الجزيرة على محاربة الإسلام وإبادة أنصاره وأصحاب رسالته، فأذن الله للمسلمين بمحاربة المشركين كافة بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

---

(١) الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة، ص ١٩٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

ويقول في آية أخرى أيضا مشيرا إلى اليهود الذين نكثوا عهدهم وطعنوا في دين الإسلام، ومشيرا إلى قريش الذين هموا بإخراج الرسول، ومنوها بتجمع الأحزاب وبدءوا المسلمين بالحرب: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

صلح الحديبية

حاصل ما ورد في هذا الصلح: أن النبي ﷺ خرج هو وصحابته الكرام في العام السادس من الهجرة قاصدين مكة للاعتمار ببيت الله الحرام، وكانت العرب منذ عهد إبراهيم عليه السلام لا يصدون أحدا عن البيت الحرام، حتى إن قريشا في الجاهلية وهم سدنة البيت لم يكن من دأبهم منع من طاف بالكعبة حتى ولو كان عريانا؛ لأن الذي وقر في النفوس أن الكعبة بيت الله لا يصد عنه أحد من عباد الله قاطبة.

وعلى ذلك لم يكن عزم النبي ﷺ وصحابته على العمرة فيه ما يؤذي قريشا أو يمسها بسوء أيا كانت الصلة القائمة بينهما ولو كانت حالة حرب، ولكنه ﷺ حرص على إبعاد الشبهة عن نفسه وصحابته فخرجوا بملابس الإحرام، وساق معه الهدي، ونهى أصحابه عن حمل السلاح سوى السيوف في القرب لدفع عادية وحوش الصحراء.

وسلخ الركب أياما منذ خروجه من المدينة، فعلمت قريش بمقدمه وما يبغي، ولكن أخذتهم النعرة الجاهلية فخالفوا ما ورثوه من القواعد التي تقضي بعدم صد مريدي البيت بالحج والعمرة وقالوا: لا يدخلن محمد علينا مكة فتظن العرب أنه دخلها علينا عنوة.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢، ١٣.

ولما كانت الحديبية هي الحد بين الحل والحرم، وهي على مسيرة ثمانية عشر ميلا من مكة، أناخ المسلمون عندها ليصلحوا من شأنهم، وليغتسلوا من بئر هناك ويصلوا ركعتين، فإذا بهم يجدون كفار قريش قد جمعوا جموعهم، وأجمعوا على أن يحاربوا المسلمين ويصدوهم عن المسجد الحرام، وجرت الرسل بين الفريقين، فقال النبي ﷺ لرسل قريش: «**إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله أمره**»[1].

ولما رجعت رسل قريش إليها استشار النبي ﷺ صحابته فيما يفعلون إن أبت قريش عليهم العمرة أو الهدنة، فقر قرارهم على أداء العمرة حتى ولو أدى ذلك إلى إجابة قريش فيما طلبت من حرب، وذلك على الرغم من أنهم لم يقدموا لحرب، وأنهم لم يحملوا معهم عتاد الحرب وعدتها اللهم إلا السيوف مع بعضهم، وبايعوا النبي ﷺ على ذلك وعلى الثبات في الحرب حتى الاستشهاد، وقد سجل القرآن الكريم خبر هذه البيعة فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[2].

ولذا سميت بيعة الرضوان، وبعثت قريش بكبير من سادتها مفوضا بالصلح مع محمد ﷺ على شروط معينة، وهو سهيل بن عمرو العامري، وجرت المفاوضات وتم الاتفاق شفاهة على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام ويعودوا من حيث أتوا إلى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٣/ ٢٥٦، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ٣/ ١٤١١ (١٧٨٥).

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.

العام القابل، حيث يسمح لهم بدخولها والاعتمار بالبيت الحرام والإقامة فيه أياما ثلاثة تخليها لهم قريش، وعلى ألا يحملوا معهم سوى سلاح الراكب السيوف في القرب، وعلى أن يتهادن الطرفان ويكفا عن الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويسمح لبقية القبائل أن ينحاز منها من يشاء إلى أي الفريقين، أي ينضم إليه كحليف تلزمه شروط الصلح، وكان النص على ذلك: أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وكان من بين الشروط شرط مجحف بالمسلمين يلزمهم ولا يلزم قريشا سيجيء ذكره والتعليق عليه.

فلما انتهت مفاوضات الصلح دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ليكتب المعاهدة، وأملى عليه أن يكتب: «**بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فلا أدري ما هو؟ اكتب: باسمك اللهم كما كنا نكتب. فهاج المسلمون وقالوا: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فأمر النبي ﷺ عليا أن يكتب: «**باسمك اللهم**».

واستمر يمليه ما يلي: «**هذا ما عاهد رسول الله**». فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. فقال النبي ﷺ «**اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو**».

وكان علي قد كتب الصيغة الأولى وأبى أن يمحوها، فطلب إليه الرسول ﷺ أن يدله على موضعها من الورقة، فمحاها بيده الشريفة ﷺ والمسلمون في ضجر شديد، فلما آن كتابة الشرط المجحف بالمسلمين تململ المسلمون ودخل عليهم أمر عظيم من هذا الشرط، أما الشرط فنصه: أن من خرج من مكة إلى قريش مسلما بغير إذن وليه وقصد محمدًا بالمدينة رده إليهم، وأن من جاء من المسلمين مكة مرتدا عن دينه لم يردوه إلى النبي.

وهنا تملك الغيظ بعض المسلمين؛ كسعد بن عبادة، وأسيد بن حضير، وعمر بن

الخطاب الذي قال للنبي ﷺ ألست برسول الله؟! قال: «بلى». قال: أولسنا بالمسلمين؟! قال: «بلى». قال: أوليسوا بالمشركين؟! قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فغضب لذلك أبو بكر وانتهر عمر وقال له: الزم غرزك يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن نخالف أمره.

أرأيت إلى أي حد يحض الإسلام على الصلح ويرغب فيه، ولو تضمن شروطا مجحفة ببعض حقوق المسلمين؟

ثم أرأيت كيف يحرص رسول الإسلام على السلام وتجنب الحرب في حقن الدماء، رغم أن الله قد وعده بالنصر؟ فهو يقبل أن يعود دون عمرة بعد رحلة استغرقت بضعة عشر يوما حين أجيب إلى ما اقترحه من هدنة، ويقبل أن يجرد اسمه من صفته كرسول الله، ويقبل عدم المعاملة بالمثل والحيف على المسلمين في الشرط.

ولما لج المسلمون في شروط الصلح بعد إبرامه، وسأل البعض النبي ﷺ عن السر في ذلك فقال: **«والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»**. ثم قال: **«أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني»**[(١)].

ومن أجلّ ما يذكر في هذا الصدد احترام المسلمين لعهودهم ولو كانت شفهية لم تكتب ولم توثق، فقد جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو وقت كتابة العقد، وكان قد أسلم فقيده أهله بالحديد وأذاقوه ألوان العذاب، فلما علم بمقدم المسلمين للعمرة ونزولهم بالحديبية هرب من سجنه ودخل على النبي ﷺ يرسف في قيوده وأغلاله وألقى بنفسه أمامه بعد أن أنهكه التعب، واستغاث بالمسلمين أن يلحقوه بهم، فما إن رآه والده سهيل بن عمرو، وهو مندوب في الصلح من قريش، حتى أخذ بتلابيب ابنه يرده إلى المشركين ويقول: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه، وأطالبك بإنفاذ شرطنا

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٩١٠).

عليك. فجعل أبو جندل ينادي في المسلمين ويستغيث بالمسلمين والكفار يجرونه فيقول: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فقال النبي ﷺ: **«يا أبا جندل، قد أخذ القوم علينا وأعطيناهم، وقد لجت القضية بيننا وبينهم، ولا يصح لنا الغدر ونقض العهد، اذهب فسيجعل الله لك ولأمثالك مخرجا»**(١).

وهكذا كان الحال بالنسبة لأبي بصير وغيره ممن أسلم من قريش وأتى المدينة، فردهم إلى من طلبهم من قريش، وقد دلت الأيام على بعد نظر النبي ﷺ فلم يرتد من المسلمين أحد ليلحق بقريش، أما من أسلم من قريش وأتى المدينة فرد عنها وسلم إلى من حضروا خلفه من قريش وفاء بالكلمة وتقديرا للعهد.

وما عقدت معاهدة الصلح حتى دخلت قبيلة خزاعة في عهد المسلمين وصارت حليفا لهم، وأصبح لها بذلك ما للمسلمين من حقوق وعليها ما عليهم من واجبات والتزامات نص عليها في العهد، كما دخلت قبيلة بكر في عهد قريش، وكلتا القبيلتين بجوار مكة، وكان بينهما ثأر وإحن وحروب، فالتزمتا بالهدنة لمدتها وهي عشر سنوات، وحدث بعد سنوات قليلة أن اعتدت بكر أحلاف قريش على خزاعة أحلاف المسلمين، وأمدت قريش حلفاءها بالسلاح والمال سرا، فأرسلت خزاعة إلى النبي ﷺ بالمدينة تخبره بنقض قريش للعهد وتستنصره على بكر وقريش، فكان ذلك سببا لإنهاء الهدنة.

ولما علم أبو سفيان بذلك ذهب إلى المدينة يطلب إلى النبي ﷺ تجديد العهد، فأعرض عنه النبي ﷺ، وكان ذلك كله سببا في فتح مكة على ما يأتي.

فتح مكة

نقضت قريش هدنة الحديبية كما مر بيانه، فعادت بذلك حالة الحرب التي كانت قائمة بين المسلمين وبين قريش، وكانت قريش هي التي بدأتها وأعلنته في مكة،

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٨.

وأكدتها بذهابها إلى المدينة حيث كانت غزوة بدر وأحد والخندق، فسار النبي ﷺ إلى مكة في عشرة آلاف مقاتل لم تر الجزيرة مثل عتادهم من قبل، حتى إنهم كانوا لا ترى منهم إلا الحدق «حدقات العيون».

وعلى الرغم من توكيد ربه له بالنصر في سورة الفتح، وعلى الرغم من أن الجيش كان على أحسن حال من التسلح والإيمان والرغبة في نيل الشهادة، إلا أن محمدا ﷺ الداعية إلى الإسلام كان يرجو ألا تقع بينه وبين قريش معركة يذهب ضحيتها الكثير من المشركين.

ونذكر في هذا المقام أن أحد قواد المسلمين في ذلك اليوم قال عندما اقترب الجيش الزاحف إلى مكة: اليوم يوم الملحمة. فسمعه النبي ﷺ فغضب من مقالته ورد عليه قائلا: «بل اليوم يوم المرحمة»[1].

ولم يتعجل الرسول ﷺ بدخول الجيش مكة، بل عسكر في خارجها وأمر من دعي إليه من أشرافها، ومنهم أبو سفيان بن حرب الذي أخذه العباس ليلا وصار يطوف به على فرق الجيش ليوقن أن النصر حليف المسلمين فيكف قومه عن الحرب.

وأمر رسول الله ﷺ بإبلاغ أبي سفيان وأهل مكة يوم الزحف بأنه لا يريد حربا، وإنما يريد أن يخلص بيت الله الحرام من الأوثان التي احتلته وأرجسته وقضت على الحنيفية دين إبراهيم، ونودي في أهل مكة أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن.

ودخل الرسول ﷺ مكة من غير حرب ودون أن يريق دما، دخلها من ثلاث جهات بثلاثة جيوش قادرة قاهرة، ولو كان يريد تشفيا وانتقاما كما يرجف المرجفون، لأمعن فيهم قتلا، ودخلها دخولا ما دخله أحد من قبله ولا من بعده.

(١) عيون الأثر ٢/ ١٩٠.

ودخل ﷺ وذقنه يمس قربوس سرجه خضوعا وشكرا لله الذي ألبسه ثوب هذا النصر والفتح المبين بغير حرب ولا قتال، حتى إذا أتى الكعبة أمر بما فيها وما حولها من الأصنام فكسرت، وعلا بلال ظهر الكعبة بأمر النبي ﷺ ليؤذن في الناس، ولما رفع صوته بالأذان أجابته القبائل ودخلوا في دين الله أفواجا، فاجتمع أهل مكة ممن كان في دار أبي سفيان، ومن كان مغلقا عليه بابه، وازدحم الحرم بهذا الجمع الجامع والحفل الحافل، وكلهم في وجل مما عسى أن ينزل بهم من عقاب جزاء ما قدمت أيديهم من أذى للمسلمين وقتل وضرب وحرمان وحصار وحرب دامت عشرين عاما، فوقف الرسول الكريم ﷺ يخطب في الناس ويقول: **«ما تظنون أني فاعل بكم؟»** قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

هكذا كانت نهاية الصراع؛ لم يفرض عليهم غرامات حرب كما يفعل القواد المنتصرون اليوم بحكم القانون الدولي، ولم يستول على أملاكهم، ولم يطالبهم بدية من قتلوا من المسلمين، فجاء اليوم كما قال: **«يوم المرحمة»**.

غزوة حنين وغطفان

أما غزوة حنين فسببها أن ثقيفا وهوازن وقبائل الطائف لما علموا بفتح مكة جمعوا جموعهم وقالوا: لقد فرغ محمد من قريش، ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا. فالتقى الجمعان في حنين بقرب مكة.

لقد كان للنصر العظيم الذي حققه الرسول بفتح مكة سلمًا، ودخول قريش الإسلام، أن أقض مضاجع القبائل المشركة القاطنة قرب مكة، ولا سيما هوازن في شمال شرقيها، وثقيف في جنوب شرقيها. فكان أن تحالفتا واتفقتا على تولية مالك بن عوف النصري قيادة الحملة الموجهة ضد المسلمين؛ للانقضاض على مكة وأخذها بغتة.

وسرعان ما تناهى إلى مسامع الرسول ﷺ من أرصاده ما يتم من حشود ضد القوى الإسلامية، فخرج هو للقائها بجيش بلغ اثني عشر ألف رجل، إذ انضم إليه ألفان من مسلمي مكة الجدد.. وتحركت القوات الإسلامية صوب الطائف، وعبرت طلائعه وادي حنين وخرجت إليهم، فانتصرت عليهم.

وأما غطفان فمر القول أنها كانت على حرب مع الرسول منذ غزوة الخندق، ولم يحصل بينهم وبين المسلمين هدنة كهدنة الحديبية، بل بقيت حالة الحرب قائمة، فلو بدأ الرسول ﷺ بغزوهم لحق له ذلك، ولكنه لم يفعل، ثم بلغه أن غطفان بعد الفتح جمعت جموعها مع بني ثعلبة وحارب بذي كتف، فسير إليهم جيشا هزمهم، ثم سار الجيش إلى نجد لما علم بحشد جيوشها.

هذا تقرير موجز عن غزوات الرسول ﷺ داخل الجزيرة بأسبابها، وخاتمتها، ونظرة المسلمين للمنهزم فيها، فهل بعد هذا يسوغ لمتقول أو مفتر أن يتهم الرسول وصحابته بأنهم قطاع طريق، أو نشروا الإسلام بحد السيف؟ أليست أسباب هذه اللقاءات الحربية كافية لأن تجعلها حربا شرعية من قبل المسلمين؟

اعتقد أن فقهاء القانون الدولي، وخبراء السياسات المعاصرة يرون أن مثل هذه الأسباب تكون كافية للحكم بشرعية الحرب الناتجة عنها.

هذا عن الحروب داخل جزيرة العرب، أما عن حروبه ﷺ خارج الجزيرة العربية فسببها تطاول الإمبراطوريات غير الإسلامية وأعوانهم من العرب بالتهجم على المسلمين، فكانوا أول من بدأ العدوان على ما يأتي تفصيله.

ففي جبهة الروم مثلا كان سبب الحروب معهم أن النبي ﷺ بعث وفدا من الدعاة المسلمين يعلمون من أسلم من القبائل العربية مبادئ الإسلام وأحكام الشريعة فوثبت عليهم جموع العرب الموالين للروم، فقتلتهم جميعا في مكان يسمى ذات الطلح، وكانوا خمسة عشر داعيا، واستطاع رئيسهم النجاة بأعجوبة.

كما تمكن أعرابي من قبيلة غسان من قتل رسول بعثه النبي ﷺ إلى الوالي الروماني على بُصْرى يدعوه إلى الإسلام، وأيضا أمر هرقل بقتل من آمن من أهل الشام ففتنوا الناس عن دينهم.

وقعة مؤتة

لم يكن أمام النبي ﷺ إزاء هذه الحوادث إلا أن يقوم بردع الروم وأشياعهم حتى لا يعاودوا مثل هذا التهجم على أتباع الإسلام، فأرسل النبي ﷺ حملة تأديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام، بيد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف للقاء هذه الكتيبة من المؤمنين المتحمسين، فجمعوا نحو مائتي ألف من رجالهم، فضلا عمن انضم إليهم من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلي.

وما عسى أن تصنع هذه الكتيبة الصغيرة أمام هذه الجموع المحتشدة ضدها، ولكن حرارة اليقين جعلت هذه القبيلة المتفانية تجازف بالاشتباك مع جيش يزيد عليها بما يقرب من سبعين مرة، فقتل قادتها الثلاثة على التعاقب؛ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة.

وأحس خالد بن الوليد أن قتالا مثل هذا غير مأمون العواقب، فاحتال للخلاص من هذا اللقاء للمحافظة على سلامة الجيش وسمعة المسلمين، فما زال يناوش الرومان حتى أفقدهم روح الهجوم، ثم انسحب قافلا إلى المدينة، وتسمى هذه المعركة وقعة مؤتة.

على أن هذه المعركة المحدودة قد أدت المقصود منها؛ فقد نظرت القبائل العربية المتاخمة للشام إلى أفعال المسلمين بإعجاب «وكان من ذلك أن أحد زعمائهم فروة بن عمرو الجذامي، وهو قائد فرقة من جيش الروم ما لبث أن أعلن إسلامه، فقبض عليه بأمر هرقل بتهمة الخيانة.. فقتل.

وكان من ذلك أيضا أن ازداد الإسلام انتشارا بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام، حيث كان سلطان الرومان في ذروته، وازداد في انضمام الناس للدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البيزنطية اضطرابا جعل أحد عمال هرقل وقد كلف أن يدفع للجيش رواتبه يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب: انسحبوا فالإمبراطور لا يجد ما يدفع رواتب جنده إلا بمشقة وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه»[1].

فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الإمبراطور وجنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نورا يهديهم إلى صدق حقيقته السامية التي يبشر الناس بها؛ لذلك اعتنق في هذه الفترة ألوف ممن سمع عن الإسلام، فكانت مؤتة سببا في استتباب الأمر للمسلمين في الشام.

«أفيرضى الرومان أن تتطور الأمور إلى هذا المصير؟!

لقد تضاعفت وساوس النصارى ونمت مخاوفهم، وزادهم حنقا أن يتحول تقهقر العرب في مؤتة إلى انتصار يستثير إعجاب الناس ويغريهم باعتناق الإسلام.

والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأي يخالف في الفروع التافهة، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها؛ لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط؟ وينكر عقيدة الفداء التي ترتكز عليها، لأنه يبني الجزاء على عمل الإنسان وحده، فليس للإنسان إلا ما سعى، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهية، فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه.

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها، وتضمن

(١) الدكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ٤١٦.

الكنيسة انفرادها بالضمير البشري، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده، ويدعو للصلاح والفلاح.

وتاريخ النصرانية كما سبقت الإشارة منذ تولت مقاليد الحكم يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت، فلم ير النبي ﷺ بدا من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبيت»[1].

وخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها، فانطلقوا صوب الشمال حيث تربض جيوش الروم، فلما وصلوا إلى تبوك أحس الروم أن هذا الجيش أقوى مما يطيقون لقاءه، فاختفوا داخل حدود الشام، وعسكر النبي ﷺ وصحابته بإزاء هذه الحدود أمدا يسيرا، ولم يفكروا في اجتيازها؛ لأنهم لم يخرجوا من بلادهم مهاجمين، فبقوا في أماكنهم قدر ما تشعر القبائل القاطنة بالحدود، وقدر ما يشعر النصارى أنفسهم أن المسلمين ليسوا ضحايا سهلة المنال.

وفي تبوك عقد النبي ﷺ معاهدات صلح وأمان مع طائفة من هذه القبائل، ثم قفل بعدها عائدا إلى المدينة.

«لو كانت لدى النصارى الروم نية خير تجاه الدين الجديد لوقفوا في الميدان مستندين إلى قواتهم الكثيفة، ثم فاوضوا المسلمين في عقد معاهدة متكافئة تحفظ لكلا الدينين كرامته، وتتيح الحرية لمن يشاء أن يعتنق أي الديانتين أحب.

لكن هل عرف هذا الاتجاه في تاريخ الكنيسة قط حتى يطمع في مثله؟

إن الروم لا يجول بخلدهم أن يعترفوا بهذا الدين، وأن يعطوه مكانا مساويا بعقيدتهم، بل أن يوقروا صاحبه أو يكرموا أتباعه.

---

(١) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ١٣٩.

إنهم تراجعوا وراء حدودهم، كما تكمن الحية في جحرها تنتظر الفرصة السانحة للدغة قاتلة، حتى إذا كر المسلمون عائدين إلى قلب الجزيرة قاطعين ألوف الأميال، ظهرت القوات المختفية تنشر الفزع من جديد، ولذلك ما إن عاد المسلمون حتى جاء هرقل فأمر بقتل يوحنا بن رؤبة أمير أيلة، ثم صلبه أمام قريته؛ لأنه رضي بعقد صلح مع المسلمين.

فلا غرو أن يفكر النبي ﷺ بعد وصوله إلى المدينة في ضرورة إرساء علاقته بالنصارى الروم على قواعد ثابتة تكسر شدة هذا الطغيان المتكرر، فاستقر رأيه ﷺ على مناجزة الروم حتى يضطرهم إلى معاهدة تبيح حرية التدين، يبقى بها المسلم مسلما والنصراني نصرانيا متى شاء، وفي سبيل هذه الغاية أمر ﷺ بالاستعداد لقتال الروم، وكون جيشا بقيادة أسامة بن زيد، جمع فيه خير رجاله، بيد أن المنية عاجلته قبل مسير الجيش، فذهب إلى الرفيق الأعلى أصبر ما يكون على الحق، وأسمح ما يكون بالنفس والنفيس لتفديته وإعلاء كلمته»[1].

فأي حرج على المسلمين أن يستظهروا بالقوة لإقامة عوج المتكبرين والمتعصبين الذين احتكروا حق الحياة لدينهم في الماضي، ويريدون احتكاره في المستقبل كذلك؟

فهل كان هذا الخروج بهذه الملابسات بطرا ورئاء الناس، أم كان تحقيقا للأهداف التي تنشدها الأمم الحرة والتي داسها الأقوياء المتناحرون على استرقاق البشر من الفرس والروم، ومن أمثالهم في كل زمان؟

هل كان من الممكن أن تعالج الأمور مع مثل هؤلاء بالسلم؟ كلا، إن التمسك بالسلم في هذه الحالة خطوة إلى الفناء، ورضا بالذبح، وجريمة في حق الأجيال اللاحقة.

(١) الشيخ محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ١٤٢.

هل يليق أن يسكت المسلمون على الضيم؟ إن السكوت في هذه الحالة تدمير لهم ولدينهم معهم، لا بد إذن من كفاح ودفاع يحفظ الدين والكرامة معا، وينشر العدل والحرية بين الناس أجمعين.

ونريد أن نتساءل: لماذا يتحول الحق المغتصب إلى حق مكتسب تقوم له حرمة وتصان له حدود، ويسمى التعرض له عدوانا؟

لا نشك أنه كانت ضرورة لازمة لخروج المسلمين في هذه الحرب الشعواء، وإنما يحمل أوزارها من بغى لا من نهض ليؤدب البغاة والمعتدين.

إن المؤرخ المنصف عليه أن يستقصي أسباب الحرب قبل أن يحكم بشرعيتها أو عدم شرعيتها.

هكذا في جميع حروب النبي ﷺ ما ذكرنا وما لم نذكره، كانت الحرب من قبل المسلمين مشروعة، تبيحها أي شريعة وأي نظام.

٢

الفصل الثاني

أخلاقيات اللقاء المسلح
في السيرة النبوية

الفصل الثاني

أخلاقيات اللقاء المسلح في السيرة النبوية

قد يضطر المسلمون إلى الدخول في لقاء مسلح مع غيرهم، فإذا أصبحت العلاقة علاقة حرب، فالإسلام لا يعتدي على أحد امتثالا لأمر الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1].

ففي القتال بصفة عامة يوجه الله المسلمين إلى عدم الاعتداء، ويربط هذا بحب الله وكرهه[2].

فمهمة المسلمين كما مر بيانه هي:

١- إعلاء كلمة الله وتبليغ دينه، ودعوة الناس إليه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

٢- نصر المظلومين.

٣- رد العدوان وحفظ السلام وحماية عقيدة التوحيد.

فالمسلمون مكلفون من قبل الله عز وجل بذلك على نحو ما سبقت الإشارة، وبهذه الأغراض والبواعث انطلق النبي ﷺ وصحابته الكرام ينشرون دين التوحيد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٣٨٨.

والإيمان، فلم يكن قتاله ﷺ للتنكيل أو التعذيب، بل لهداية العباد إلى ربهم.

ولكن كيف يكون قتال رسول الله ﷺ، وقتال صحابته الكرام؟ وكيف كان تعامله ﷺ مع غير المسلمين الذين أصبحوا في حرب معه ﷺ؟ هذا ما سنتناوله إن شاء الله تعالى.

أخلاقيات القتال وآدابه كما شرعها النبي ﷺ:

لم يكن قتال النبي ﷺ خبط عشواء، بل كان على أساس وهدف، كان قتالا له بواعث وله غايات على نحو ما سبقت الإشارة إليه، ومن خلال سيرة النبي ﷺ العسكرية نستطيع أن نحدد بعض المبادئ التي سنها النبي ﷺ في قتاله مع غير المسلمين على النحو التالي:

١- الرغبة في الحلول السلمية تفاديا للقتال وإزهاق الأرواح:

لقد كان النبي ﷺ حريصا كل الحرص على أن يعلن السلم حتى في ميدان القتال الذي يمكن أن يبرز فيه الإنسان أخطاءه؛ لأنه ﷺ يقاتل رحمة بمن يقاتلهم، أليس يريد هدايتهم؟ لذا كانت وصيته ﷺ لجيشه عند خروجه ما أوصى به علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا، خير من أن يكون لك حمر النعم»**(١).

وهكذا نرى نية السلم قائمة حتى عند تلاقي الجيوش في ساحة القتال، بل تتجلى صورة السلم والرحمة المحمدية في أرقى صورة حين يوصي رسول الله ﷺ أمراء الجيوش فيقول: **«تألفوا الناس ولا تغيروا على حي حتى تدعوهم إلى الإسلام، فوالذي**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل ٤/ ٧٣، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل من فضائل علي بن أبي طالب ٤/ ١٨٧٢ (٢٤٠٦).

نفس محمد بيده، ما من أهل بيت من وبر ولا مدر تأتوني بهم مسلمين، إلا أحب إلي من أن تأتوني بنسائهم وأبنائهم وتقتلون رجالهم»[1].

هكذا كان يفعل النبي ﷺ مع من أراد أن ينازله في ميدان القتال.

بل إن الرغبة في السلم حتى آخر لحظة تفاديا للقتال كانت نهجا انتهجه النبي ﷺ مع محاربيه، فمن يظن أن المسلمين متعطشين لإراقة الدماء فهو مخطئ، بل متحامل جريء لا سند لكلامه.

إن الإسلام ليرغب دائما في حل النزاعات سلمًا لا حربًا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾[2].

وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في السيرة النبوية ففي غزوة بدر، عندما تراءى الجمعان نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وقال: «**إن يكن في القوم أحد يأمر بخير، فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر**»[3].

فمن كان صاحب الجمل الأحمر؟ وما هو الخير الذي كان يأمر به؟

لم يكن صاحب الجمل الأحمر سوى عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال ويقول لهم: يا قوم، إني أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، ولقد علمتم أني لست بأجبنكم.

فالنبي ﷺ يعتبر الإحجام عن القتال ورجوع قريش عنه من الخير. وهذا أمر إن دل، فإنما يدل على الرغبة في السلام حتى قبيل بدأ المعركة، لكن شريطة أن يكون سلامًا عادلًا.

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (٦٣٥).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ١١٧.

بل روي ما يدل على أنه ﷺ كان حريصًا على منع القتال حتى بعد أخذ الأهبة له، فهو يقول لمعاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن قائدًا: **«لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلًا، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا من سبيل؟ فلأن يهدي الله على يديك رجلًا واحدًا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت».**

فهذا هو نهج الإسلام، فالإسلام كان ولا يزال دين الأمن والسلام ولم يكن في وقت من الأوقات دين حرب أو مشاحنة وبغضاء، إنما كان يهدف أولا وقبل كل شيء إلى السلام، بل إنه في لفظه مشتق من مادة واحدة مع السلام.

وقد قامت دعوى بعض المستشرقين على أن الإسلام انتشر بحد السيف، ولكن الواقع أن الإسلام لم يكن في وقت من الأوقات يستخدم السيف للتحكم في رقاب الضعفاء، أو التسلط على أعناق الأبرياء إنما كان السيف وسيلة لنشر الدعوة التي كُلِّف بها المسلمون من قِبَل الله عز وجل، ولكنه مع هذا بين للمؤمنين عدم ضرورة القتال إذا لم يكن هناك ضرورة، فقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ ﴾(1).

فالمسلم لا يحارب إلا مكرها على القتال بعد استنفاد وسائل المسالمة جميعا، وحين تلوح بارقة أمل في السلم يوجب عليه الإسلام أن ينتهزها، وألا يدع الفرصة تفلت من يده، وعليه أن يعمل على إطفاء نار الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وقد روي عن الحارث بن مسلم عن أبيه قال: بعثنا رسول الله في سرية فلما بلغنا المغار - أي مكان المغارة - استحثثت فرسي فسبقت أصحابي، فتلقاني أهل الحي بالرنين فقلت لهم: قولوا: لا إله إلا الله. تحرزوا. فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا:

---

(1) سورة النساء، الآية: ٩٠.

حرمتنا الغنيمة. فلما قدمنا على رسول الله، أخبروه بالذي صنعت، فدعاني فحسّن لي ما صنعت، ثم قال لي: «**أما إن الله قد كتب لك من كل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر**». وقال: «**أما إني سأكتب لك بالوصاة بعدي**». ففعل وختم عليه ودفعه إلي[1].

٢- الدعوة قبل بدء القتال:

إذا فشلت مساعي السلم بين المسلمين وغيرهم وأصبح لا مناص من اللقاء المسلح، فلا بد إذن أن يعلن المسلمون غيرهم بذلك، ولا بد من دعوتهم إلى هذا الدين الحنيف؛ فلم يكن ﷺ يهاجم عدوا أو يقاتله حتى يدعوه ويبين له الحق، وقد اشتملت وصايا رسول الله ﷺ لأمراء الأجناد على هذا المبدأ، فمنها كما يقول بريدة: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «**اغزوا في سبيل الله... وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...**»[2].

فإذا لم تبلغ الدعوة قوما فلا يحل قتالهم، ويؤكد ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[3].

قال ابن عباس رضي الله عنه: ما قاتل رسول الله ﷺ قوما حتى دعاهم إلى الإسلام[4].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ٤/ ٣٢١ (٥٠٨٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ٣/ ١٣٥٦ - ١٣٥٨ (١٧٣١)، والترمذي في سننه، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال ٤/ ١٣٨، ١٣٩ (١٦١٤٧).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٠٧.

وكان سلمان الفارسي رضي الله عنه أميرا على جيش من جيوش المسلمين، فحاصروا قصرا من قصور فارس فقالوا: يا أبا عبد الله، ألا ننهد إليهم؟ قال: دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله ﷺ يدعوهم[(١)].

وقد كان النبي ﷺ ينهى عن القتال إذا وجد في البلدة مسجدا، أو سمع مؤذنا فقال ﷺ: «**إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا**»[(٢)].

بل إن رسول الله ﷺ أرسل سرية فأغارت على حي من العرب فسبوا مقاتلهم وذريتهم، فأخبروا النبي ﷺ أن السرية التي بعثها قد أغارت عليهم بغير دعاء، فسأل النبي ﷺ أهل السرية فصدقوهم، فقال ﷺ: «**ردوهم إلى مأمنهم، ثم ادعوهم**»[(٣)].

وهذا كله إذا كان غير المسلمين لم تبلغهم الدعوة، أما إذا بلغتهم الدعوة، أصبحت العلاقة بينهم وبين المسلمين علاقة حرب، فحينئذ للمسلمين أن يتخذوا الإجراءات اللازمة لحماية دعوتهم وعرضها، كما يجوز لهم أيضا تبييت الأعداء وهم غارّون؛ لأن رسول الله ﷺ قد أغار على بني المصطلق وهم غارون[(٤)].

وذلك على حسب ما يقتضيه حال الجيش المسلم، فربما لا يقوون على العدو إذا قدموا الإنذار، كما أنه في الإغارة عليهم وهم غارون مصلحة كبيرة في تقليل أعداد

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الدعوة قبل القتال ٣/ ١٠٢ (١٥٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الدعوة قبل القتال ٣/ ١٠٢ (١٥٤٩).

(٣) بغية الباحث (٦٣٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية ٣/ ٩٤، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غير تقديم الإعلام بالإغارة ٣/ ١٣٥٦ (١٧٣٠).

القتلى منهم، إذ لو كان العدو على أهبة الاستعداد، فسيكون القتال داميا يكثر فيه القتال من الطرفين.

وكذلك أمر النبي ﷺ الجيش أن يغير على أبنى صباحا وقال له: **«فإن أسلموا فاقبلوا منهم»**[1].

٣- الوفاء بالعهد حتى في الحرب:

إن الوفاء بالعهد خلق أصيل من أخلاق الإسلام لا مساومة عليه في سلم أو حرب، حتى إن البعض يمكن أن يرى في ذلك نوعا من المبالغة، وقد يراه البعض الآخر سذاجة، خاصة في مجال الحرب، لكن الإسلام لا يرى في ذلك إلا إعلاء لقيمة الخلق على كل قيمة.

وهناك الكثير من الحوادث التي التزم النبي ﷺ فيها بالوفاء بالعهد مع أعدائه حتى في حالة الحرب بينه وبينهم.

فمن ذلك ما ورد عن حذيفة رضي الله عنه قال: ما منعنا أن نشهد بدرا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدا. فقلنا: ما نريده، إنما نريد المدينة. فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة، ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم، فما ترى؟ فقال: **«نستعين الله عليهم، ونفي بعهدهم»**.

فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرا[2].

إن النهج الذي سلكه النبي ﷺ في حروبه ومعاهداته مع غير المسلمين كان دائما

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٦/ ١١٨ (٢١٧٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالوعد ٣/ ١٤١٤ (١٧٨٧).

مؤسسا على الوفاء بالوعد ونبذ التحلل من العهد، فهي حرب نبوية شريفة، وتقاتل في سبيل تحقيق غاية شريفة وهي رد الناس إلى ربهم، فلا ينبغي أن تسلك المسالك الخسيسة والصغيرة، وقد بين النبي ﷺ أن خيار الناس من يوفي بعهده فقال: «**خياركم الموفون المطيبون**»[1].

ولم يؤثر عن النبي ﷺ أنه نقض عهدا أبرمه، أو أنه لم يلتزم بما وعده لمسلم أو لغير مسلم.

فالنبي ﷺ قد التزم بالوفاء بعهوده في ظروف قد لا يلام عليها أحد إذا خاس بالعهد في هذه الظروف، ولم يشن حروبا بنية الثأر أو الانتقام، فلم نسمع أن النبي ﷺ في حروبه رفع شعارًا يذكر المسلمين فيه بالثأر لإخوانهم الذين قتلوا في أي معركة، بل على العكس من ذلك نراه بعد حادثة بئر معونة يقرر أن الثأر ليس من أخلاق حرب المسلمين، فإن عمرو بن أمية الضمري وقع أسيرًا في بئر معونة، ولما علم عامر بن الطفيل أنه من مضر أطلقه، فلما خرج عمرو قاصدًا المدينة أقبل رجلان من بني عامر، حتى نزلا معه في ظل هو فيه وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا، ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر. فأمهلهما، حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «**لقد قتلت قتيلين لأدينهما**»[2].

«وهذا موقف رفيع فقد وَدَى ﷺ ذينك الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى؛ لكونهما يحملان عقدا منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٢/ ٣١٨ (١٠٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٨٥.

قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزاء من الانتقام الذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟

إن التوجيهات الإسلامية الرفيعة دفعت بالمسلمين ونبيهم ﷺ إلى الرقي الأخلاقي الذي لا نظير له في دنيا الناس»[1].

فالمسلمون إذا خاضوا حربا مع أحد يكون لهم أخلاقيات تحكمهم، وليس الأمر متروكا للهمجية والعبث، ثم مع أول فرصة تسنح للسلم -ما دام سلمًا سيحقن الدماء- يسرع المسلمون لاقتناص الفرصة، وعند الاتفاق وبمجرد توقيع المعاهدة، يكون الطرف الإسلامي هو أول من يلتزم بهذه المعاهدة.

ففي صلح الحديبية علَّمنا رسول الله هذا الدرس، درس الوفاء بالكلمة سواء كتبت أو لم تكتب، وسواء كانت في سلم أو حرب أو صلح.

فقد كان من بين بنود هذا الصلح، أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

فبينما الناس على ذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، وكان أبوه سهيل قد أوثقه في الحديد وسجنه، فخرج من السجن واجتنب الطريق وركب الجبال حتى أتى الحديبية، فقام إليه المسلمون يرحبون به ويهنئونه، فلما رآه أبوه سهيل قام إليه فضرب وجهه بغصن شوك وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه؛ أن ترده. فقال رسول الله ﷺ: **«إنا لم نقض الكتاب بعد»**. قال: فوالله إذن لا أصالحك على شيء أبدا. قال: **«فأجزه**

(١) الأستاذ علي الصلابي: السيرة النبوية ٢/ ٢٢٧.

لي». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «**بلى فافعل**». قال: ما أنا بفاعل. فقال مكرز وحويطب: بلى قد أجزناه لك. فأخذاه فأدخلاه فسطاطا فأجازاه، وكف عنه أبوه.

فقال أبو جندل: أي معاشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابا شديدا، فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا، وإنا لا نغدر**»[1].

إن المعاهدة في الاسم تعتبر نافذة المفعول بمجرد الاتفاق على المعاهدة وشروطها حتى لو لم تكتب ولم يوقع عليها الطرفان، فمنذ أعلن رسول الله ﷺ التزامه بهذا الشرط أجراه، ولو لم تكن المعاهدة قد كتبت بعد، ولم يوقع عليها الطرفان.

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث، لاحترام كلمة لم تكتب، واحترام كلمة كتبت كذلك وأبرز الجد في عهوده، وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه للتحايل والالتواء والكيد.

ولقد أسس القرآن الكريم هذا المبدأ السديد، وحث المسلمين على الأخذ به، فقرر أن الوفاء بالعهد قوة في ذاته والنكث في العهود من أسباب الضعف، وقرر سبحانه وتعالى أنه لا يصح أن تكون الرغبة في زيادة رقعة الدولة أو زيادة قوتها مسوغا للغدر[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٣٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٢٧، وانظر: سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٨.

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٢٧١.

فقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1].

فقد شبه الله الذي ينقض العهد بالتي تغزل غزلها ثم تنقضه بعد أن قوي بالفتل، وبين تعالى أنه لا يصح أن تكون أمة أربى من أمة، فإن القوة التي تكون من نقض العهود مآلها الزوال[2].

وذم الله الخائنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وقد ربط الله الوفاء بالعهد بالتقوى حين قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[4].

«ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى. ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق. فليس هو مسألة مصلحة. إنما هو مسألة تعامل مع الله أبدًا دونما نظر إلى من يتعامل معهم. وهذه هي نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة في الوفاء بالعهد وفي سواه من الأخلاق؛ التعامل هو أولًا تعامل مع الله، يلحظ فيه جناب الله، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه. ومن ثم يجعل الذين يخيسون بالعهد ويغدرون بالأمانة: ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[5]. فالعلاقة في هذا بينهم وبين الله

(١) سورة النحل، الآيتان: ٩١، ٩٢.
(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٢٧١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٣٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

قبل أن تكون بينهم وبين الناس»[1].

ولذلك أمر الله المسلمين أن يتموا عهد المشركين الذين لم ينقصوهم شيئا ولم يظاهروا عليهم إلى مدتهم، معلقا ذلك بالتقوى قائلا: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[2].

لقد كان فريق من أهل الكتاب يوفون بعهدهم إلى أهل ملتهم، ولكنهم لا يرون الوفاء واجبا بعهودهم مع المسلمين، وكانوا يقولون: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ ﴾[3].

فجاء القرآن الكريم ناعيا عليهم هذا التفريق مستنكرا هذا الفعل الأثيم، مبينا أن الوفاء بالعهد واجب إنساني كبير لا سبيل إلى التخلص منه أو الابتعاد عنه، فقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[4].

فالوفاء بالعهود من المبادئ التي أسسها النبي ﷺ، وأوجبها القرآن الكريم على المسلمين، وعلى ذلك سار أتباع النبي ﷺ، فقد كان بين معاوية رضي الله عنه وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم، فلما انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجل على فرس يقول: الله أكبر وفاء ولا غدر. وإذا هو عمر بن عبسة، فسأله معاوية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»**. فرجع معاوية[5].

---

(١) الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٤١٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه ٣/ ٨٣ (٢٧٥٩)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٣١.

على أن هذا الوفاء مشروط بصيانة غير المسلمين لهذه العهود من النكث، مع إعطاء هذه العهود الاحترام الكامل والجدية الحقيقية، فأما إذا اتخذ غير المسلمين هذه العهود ستارا يدبرون من ورائه الخيانة والغدر، ويستعدون لمباغتة المسلمين، فإن للمسلمين أن ينبذوا هذه العهود ويعلنوا غير المسلمين بهذا النبذ ويستعدون لضربهم، على أن تكون هذه الضربة من العنف والشدة بحيث ترهب كل من يحدث نفسه بالتعرض للمجتمع المسلم سرا وجهرا، أما الذين يسالمون المسلمين ولا يريدون التعرض للدعوة الإسلامية، أو يحولون دون وصولها إلى كل مسمع، فإن للمسلمين أن يوادعوهم ما دام ظاهرهم يدل على أنهم يجنحون إلى السلم[1].

وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾[2].

وهكذا «لم يجعل الإسلام وفاء المعاهدين بعهودهم تدبيرا من تدبيرات السياسة، أو ضرورة من ضروراتها التي تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها، بل جعله أمانة من أمانات العقل والضمير، وخلقا شريفا يكاد الخارج عليه أن يخرج من آدميته،

(١) الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣٩.

(٢) سورة الأنفال، الآيات: ٥٥-٦١.

ويسلك في عداد السائمة التي لا ملام عليها»[1].

«إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر؛ ولم يغش ولم يخدع؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان.. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة.. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ؛ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم.. فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة، لأن كل خصم قد أخذ حذره؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به، إنما هو غافل ! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!»[2].

٤- وجوب الأمانة ولو مع العدو:

ولاتساع دائرة الأمن والأمان في مظلة الإسلام أرشد النبي الكريم ﷺ إلى وجوب اتباع الأمانة حتى مع الأعداء، ففي غزوة خيبر جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ، فأقبل بغنمه حتى عهد لرسول الله ﷺ، فلما جاءه قال: ماذا تقول؟ وماذا تدعو إليه؟ قال: **«أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني محمد رسول الله، وأن لا تعبد إلا الله»**. قال العبد: فماذا إليَّ إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال: **«لك الجنة إن مت على ذلك»**. فأسلم، قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، قال رسول الله ﷺ: **«أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك»**. ففعل فرجعت الغنم إلى

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١٧٤.
(٢) الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ٣/ ١٥٤٢.

سيدها، فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم[1].

هكذا لم يقل النبي ﷺ إنها غنيمة للمسلمين، ولم يضمها إليه لأن الأمانة يجب أن تراعى لذاتها، لا فرق فيها بين عدو محارب وولي نصير.

٥- احترام الكرامة الإنسانية حتى في ميدان القتال:

إن الرسول ﷺ وصحابته الكرام كانوا رجالا تحكمهم أخلاق فاضلة، وتضبط سلوكهم شريعة واضحة، فليست الحرب عندهم لذات الحرب، بل هي لإعلاء كلمة الله وكسر شوكة المشركين وإعزاز الدين، حرب تتسم بالتأليف لا بالتقتيل، وبالمحافظة على الأنفس لا باستباحتها؛ ولذلك كانت وصايا رسول الله ﷺ تصدر دائما على أساس احترام كرامة الإنسان في المعركة، فما دام المراد كسر شوكة الكفر فلا يحل بعد ذلك وراء القتل من مُثلة وغيرها، فقد كان ﷺ ينهى أصحابه عن المثلة[2].

ويقول يعلى بن مرة: سافرت مع رسول الله -ﷺ- غير مرة فما رأيته يمر بجيفة إنسان فيجاوزها حتى يأمر بدفنها لا يسأل مسلم هو أو كافر[3]؟

بل إن رسول الله ﷺ يحذر صحابته الكرام ويوضح لهم أن المثلة ليست من فعل أهل الإيمان فيقول ﷺ: **«أعف الناس قتلة أهل الإيمان»**[4]. أي: أكفهم وأرحمهم من لا يتعدى في هيئة القتل التي لا يحل فعلها من تشويه المقتول وإطالة تعذيبه[5].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٢٢٠.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب النهي عن المثلة ٣/ ٥٣(٣٦٦٧).
(٣) أخرجه الدارقطني في سننه ١/ ٢٥، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٤/ ٤٠٤ (١٣٩٧).
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب النهي عن المثلة ٣/ ٥٣(٢٦٦٦).
(٥) عون المعبود ٧/ ٢٣٥.

ومن مشهور كلامه ﷺ في وصايا أمراء الأجناد كما في حديث بريدة: **«اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا...»**[(١)].

وهذا فيض من رحمات رسول الله ﷺ الذي حرم المثلة ولو بالكلب العقور[(٢)].

ولذلك لما أُتي أبو بكر الصديق رضي الله عنه برأس، نهر جنوده قائلا لهم: بغيتم[(٣)].

بل من فيض رحمته ﷺ احترامه لجثة الإنسان ولو كان كافرا، فقد أمر ﷺ بدفن جثث المشركين، ولم يتركها نهبا للوحوش والسباع تتخطفهم، بل أمر ﷺ بوضع جثث القتلى من قريش في القليب وهي بئر جافة[(٤)].

ومن دلائل إحسانه ﷺ لقتلى غير المسلمين، ما قاله لبلال رضي الله عنه حين أتاه بامرأتين إحداهما صفية بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين رضي الله عنها وقد مر بهما على مصارع قومهما، فقال له الرحمة المهداة ﷺ: **«أنزعت منك الرحمة يا بلال؛ حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»**[(٥)].

فليس معنى أن وقع أحد في يد المسلمين، سواء كان أسيرا أو قتيلا، أنه مباح لا كرامة له، ولكن ينبغي مراعاة آدميته، وهذا ما حدث مع سهيل بن عمرو بعد وقوعه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ٣/ ١٣٥٦، ١٣٥٨ (١٧٣١)، والترمذي في سننه، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال ٤/ ١٣٨، ١٣٩ (١٦١٤٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١/ ٥٨ (١٦٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٠٦ (٧٩٠١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئا من الأذى ٢/ ١٥٤.

(٥) تاريخ ابن جرير الطبري ٣/ ١٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٢٢١.

في الأسر بعد بدر، فقد روي أنه لما أسر سهيل بن عمرو، قال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيته يدلع لسانه، فلا يقوم خطيبا أبدا. وكان سهيل أعلم من شفته، فقال رسول الله ﷺ: **«لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبيا...»**[1].

«بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه كما يحمي أبناءه وأولياءه... إنه يحمي أعداءه في حياتهم، ويحميهم بعد موتهم، يحميهم في حياتهم فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان، ويحميهم في ميدان القتال نفسه؛ إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال، ثم يحميهم بعد موتهم إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل»[2].

وحتى المواقف الإنسانية التي تتصل بالأمور الشخصية والتي لا نجد لها مكانًا في حروب الناس، نجد لها في سيرة الرسول ﷺ أمثلة فذة، ففي أي مكان أو أي حرب يهتم المحارب بستر عورة عدوه أو كشفها؟ إنها الحرب، ولا مجال لهذا الترف الأخلاقي.

هذا كلام قد يقال في حروب غير المسلمين، أما حروب المسلمين فهناك الأمثلة المشرفة التي تجعل المسلم يشعر بالإعزاز؛ ففي غزوة أحد وقبل بدأ المعركة واشتباك الفريقين، كانت عادة العرب أن يقوم شجعان الفريقين بطلب النزال والمبارزة، ثم إن طلحة بن عثمان، صاحب لواء المشركين، قام فقال: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجِّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجِّلكم بسيوفنا إلى الجنة ! فهل منكم أحد يعجِّله الله بسيفي إلى الجنة ! أو يعجِّلني بسيفه إلى النار؟ فقام إليه علي بن أبي طالب، فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى يعجِّلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجِّلني

(١) أخرجه الواقدي في المغازي ١/ ١٠٧.
(٢) الدكتور محمد عبد الله دراز: نظرات في الإسلام، ص ١٦٤.

بسيفك إلى الجنة ! فضربه عليٌّ فقطع رجلَه، فسقط، فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم، ابنَ عم ! فتركه. فكبّر رسول الله ﷺ، وسأل عليّا أصحابه: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إنّ ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه[1].

بل من فيض احترام النبي ﷺ لكرامة الإنسان يدعو من يقاتل من جنود المسلمين أن يجتنب وجه من يقاتله فيقول ﷺ: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليتق الوجه»[2].

٦- المعاملة بالمثل والتمسك بالفضائل الخُلقية وإن انتهكها العدو:

في ساحة القتال قد تثور الأعصاب ويعزب الصبر، خاصة عندما يرى أن العدو يتعامل بمستوى لا يمكن وصفه بالإنسانية، وساعتها قد يخرج المسلم عن شعوره، وينسى كل شيء، وقد يفعل ما عسى أن يكون فيه انتقام، لكن الإسلام لا يمكن أن يقر هذا الأمر فالحرب للفضيلة، ولا مناص من ذلك ما دمنا مسلمين.

فقد روي أن النبي ﷺ نظر يوم أحد إلى حمزة وقد قتل ومُثِّل به، فرأى منظرا لم ير منظرا قط أوجع لقلبه منه ولا أوجل فقال: «**رحمة الله عليك، قد كنت وصولا للرحم، فعولا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تجيء من أفواه شتى**». ثم حلف وهو واقف مكانه: «**والله لأمثلنَّ بسبعين منهم مكانك**». فنزل القرآن وهو واقف في مكانه لم يبرح: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[3] حتى ختم السورة، وكفَّر رسول الله ﷺ عن يمينه وأمسك عما أراد[4].

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ٢/ ١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه (٢٥٥٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه ٤/ ٢٠١٦ (٢٦١٢).

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

(٤) أخرجه الحاكم ٣/ ١٩٧.

بل إن المشركين قد مثلوا بعدد من المسلمين، ورغم ذلك كانت أوامر النبي للمقاتلين بالنهي عن المثلة، فهذا أنس بن النضر غاب عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني: المشركين- ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة، ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه[1].

فالمسلمون لا يتحللون من الفضائل حتى لو تحلل منها عدوهم؛ لذا جاءت حروب النبي ﷺ محكومة بالفضائل الخلقية حتى ولو كانت الحرب قائمة، فإذا كان الله تعالى قد أمر بالقتال ومعاملة العدو بالمثل، إلا أنه سبحانه قد قيد ذلك بالفضيلة فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[2].

«وتقوى الله تعالى هي الفضيلة، فمع دفع الاعتداء بالمثل يجب ملاحظة الفضيلة فلا تنتهك حرماتها، ولو انتهكها العدو، فإذا كان العدو منطلقا من كل القيود الخلقية والإنسانية لا ننطلق، فإذا كان العدو يعتدي على الأعراض، لا نعتدي، وإذا كان العدو يجيع الأسرى لا نجيعهم، وإذا كان يقتلهم لا نقتلهم»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ ٤/ ١٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٢٩٩.

فإذا كانت الحرب ولا بد فإن المسلم يضرب فيها أروع المثل على الرحمة والتفضل ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية، فإذا رجحت كفة المسلمين على أعدائهم وظهرت الغلبة لهم، فإن عليهم بحق القرآن أن يكفوا عن القتل، فالمسلم في قتاله لا يغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا يتلف ولا ينهب مالا ولا يقتل امرأة ولا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا يتبع مدبرا ولا يجهز على جرحى ولا يمثل بقتيل ولا يسيء إلى أسير ولا يتعرض لمسالم أو رجل دين ولا يقصد أن يضرب وجها أو يقتل صبيا.

فمن المعاملة بالمثل يجب ألا تتجاوز الحرب إلى الذين لا يقاتلون في ميدان القتال، فجيش النبي هو جيش العدل، ولا يصح لجيش العدل أن يقتل الذين لا يقاتلون على نحوْ ما يأتي.

٧- النهي عن قتل النساء والولدان والشيوخ:

وما دام النساء وكبار السن لا يستطيعون قتالا ولا دفاعا، فإن النبي ﷺ لم يغفلهم في مبادئه التي شرعها في أثناء التعامل مع المخالفين بالقتال، وقد حذر ﷺ أشد التحذير من قتل هؤلاء الذين لا يستطيعون حيلة. وقد وُجِدت امرأة في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان[(١)].

ومن وصاياه ﷺ في هذا الشأن قوله: «**ولا تقتلوا وليدا**»[(٢)].

وما ذنب الأطفال الأبرياء؟ إنهم ليسوا طرفًا في الصراع، هذا هو المنطق الذي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب قتل الصبيان في الحرب ٤/ ٧٤، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب ٣/ ١٣٦٤ (١٧٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ٣/ ١٣٥٦ ١٣٥٨ (١٧٣١)، والترمذي في سننه، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال ٤/ ١٣٨، ١٣٩ (١٦١٤٧).

يفكر به المسلمون، وهو ما يتضح من فعل خبيب بن عدي رضي الله عنه عندما وقع أسيرًا في مكة في حادثة الرجيع عندما اشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله[1].

وجاء عنه ﷺ أنه قال لجنوده: **«انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا، ولا صغيرا، ولا امرأة...»**[2].

وقد استعظم رسول الله ﷺ أن رأى امرأة مقتولة في إحدى الغزوات فقال ﷺ: **«ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل»** ثم قال لرجل: **«انطلق إلى خالد فقل له: إن رسول الله ﷺ يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفا»**[3].

ولقد كان ﷺ يغضب أشد الغضب، ويأسف إذا بلغه أن جنوده قد قتلوا الصبيان، فلقد بلغه أن بعض الأطفال قتلهم جند المسلمين فوقف ﷺ يقول: **«ما بال أقوام جاوز بهم القتل، حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية»**[4].

ومن الواضح أن هذه التعاليم المشددة في تحريم قتل النساء قد أشربتها قلوب الصحابة حتى صارت لهم سجية، فهذا الزبير بن العوام رضي الله عنه يصف لنا ما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه ٥/ ٣٥٤.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين ٣/ ٣٨ (٢٦١٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان ٢/ ٩٤٨ (٢٨٤٢).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٧٧.

فعله أبو دجانة يوم أحد - وكان رسول الله ﷺ قد أعطاه سيفه - قال: ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها. يقول أبو دجانة في ذلك: رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا، فصمدت له، فلما حملت عليه السيف وَلْوَل، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة(١).

ومن ذلك أيضًا ما ذكرته كتب السير أن عبد الله بن عتيك لما توجه إلى حصن أبي رافع سلام بن أبي الحقيق ليقتله؛ لأنه كان كثير التحريض على الدولة الإسلامية التي يعيش في كنفها، فلما ضربه بالسيف صاحت زوجته فأراد قتلها، ثم كف عن ذلك؛ لأن رسول الله ﷺ قد نهاهم عن قتل النساء والصبيان(٢).

وربما قال بعض الناس: إن رسول الله أمر بقتل بعض النساء، فنقول: نعم. ولكنه ﷺ لم يأمر بقتلهن في الحرب، ولكن أمر بقتلهن في الحدود في جرم فعلنه، وهو أمر متعلق بالعدل وليس له علاقة بالحرب، ومن ذلك ما جاء في قتل امرأة واحدة من بني قريظة، لكونها طرحت الرحى على خلاد بن سويد، فقتلته، فقتلت قصاصًا.

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت لها: ويلك، ما لك؟ قالت: أُقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. قالت: فانطلق بها، فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبي من طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل. قال ابن هشام: وهي التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد، فقتلته(٣).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق ٥/ ١١٧، وانظر: تاريخ المدينة لابن شبة ٢/ ٤٦٧.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤١.

بل وتبلغ سماحة النبي ﷺ مع العفو عن النساء شأوا لا يطاول حين يتسامح في حق نفسه وحق حياته كلها وهو الذي لم يغضب لنفسه قط فروي أن امرأة تظاهرت بالمودة وأهدت إليه ﷺ شاة ووضعت السم فيها، فتناولها ﷺ فلاك منها مضغة فلم يسغها، وعلم أنها مسمومة فلفظها وقال: «**إن هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم**». ودعا المرأة وسألها فاعترفت، وصرحت بالعداوة قائلة: بلغت من قومي ما لا يخفى عليك. ثم أردفت ذلك بقولها: إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبيا فسيخبر[١].

وقد تجاوز عنها النبي ﷺ من منطلق السماحة التي دائما تقرب ولا تنفر ففي **الصحيحين** أن الصحابة قالوا له ﷺ: ألا نقتلها؟ قال: «**لا**»[٢].

هكذا لم يقتلها مع أنها دست السم لكنه بعد ذلك دفعها إلى أولياء بشر بن البراء بن معرور، وكان أكل من الشاة فمات بها، فقتلت قصاصا[٣].

وهذه الأخلاقيات التي سلكها النبي ﷺ مع هذه الفئات من غير المسلمين في هذا المقام قد أجراها إذا تحقق أنهم لا يقاتلون، فإذا تبين له ﷺ أن الشيخ الكبير ذو رأي وصاحب خطط في القتال، أو ثبت أنهم يستغلون نساءهم في المساعدة على قتال المسلمين، فحينئذ تتغير المعاملة فيقتلون؛ لأنهم يوقعون الضرر على الإسلام والمسلمين، ولذلك أمر النبي ﷺ بقتل دريد بن الصمة يوم حنين، وكان ابن مائة وستين سنة، وقد ذهب بصره، ولكنهم أحضروه ليستعينوا برأيه، وقد أشار عليهم بأن يرفعوا الثقل إلى عليا بلادهم، ويلقوا المسلمين على متون الخيل[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين ٣/ ٢١٤، ومسلم، كتاب السلام، باب السم ٤/ ١٧٢١ (٢١٩٠).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/ ١٧٩.
(٤) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٢٢٧.

وإنما قتله رسول الله ﷺ لرأيه في الحرب[1].

لكن الأصل في تعامل النبي ﷺ أنهم لا يقتلون؛ لأن الحرب في الإسلام ليست حرب شعوب، وإنما هي مقصورة على معسكر السلطان المتغلب على هذه الشعوب، فإذا استسلم جند السلطان، فقد زالت أسباب الحرب وبقيت الصلة الرحيمة التي تربط بين الشعوب والدعوة إلى الإسلام من غير إكراه، وحمت له حريته الدينية والشخصية[2].

٨- عدم السب والتجريح للأعداء بدون داع:

ليس المسلم بسباب ولا لعان، لكن للمسلمين في حال الحرب أن يجاهدوا عدوهم ولو بالكلمة، فقد استأذن حسان بن ثابت رضي الله عنه النبي ﷺ في هجاء المشركين فقال له النبي ﷺ: «كيف بنسبي؟» فقال حسان: لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين[3].

وقال له رسول الله ﷺ يوم قريظة: **«اهج المشركين فإن جبريل معك»**[4].

وأخبر ﷺ أن ذلك أشد على الأعداء من وقع النبل[5].

فهجاء المشركين أهل الحرب جائز بهذه الأحاديث، وأنه لا حرمة لهم إذا سبوا المسلمين، فأما إذا لم يسب أهل الحرب المسلمين فلا وجه لسبهم؛ لأن الله قد أنزل على نبيه في قنوته على أهل الكفر: إن الله لم يبعثك لعانًا ولا سبابًا[6].

---

(١) السرخسي: المبسوط ١٠/ ٢٩.
(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الإسلام، ص٣٠٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب من أحب ألا يسب نسبه ٤/ ٢٢٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ٥/ ١٤٤.
(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب المناسك، باب استقبال الحج ٥/ ٢٣٣ (٢٨٩٤).
(٦) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ٩/ ٣٢٦.

٩- عدم التخريب:

الحرب في شرعة الإسلام حرب دعوة - كما تقدم القول - ليست حرب تخريب ولا تسلط، لذا فالحفاظ على عناصر الطبيعة التي أمدها الله للإنسان، ووهبها له كي ينتفع بها من أهم مقاصد الإسلام؛ لذا حظر النبي صحابته من إتلاف ما بالبيئة من هبات ومنافع، وقد أرشد الصديق أمراء الجنود قائلا لهم: إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وستجد قوما فحصوا عن أوساط رءوسهم من الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف، وإني موصيك بعشر؛ لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تجبن[١].

لكن ذلك مشروط بألا يستغل الأعداء هذه الأشياء للتستر خلفها ورمي المسلمين من ورائها، فحينئذ يجوز للمسلمين حماية أنفسهم ولو بقطع الأشجار؛ لقوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾[٢].

وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصر بني النضير أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهابًا وإرعابًا لقلوبهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أي: ما قطعتم وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته ورضاه، وفيه نكاية بالعدو وخزي لهم، وإرغام لأنوفهم[٣].

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٢/ ٤٤٨.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٦١.

١٠- الأمان والتحلل من الغدر بالنبذ إذا خشي الخيانة من العدو:

فإذا كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان، فلا يجوز للمسلمين الغدر حتى ينقضيَ الأمد، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم، فحينئذ يخبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستويَ علم المسلمين وعلم أعدائهم بذلك.

وقد دل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[١].

على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة من الأعداء لم يحتج أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك.

ويحدد هذا المبدأ عمر بن الخطاب قائلا لجنوده: بلغني أن رجالا منكم يطلبون العلج حتى إذا أسند في الجبل وامتنع قال: رجل مطرس. يقول لا تخف. فإذا أدركه قتله، وإني والذي نفسي بيده لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه[٢].

هكذا حكم الإسلام إذا خاف المسلمون من قوم بينهم وبينهم أمان، فلا يجوز للمسلمين أن ينقضوا ذلك إلا بالنبذ لهم تحرزا من الخيانة والغدر؛ فإن الغدر ليس من أخلاق المسلمين، «إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر؛ ولم يغش ولم يخدع؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان.. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة.. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٤٤٩.

لم تنقض ولم تنبذ؛ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم.. فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة، لأن كل خصم قد أخذ حذره؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة..»[1].

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾[2].

سئل مالك عن الإشارة بالأمان أهي بمنزلة الكلام؟ فقال: نعم، وإني أرى أن يتقدم إلى الجيوش أن لا تقتلوا أحدا أشاروا إليه بالأمان لأن الإشارة عندي بمنزلة

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٤٢.

(٢) سورة الأنفال، الآيات: ٥٥-٦١.

الكلام وإنه بلغني أن عبد الله بن عباس قال: ما ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو[1].

وتشهد أحداث السيرة العطرة أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يحارب قوما أعلمهم بحله من العهد الذي بينه وبينهم ولم يغدر بهم، بل نبذ إليهم جهرة، وهذا ما حدث مع يهود بني قينقاع، والقصة من أولها أنه ﷺ لما قدم المدينة مهاجرا وادعته يهود كلها، وكتب بينه وبينهم كتابا، وألحق كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أمانا، وشرط عليهم شروطا، منها: ألا يظاهروا عليه عدوا، فلما كان يوم بدر كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد، وأظهروا البغي والحسد، وقطعوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، فجمعهم النبي ﷺ بسوق بني قينقاع، وقال: **«يا معشر يهود، أسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله، يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة فأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»**. قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا مثل قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

وما زالوا يحيكون المؤامرات ضد دولة الإسلام حتى أجلاهم النبي ﷺ إلى أذرعات الشام[2].

وهذا ما حدث أيضا مع بني النضير؛ فإن رسول الله أنذرهم وأمهلهم، فإن بني النضير لما تآمروا بما تآمروا به من إدلاء الصخرة على رسول الله ﷺ نهاهم عن ذلك سلام بن مشكم وخوفهم الحرب، قال: وهو يعلم ما تريدون. فعصوه فصعد عمرو بن جحاش ليدحرج الصخرة، وجاء النبي ﷺ الخبر من السماء، فقام كأنه يريد حاجة

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٤٤٩.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٤٨.

وانتظره أصحابه فأبطأ عليهم، وجعلت يهود تقول: ما حبس أبا القاسم؟ وانصرف أصحابه، فقال كنانة بن صوريا: جاءه الخبر بما هممتم به. قال: ولما رجع أصحاب رسول الله ﷺ انتهوا إليه وهو جالس بالمسجد، فقالوا: يا رسول الله، انتظرناك ومضيت. فقال: «**همت يهود بقتلي وأخبرنيه الله عز وجل ادعوا إليَّ محمد بن مسلمة**». قال: فأتى محمد بن مسلمة فقال: «**اذهب إلى يهود فقل لهم: اخرجوا من بلادي، فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر**». قال: فجاءهم محمد بن مسلمة فقال لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تظعنوا من بلاده[1].

١١- انتهاء القتال بدخول غير المسلمين في الإسلام:

إن القتال عند المسلمين - كما مر بيانه - ليس هدفا في ذاته، وليس المقصود منه الانتقام، وإنما الهدف هو نشر الدعوة، وإعلاء الدين، ونشر العدل بين العباد والقضاء على الظلم، فإذا ما تحقق ذلك بقبول غير المسلمين الدخول تحت حكم الإسلام، فلا معنى للقتال حينئذ، وقال بعض الفقهاء: وأما قتل الكفار فليس بمقصود، حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل بغير جهاد، كان أولى من الجهاد[2].

ولذلك إذا وجد من غير المسلمين من يرغب في التعامل مع المسلمين على أساس السلم، وإطلاق حرية الدعوة إلى الله تعالى بين أفرادهم وداخل مجتمعاتهم، وأن يقفوا موقف الحياد في قتال المسلمين عدوا ذا شوكة، فإن الأدلة الشرعية تقرر وجوب مسالمتهم ما دامت حرية الدعوة إلى الإسلام مكفولة، فليس هناك حاجة إلى الحرب أو القتال؛ حيث إن الإسلام لا يريد أن يكره الناس أن يكونوا معه، ولكنه لا يسمح لهم أن يقفوا ضده أو يحاربوه بأية وسيلة من وسائل الحروب المتعددة؛ فهو

---

(١) السابق ٢/ ٨٤.

(٢) الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج ٤/ ٤١٠.

لا يعتبر من ليس معه عدوا له تجب محاربته والقضاء عليه[1].

وعلى ذلك فقتال غير المسلمين ينتهي بأحد أمور ثلاثة[2]:

أ- دخول غير المسلمين في الإسلام بإعلانهم قبول العقيدة الربانية التي جاء بها الإسلام، وقبول الدخول في عبودية الله وحده.

ب- دخول غير المسلمين تحت حكم الإسـلام، والتخلي عن حكم الطاغوت، وعنوان ذلك دخولهم في ذمة المسلمين وعهدهم، والتزامهم بأحكام الإسلام الدنيوية.

ج- انتصار المسلمين عليهم، وفتح بلادهم عنوة، وإجبارهم على الخضوع لأحكام الإسلام الدنيوية، وإلزامهم بعدم التصدي لدعوة الله.

وعلى هذا المبدأ سار النبي ﷺ في تعامله مع غير المسلمين فيما يختص بالقتال، ويبين ذلك قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[3].

فيجب بعد دخول غير المسلمين في الإسلام إنهاء القتال، وعدم التعرض لهم في أنفسهم وأموالهم، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟

(١) الأستاذ محماس الجلعود: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ٢/ ٦٢١.

(٢) الدكتور محمد نعيم ياسين: انتهاء القتال بدخول العدو في الإسلام، ص ٢٢٠ (بحث ضمن مجلة الشريعة، الكويت، السنة الأولى، العدد الثاني، محرم ١٤٠٥هـ/ نوفمبر ١٩٨٤م).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل من أبى قبول الفرائض، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ١/ ٥١ (٢٠).

سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾[١].

فتخلية سبيلهم هي عصمة الدماء والأموال[٢].

وعلى ذلك يجب كف القتال عمن أظهر الإسلام، ونطق بالشهادتين، ولا ينقب عن مكنونات الصدور، فإن أمرها وحسابها على الله عز وجل أما الإنسان فله ظاهر الأمر[٣].

ولذلك لما اعتصم رجل من جهينة بـ«لا إله إلا الله»، ولكن أسامة بن زيد رضي الله عنه طعنه، وذكر ذلك لرسول الله ﷺ غضب غضبا شديدا وقال لأسامة: «**أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟!**» فقال أسامة: إنما قالها خوفا من السلاح. فقال الرحمة المهداة: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!**» يقول أسامة: فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[٤].

هكذا لم يقبل النبي ﷺ من أسامة أن الرجل قالها تقية، مع أن الذي يتبادر إلى الظن أن الرجل قالها تقية، ولكنه ﷺ لا يحب أن يفتح باب الاحتمال وسوء الظن، علما منه ﷺ بما يترتب على ذلك من الشرور والمفاسد، واتباع الأهواء والجهالات، ولذلك زجر أسامة هذا الزجر الشديد وهو حبه وابن حبه.

ومن هنا أيضا كان نهج القرآن الكريم نهي المؤمنين عن أن ينفوا الإسلام عمن تظاهر بأي شعيرة من شعائر الإسلام فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٥. (٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٨٢.

(٣) العيني: عمدة القاري ١/ ١٨٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله ١/ ٩٦ (١٥٨).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾[١].

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في المقداد بن الأسود رضي الله عنه، حيث قتل رجلا شهد أن لا إله إلا الله. وقيل: نزلت في نفر من المسلمين مر بهم رجل فألقى إليهم السلام فقاموا فقتلوه، وقالوا: إنه لم يسلم عليهم إلا ليتعوذ منهم[٢].

وعن المقداد أيضا قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار، فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت. أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال ﷺ: **«لا تقتله»**. قال: فقلت: يا رسول الله، إنه قد قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: **«لا تقتله فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»**[٣].

قال الإمام الشافعي: معناه أنه معصوم الدم محرم قتله بعد قوله: لا إله إلا الله. كما كنت أنت قبل أن تقتله، وإنك بعد قتله غير معصوم الدم ولا محرم القتل كما كان هو قبل قوله: لا إله إلا الله[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ١٢٥، ١٢/ ٣٧٧، ٣٧٨، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٤٦٧، ٤/ ٢٧١ (٢٠٢٣، ٢٤٦٢، ٢٩٨٦)، وسنن الترمذي كتاب باب (٣٠٣٠)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٢٣٥، وسنن البيهقي ٩/ ١١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله ١/ ٩٥.

(٤) النووي: شرح صحيح مسلم ٢/ ١٠٦.

صبأنا. فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، فقلت، والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على رسول الله ﷺ، فقال: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»** مرتين[١].

«هنا لا نستطيع أن ندع هذا الحادث الصغير في ذاته الجليل في مؤداه وأثره بدون تعليق؛ لأنه يدل على الروح السلمية التي كانت تتولى المسلمين في مجاهدتهم للمشركين، وهو يدل دلالة قاطعة على أن الجهاد في الإسلام لم يشرع تحت إملاء عاطفة وحشية، كالتي تتسلط على طلاب المغانم بواسطة الغارات، ولا على محبي التبسط في الملك دون مراعاة مبدأ إنساني يراد من ورائه إصلاح عام للبشر. بل شرع تحت سلطان روح علوية مصاحبة لشعور سام بالحقوق الطبيعية لكل فرد من بني الإنسان، ولكل جماعة من جماعاته»[٢].

هكذا أنكر رسول الله ﷺ فعل خالد وتبرأ منه، مما يدل على حرمة قتل إنسان ظهرت منه الموافقة على الدخول في الإسلام ولو بألفاظ الكناية[٣].

كما قد تدعو الحاجة إلى عقد مهادنة وصلح بين المسلمين وغيرهم، والمهادنة هي المعاقدة بين المسلمين ومخالفيهم في الدين على ترك الحرب والكف عن القتال مدة معينة تقدر في العقد، وأصل هذه المهادنة التي تعاقد عليها المسلمون مع مشركي قريش في صلح الحديبية، فإنه كان من مواد هذا العقد الكف عن القتال عشر سنوات، وقد أمضى النبي ﷺ ذلك لما رآه من مصلحة للمسلمين[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الجهاد، باب إذا قالوا: صبأنا ولم يحسنوا: أسلمنا ٣/ ١٢٢.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ٢٥٥.

(٣) الدكتور محمد نعيم ياسين: انتهاء القتال بدخول العدو في الإسلام، ص٢٢٥.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص ٤٠٥.

وإن حاصر العدو المسلمين، وطلبوا الموادعة على أن يؤدي إليهم المسلمون شيئا معلوما كل سنة، فلا ينبغي للإمام أن يجيبهم إلى ذلك لما فيه من الدنية والذلة للمسلمين؛ إلا عند الضرورة، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك على أنفسهم، ويرى الإمام أن هذا الصلح خير لهم، فحينئذ لا بأس بأن يفعله[1].

وقد روي أن الحارث الغطفاني جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة. فقال النبي ﷺ: «**حتى أستأمر السعود**». فقال لهم: «**إني قد علمت أن العرب قد رمتك عن قوس واحدة، وإن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا، حتى تنظروا في أمركم بعد**». قالوا: أوحي من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك، فرأينا تبع لهواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا تمرة إلا بشرًى أو قرى. فقال النبي ﷺ: «**هو ذا تسمعون ما يقولون**»[2].

ولو خاف المسلمون من عدوهم، ورأوا أن الخير والمصلحة نقض العهد كان لهم ذلك لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3].

ولكن هذا النبذ مشروط بأن ينبذوا إلى المهادنين قبل القتال تحرزا من الغدر والخيانة؛ لقوله ﷺ في العهود: «**وفاء لا غدر**»[4].

---

(١) السرخسي: المبسوط ١٠/ ٨٧.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٦/ ٢٨ (٥٤٠٩).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٥٨.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه ٣/ ٨٣ (٢٧٥٩)، الترمذي، باب ما جاء في الغدر ٤/ ١٢١ (١٥٨٠).

١٢- عدم الاستعانة بغير المسلمين في القتال:

لأن الغرض ليس التقتيل أو التنكيل أو الانتقام، بل الهدف نشر الإسلام أولا وآخرا، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قِبَل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله ﷺ: **«تؤمن بالله ورسوله؟»** قال: لا. قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**. قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة، قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**. قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة: **«تؤمن بالله ورسوله؟»** قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: **«فانطلق»**[(١)].

وقال عبد الرحمن بن خبيب: أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزوا أنا ورجل من قومي ولم نسلم، فقلنا: إنا نستحيي أن يشهد قومنا مشهدا لا نشهده معهم. قال: **«أوأسلمتما؟»** قلنا: لا. قال: **«فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»**[(٢)].

وفي غزوة أحد حدث أمر قريب من هذا، فإنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى هذه الغزوة وكان ببعض الطريق وركب رسول الله ﷺ خرج السعدان أمامه يعدوان... حتى سلك على البدائع، ثم زقاق الحسي حتى أتى الشيخين - وهما أطمان كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعمى وعجوز عمياء يتحدثان فسمي الأطمان الشيخين - حتى انتهى إلى رأس الثنية، التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل خلفه فقال: **«ما هذه؟»** قالوا: يا رسول الله هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود. فقال رسول الله ﷺ: **«لا يستنصر**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر ٣/ ١٤٤٩ (١٨١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٥/ ٤٢ (١٥٧٦٣).

بأهل الشرك على أهل الشرك»[1].

أما إذا كان غير المسلم حسن الرأي مأمون الجانب، ودعت الحاجة إلى الاستعانة به، جاز على هذا النحو؛ لأن الرسول ﷺ استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه يوم حنين[2].

وكذلك مر معبد بن أبي معبد الخزاعي برسول الله ﷺ بعد وقعة أحد وهو بحمراء الأسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ لا يخفون منه شيئا كان بها ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ! لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل. قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل شأفتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك. فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه[3].

وكذلك ورد أن النبي ﷺ استعان بيهود بني قينقاع على بني قريظة[4].

---

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢١٥، وطبقات ابن سعد ٢/ ٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط إلا أعطاه ٤/ ١٨٠٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٠٢، ١٠٣.

(٤) السرخسي: شرح كتاب السير الكبير ٤/ ١١٣.

هذه صورة مجملة للمبادئ التي وضعها النبي ﷺ أساسا للتعامل مع غير المسلمين فيما يخص شئون الحرب والقتال، وقد سار عليها هو وصحابته الكرام في حياته وبعد وفاته ﷺ، وهي مبادئ كما نرى تحكمها الفضيلة وعدم انتهاك الحرمات وإن انتهكها العدو، فإذا كان العدو منطلقا عن كل القيود الخلقية والإنسانية، فالمسلمون مقيدون بهذه المبادئ، فلا يعتدى على الأعراض ولا الأرواح إلا بحقها الذي قرره الله تعالى.

«ولا جرم أن الباحث عندما يصل في بحوثه عن كنوز الإسلام إلى هذا الحد من الجمال والجلال يقف مبهوتا بل مشدوها أمام هذا السمو القمين بأن ينير ظلمات الدنيا كلها... لا سيما إذا وازن بين هذه المبادئ الرفيعة وما يقرؤه ويسمعه في كل يوم بل في كل ساعة من نهار أو ليل من فيهقة المتفيهقين وتشدق المتشدقين باسم الخير والعدل والسلام وحقوق الإنسان... وهو أبعد ما يكون عن الخير، وأبغض ما يكون للعدل، وأجحد ما يكون لحقوق الإنسان»[1].

توابع اللقاء المسلح

أخلاقيات التعامل مع المحاربين

بقي أن نستعرض فيما يلي الأخلاقيات التي تعامل بها النبي ﷺ مع المحاربين الذين ناصبوه الحرب، ثم انقضت المعركة بانتصار الإسلام.

١- الأخلاقيات المتبعة مع الأسير في السيرة النبوية:

تبدو قمة الرحمة النبوية في معاملة النبي ﷺ للأسرى، فقد كان ﷺ رفيقا بأسراه، إذ كان يوصي أمته بهم خيرا فيقول ﷺ: **«استوصوا بالأسرى خيرا»**[2].

---

(١) الدكتور محمد غلاب: هذا هو الإسلام، ص ٧٤.

(٢) أخرجه الواقدي في المغازي، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/ ٣٧٧.

ولما أسر من أسر يوم بدر، نزلوا في بيوت الأنصار، فكأنهم كانوا في ضيافة لا أسر، وفي ذلك يقول العاص بن الربيع وهو أحد الأسرى: كنت مع رهط من الأنصار، جزاهم الله خيرا، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبزة، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليَّ.

وكان الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: بل وكانوا يحملوننا ويمشون[1].

ولقد زكى الله تعالى هذا الصنيع في كتابه العزيز فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾[2].

قال قتادة: لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم، وإنهم يومئذ لمشركون[3].

وعن ابن جريج قال: لم يكن النبي ﷺ يأسر أهل الإسلام، ولكنها نزلت في أسارى أهل الشرك، كانوا يأسرونهم في الفداء، فنزلت فيهم، فكان النبي ﷺ يأمر بالإصلاح لهم[4].

وقال الطبري: هو الحربيّ من أهل دار الحرب يُؤخذ قهرا بالغلبة، أو من أهل القبلة يُؤخذ فيُحبس بحقّ، فأثنى الله على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقرّبا بذلك إلى الله وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم[5].

ولما تحركت عاطفة النبي ﷺ نحو عمه العباس وهو في الأسر، وكان ممن خرج مع المشركين يوم بدر فأسر وشد وثاقه، فسهر النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينم، فقال له

(١) تاريخ دمشق ٨/ ٣٧٧.

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٨، ٩.

(٣) الدر المنثور ١٥/ ١٥٣.

(٤) الدر المنثور ١٥/ ١٥٣.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٤٢.

بعض أصحابه: ما أسهرك يا نبي الله؟ فقال ﷺ: **«أسهر لأنين العباس»**. فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه، فقال النبي ﷺ: **«ما لي لا أسمع أنين العباس؟»** فقال الرجل: أنا أرخيت من وثاقه. فقال رسول الله ﷺ: **«فافعل ذلك بالأسرى كلهم»**(١).

ويقول رجل من الأنصار: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فرأيت رسول الله ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر: **«أوسع من قبل رجليه، أوسع من قبل رأسه»**. فلما رجع استقبله داعي امرأة فجاء وجيء بالطعام، فوضع يده ثم وضع القوم فأكلوا، فنظر آباؤنا رسول الله ﷺ يلوك لقمة في فمه، ثم قال: **«أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها»**. فأرسلت المرأة قالت: يا رسول الله، إني أرسلت إلى البقيع يشتري لي شاة فلم أجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة: أن أرسل إلي بها بثمنها فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت إلي بها. فقال رسول الله ﷺ: **«أطعميه الأسارى»**(٢).

فتأمل إلى أي حد بلغ الإسلام درجة من السمو والرفعة؛ إذ منع إيذاء الأسرى، وأمر بإكرامهم، وجعل الأسرى ممن يستحقون البر.

والإسلام يوجب للأسير أمرين(٣):

أولهما: أنه ليس للجيش المسلم أن يأسر أحدا حتى يثخن في الأرض؛ بأن يثقل جيش العدو بالجراح، بحيث لا يكون له قدرة على مواصلة القتال، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾(٤).

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٨١٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في اجتناب الشبهات ٣/ ٢٤١ (٣٣٣٢).

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، القسم الثاني العهد المدني، ص ٧١٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ كان ينفذ أوامر القرآن في تعامله مع الأسرى، فقد أجاز القرآن للأسرى أمرين؛ وهما: إما المن عليهم بإطلاق سراحهم، وإما الفداء بالمال، أو الرجال، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾(1).

كما قد تدعو الحاجة إلى قتل الأسير، لكن هذا لا يباعد بنا عن الأصل في معاملة الأسرى مما تقدم ذكره.

قال ابن القيم واصفا هدي النبي ﷺ في معاملته للأسرى: «كان يمن على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة؛ ففادى أسارى بدر بمال وقال: **«لو كان المُطْعِم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له»**(2).

وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غرته فأسرهم ثم منَّ عليهم. وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد ثم أطلقه فأسلم»(3).

هكذا كانت أخلاقيات النبي ﷺ وصحابته مع الأسرى؛ فورد المنُّ عليهم، والمن: هو إطلاق سراح الأسير وتحريره بغير عوض ولا فدية(4). كما ذكر ابن القيم في قصة ثمامة بن أثال.

وحديثه في **الصحيحين** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال: له ثمامة بن أثال. فربطوه بسارية من

---

(1) سورة محمد، الآية: ٤.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس ٤/ ١١١.

(3) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ١٠٩.

(4) تفسير الطبري ٢٦/ ٤٠.

سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله(١).

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «**أحسنوا إساره**»(٢).

وكما يجوز المن على الأسير، يجوز أيضا المفاداة بما في أيديهم من أسرى المسلمين، أو بمال، أو نحو ذلك. ومن ذلك ما حدَّث به إياس بن سلمة عن أبيه قال: غزونا فزارة وعلينا أبو بكر أمَّره رسول الله ﷺ علينا، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا، ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه وسبى، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر فنفلني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوبا فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال: «**يا سلمة هب لي المرأة**». فقلت: يا رسول الله، والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبا. ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: «**يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك**». فقلت: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوبا. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناسا من المسلمين كانوا أسروا بمكة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلاة، باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضا في المسجد، وكان شريح يأمر الغريم أن يحبس إلى سارية المسجد ١/ ١٥٢، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه ٣/ ٣٨٦ (١٧٦).

(٢) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٤٣٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى ٣/ ١٣٧٥ (١٧٥٥).

قال الإمام النووي: فيه جواز المفاداة، وجواز فداء الرجال بالنساء الكافرات[1].

كما ورد أيضا في تعامل النبي ﷺ مع الأسرى جواز ضربهم إذا كان في ذلك مصلحة أو من ورائه طائل كما قال الخطابي[2].

ودليله ما ورد عن أنس أن النبي ﷺ ندب أصحابه فانطلقوا إلى بدر فإذا هم بروايا قريش فيها عبد أسود لبني الحجاج، فأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فجعلوا يسألونه: أين أبو سفيان؟ فيقول: والله ما لي بشيء من أمره علم، ولكن هذه قريش قد جاءت فيهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. فإذا قال لهم ذلك ضربوه، فيقول: دعوني دعوني أخبركم. فإذا تركوه قال: والله ما لي بأبي سفيان من علم، ولكن هذه قريش قد أقبلت فيهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف قد أقبلوا، والنبي ﷺ يصلي وهو يسمع ذلك، فلما انصرف قال: **«والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم وتدعونه إذا كذبكم هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان»**[3].

كما يجوز تقريره لأخذ معلومات عسكرية قد تفيد المسلمين، ففي خيبر ظفر حارس الجيش عمر بن الخطاب بيهودي خرج من الحصن متسللا، فأتي به إلى النبي ﷺ وقد تملكه الرعب، فقال الأسير لمن حوله: إن أمنتموني دللتكم على ما فيه نجاحكم. فأمنوه على نفسه، فقال: إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصون الشق، وسيخرجون لقتالكم غدا، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غدا، فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فإنكم تنصبون المنجنيق، ويدخل الرجال تحت

(١) النووي: شرح صحيح مسلم ١٢/ ٦٨.

(٢) عون المعبود ٧/ ٢٤٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الأسير ينال منه ويضرب ويُقَرَّر ٣/ ٥٧ (٢٦٨١).

الدبابات، فينقبون الحصن، فتفتحه من يومك.

فالتعامل مع الأسير منوط بالمصلحة حتى إنه قد يصل التعامل معه بالقتل إذا استوجب ذلك؛ ولأنه ليس المراد من حروب المسلمين التشفي والانتقام فليس لأحد أن يقتل أسير صاحبه، لأن أمر الأسير بيد الإمام، ولهذا لا يحل للمسلمين قتل الأسير بدون رأي الإمام؛ لأن فيه افتياتا على رأيه، إلا أن يخاف الآسر فتنة، فحينئذ له أن يقتله قبل أن يأتي به إلى الإمام وليس لغيره، ودليل ذلك قوله ﷺ: **«لا يتعاطين أحدكم أسير صاحبه إذا أخذه فيقتله»**[1].

ولكن ينبغي أن يربط الأسير ويحكم وثاقه حتى يؤتى به إلى الإمام، لقوله تعالى: ﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾[2].

ولما روي عن جندب بن مكيث قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن غالب الليثي في سرية وكنت فيهم وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوح بالكديد، فخرجنا حتى إذا كنا بالكديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذناه، فقال: إنما جئت أريد الإسلام وإنما خرجت إلى رسول الله ﷺ. فقلنا: إن تكن مسلما لم يضرك رباطنا يوما وليلة، وإن تكن غير ذلك نستوثق منك. فشددناه وثاقا[3].

قال الخطابي: في الحديث دلالة على جواز الاستيثاق من الأسير الكافر بالرباط والغل والقيد، وما يدخل في معناها إن خيف انفلاته ولم يؤمن شره إن ترك مطلقا[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/ ٢٦٨ (٧٠٩٩).

(٢) سورة محمد، الآية: ٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الأسير يوثق ٣/ ٥٦ (٢٦٧٨)، والحاكم في المستدرك ٢/ ١٣٥.

(٤) عون المعبود ٧/ ٢٤٣.

والخلاصة في أمر الأسير: أنه موكول إلى مصلحة المسلمين، ونظر الإمام، والله تعالى أعلم.

٢- الأخلاقيات مع رسل الأعداء:

قد يدخل دار الإسلام رسول للعدو، وهذا عامله النبي ﷺ على أنه مستأمن غير مباح الدم، فالرسل «لم تزل آمنة في الجاهلية والإسلام، وهذا لأن أمر القتال أو الصلح لا يتم إلا بالرسل ليتوصل إلى ما هو المقصود»(١).

ولما جاء رسولان إلى النبي ﷺ من عند مسيلمة الكذاب قال لهما رسول الله ﷺ: **«ما تقولان أنتما؟»** قالا: كما قال. فقال ﷺ: **«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»**(٢). فجرت السنة ألا يقتل الرسول.

وكذلك أبو سفيان كان مما جرى عليه حكم انتقاض العهد، ولكن الرسول ﷺ لم يقتله؛ لأنه كان رسول قومه إليه(٣).

لقد سجل التاريخ أعظم المعاملات التي كان يتعامل بها النبي ﷺ مع الرسل والسفراء الذين كانوا يفدون إليه، وقد لاحظنا من خلال استقباله للواردين عليه مظهرا رائعا من مظاهر الحضارة الإسلامية التي لا تقف عند تأمين السفير فحسب، بل تحث على رعايته وإكرامه والعناية به.

ففي أحداث صلح الحديبية ورد على النبي ﷺ عدد من رسل قريش، وكان مِن بعضهم مَن تطاول على مجلس النبي ﷺ مثل عروة بن مسعود الثقفي، الذي حاول صحابة رسول الله ﷺ أن يردوه إلى صوابه، ولكنه ﷺ منع أصحابه أن يمسوا عروة

(١) السرخسي: المبسوط ١٠/ ٩٢.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الرسل ٣/ ٨٤ (٢٧٦١).
(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٤٢٢.

بسوء، مع أن قريشا عقرت ناقة سفيره إليها، وهو خراش بن أمية، بل وهمت بقتله لولا أن الأحابش منعوهم عن ذلك[1].

هكذا كان يكرم النبي ﷺ من يرد عليه من الرسل والسفراء، بل إنه ﷺ يعتذر لرسول هرقل؛ لأنه لم يجد ما يعطيه له من هدايا، فقال له: **«إن لك حقا، وإنك لرسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها؛ إنا سَفْرٌ مُرمِلون»**. لكن الحادثة لم تقف عند هذا الحد، بل انتصب رجل من المدرسة المحمدية هو عثمان بن عفان فقال: أنا أجوزه يا رسول الله، ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية، فوضعها في حجر رسول الله ﷺ. ثم نادى الرسول الكريم ﷺ: **«أيكم ينزل هذا الرجل؟»** فقام رجل من الأنصار فقال: أنا. فقام في ضيافته[2].

فالرسول في شرعة الإسلام لا يقتل ولا يحبس ولا يؤذى؛ فهو حامل رسالة وناقل وجهة نظر، وبدونه يصعب التواصل والتفاهم الذي يسعى إليه الإسلام، قال ابن القيم[3]: وكانت تقدم عليه رسل أعدائه وهم على عداوته فلا يهيجهم ولا يقتلهم... وكان هديه أيضا ألا يحبس الرسول عنده إذا اختار دينه فلا يمنعه من اللحاق بقومه بل يرده إليهم، كما قال أبو رافع، بعثتني قريش إلى النبي ﷺ فلما أتيته وقع في قلبي الإسلام فقلت: يا رسول الله: لا أرجع إليهم. فقال: **«إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد ارجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع»**[4]. قال: فذهبت ثم أتيت النبي ﷺ فأسلمت.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣١/ ٢١٠ (١٨٩٢٩).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٤/ ٤١٦ (١٥٦٥٥).
(٣) زاد المعاد ٣/ ٤٢٠.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود ٢/ ٩١ (٢٧٥٨).

٣- الأخلاقيات مع الجاسوس في السيرة النبوية:

قال ابن القيم: ثبت عنه ﷺ أنه قتل جاسوسا من المشركين[١]؛ وذلك لأن فيه كشف عورات المسلمين، ومساعدة في هدم الإسلام، فلا بد من قتله وعدم التهاون فيه؛ لأنه ما دام جاسوسا فهو في حرب مع المسلمين فهو حربي، والحربي مباح الدم.

وقد جاء إلى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر، فجلس عند أصحابه يتحدث، ثم انفتل، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «**اطلبوه فاقتلوه...**»[٢].

قال الإمام النووي: فيه قتل الجاسوس الحربي الكافر وهو باتفاق[٣].

وحدث إياس بن سلمة عن أبيه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ هوازن قال فبينما نحن نتضحى وعامتنا مشاة وفينا ضعفة، إذ جاء رجل على جمل أحمر، فانتزع طلقا من حقو البعير فقيد به جمله ثم جاء يتغدى مع القوم فلما رأى ضعفتهم ورقة ظهرهم خرج يعدو إلى جمله فأطلقه ثم أناخه فقعد عليه، ثم خرج يركضه واتبعه رجل من أسلم على ناقة ورقاء هي أمثل ظهر القوم، قال: فخرجت أعدو فأدركته ورأس الناقة عند ورك الجمل وكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته فلما وضع ركبته بالأرض اخترطت سيفي فأضرب رأسه فندر فجئت براحلته وما عليها أقودها، فاستقبلني رسول الله ﷺ في الناس مقبلا، فقال: «**من قتل الرجل؟**» فقالوا: سلمة بن الأكوع. فقال: «**له سلبه أجمع**»[٤].

(١) زاد المعاد ٣/ ٤٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب إذا دخل الحربي دار الإسلام بغير أمان ٤/ ٨٤، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الجاسوس المستأمن ٣/ ٤٩ (٢٦٥٣، ٢٦٥٤).

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢/ ٦٧.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الجاسوس المستأمن ٣/ ٥٠ (٢٦٥٤).

٤- الأخلاقيات مع السبي في السيرة النبوية:

السبي: هم الأسرى من النساء والأطفال[١].

قال ابن القيم: وكان هديه أن من أسلم قبل الأسر لم يسترق، وكان يسترق سبي العرب كما يسترق غيرهم من أهل الكتاب، وكان عند عائشة سبية منهم فقال: «**أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل**».

ولما قسم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السبي لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسها، فقضى رسول الله ﷺكتابتها وتزوجها، فأعتق بتزوجه إياها مائة من أهل بيت بني المصطلق إكراما لصهر رسول الله ﷺ. وهي من صريح العرب، ولم يكونوا يتوقفون في وطء سبايا العرب على الإسلام بل كانوا يطئونهن بعد الاستبراء، وأباح الله لهم ذلك ولم يشترط الإسلام، بل قال تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[٢].

فأباح وطء ملك اليمين وإن كانت محصنة إذا انقضت عدتها بالاستبراء. فالذي كان عليه هديه وهدي أصحابه استرقاق العرب، ووطء إمائهن المسبيات بملك اليمين من غير اشتراط الإسلام[٣].

وحث النبي ﷺ على عتق المرأة الأسيرة وتزويجها بعد تعليمها وتهذيبها ورفع مستواها فقال ﷺ: «**... ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»[٤].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب مادة (س ب ي).

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٣) زاد المعاد ٣/ ١١٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة ١/ ١٣٤ (١٥٤).

ومن رحمته ﷺ أنه كان يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها، ويقول: «من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[1].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فرق بين جارية وولدها، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك ورد البيع[2].

قال الخطابي: لم يختلف أهل العلم أن التفريق بين الولد الصغير ووالدته غير جائز[3].

وكان ﷺ يؤتى بالسبي فيعطي أهل البيت جميعا؛ كراهية أن يفرق بينهم[4].

٥- الأخلاقيات مع قتلى غير المسلمين:

مر بنا أنه ﷺ يحترم الكرامة الإنسانية إلى أبعد حد، ويستوي في ذلك الإنسان حيا أو ميتا، ولهذا لم يترك النبي ﷺ قتلى المشركين نهبا للوحوش والسباع، بل وضعت في القليب وهي بئر جافة.

كذلك لم يبع النبي ﷺ جثث القتلى، فعن ابن عباس، أن المشركين أرادوا أن يشروا جسد رجل من المشركين، فأبى النبي ﷺ أن يبيعهم إياه[5].

ففيه دليل على أنه لا يجوز بيع جيفة المشرك، وإنما لا يجوز بيعها وأخذ الثمن

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب كراهية التفريق بين السبي ٣/ ١١٤ (١٥٦٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في التفريق بين السبي ٣/ ٦٣ (٢٦٩٦).

(٣) عون المعبود ٧/ ٢٥٩.

(٤) ابن القيم: زاد المعاد.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الجهاد، باب ما جاء: لا تفادى جيفة الأسير ٤/ ١٨٦ (١٧١٥).

فيها لأنها ميتة لا يجوز تملكها ولا أخذ عوض عنها[1].

ولما تصاف الفريقان في وقعة الأحزاب، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أي ناحية يقتحم الخندق، فهوى فيه واندقت عنقه، فعظم ذلك على المشركين وطلبوا إلى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون إليه عشرة آلاف درهم، فسلمه إليهم ليدفنوه، ولم يقبل منهم ما عرضوا عليه؛ قالوا: إنا نعطيكم الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه. فرد إليهم النبي ﷺ: **«إنه لخبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، فلا أرب لنا بديته، ولسنا مانعيكم أن تدفنوه»**[2].

٦- الأخلاقيات مع المهزومين في السيرة النبوية:

لم تكن الحروب النبوية كما قدمنا القول تسعى للانتقام من أحد، بل هدفها الأول هداية الشعوب وردها إلى خالقها، فإذا ما انتهت الحرب بانتصار المسلمين نجد السماحة والرفق والرأفة والرحمة مهيمنة على موقف المسلمين في التعامل مع غيرهم.

ويلاحظ أنه في حروب النبي ﷺ لم يهزم المسلمون هزيمة فيها استسلام قط؛ لأن الاستسلام فيه ذلة، والإسلام دين العزة والكرامة، فلا مجال لأن يستسلم المؤمنون بقيادة النبي ﷺ، بل لما هُزم المسلمون في غزوة أحد، أراد النبي ﷺ أن يجمع متفرق الجيش ويتتبع به المشركين، فلما علم المشركون بذلك مضوا في طريقهم قافلين، ورضوا من الغنيمة بالإياب؛ إذ علموا أنه مؤيد من عند الله، وأنه يجاهد في سبيله[3].

ولما كانت الحرب تنتهي بانتصار النبي ﷺ وهزيمة العدو واستسلامه، لم يقل ﷺ مقالة الغاشمين: ويل للمغلوب. بل كانت العدالة والسماحة والرفق المحمدي الذي

---

(١) تحفة الأحوذي ٥/ ٣٠٧.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٤٠٤.

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، القسم الثاني العهد المدني، ص ٧٠٧.

جعله يقول في فتح مكة: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ: «**أقول لكم ما قاله أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1].

ويوم أن انتصر النبي ﷺ في فتح مكة أعطى رايته سعد بن عبادة، فنادى سعد: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل المحرمة، اليوم أذل الله قريشا. فقال النبي الرحيم ﷺ: «**لا، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشا**»[2].

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «**هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة**»[3].

ولقد قوم الباحث الإسلامي مولانا محمد علي هذه الحادثة التاريخية الفريدة بقوله: «إن تاريخ العالم ليعجز عن تزويدنا بنظير لهذا الصفح الكريم الذي أغدقه الرسول على أمثال أولئك المجرمين الكبار. إن الضرب على وتر المواعظ الداعية إلى الصفح والغفران لا يكلف المرء شيئًا كثيرًا، ولكن عفو المرء عن معذبيه ليحتاج إلى قدر من الشهامة عظيم، وبخاصة حين يكون أولئك المعذِّبون تحت رحمته.

وهذا الانفساح في مدى العطف الإنساني والعفو الكريم لا نقع عليه في حياة يسوع. فالحق أن يسوع لم تتح له الفرصة لممارسة فضيلة العفو، ذلك بأنه لم يكسب في أيما يوم السلطة التي تمكنه من الرد على مضطهديه»[4]

«فهل عرف التاريخ أن جماعة غُلبت على أمرها وطُردت من بلدها، وأوذيت في نفسها ومالها، فلما استطاعت العودة إلى ديارها وتمكنت من رءوس أعدائها، لم تمتد

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١١٨.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٣/ ٤٥٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٥/ ١٨٦.

(٤) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٠٧.

يدها إلى عدوها بسوء؟ وهل عرف التاريخ أن عدوين يلتقيان بعد طول صراع مرير مخضب بالدماء فلا يكون في لقائهما شحناء ولا بغضاء.

إنها روح الإسلام الخالدة التي لا تنتصر للنفس والذات بقدر ما تنتصر للإسلام، إنها القيادة الرحيمة حتى بمن كانوا بالأمس أعداء... إنه الرسول الداعية الذي لا يجد الحقد على مقاوميه إلى نفسه سبيلا، فقد منَّ عليهم بعد كفاح دام بينه وبينهم إحدى وعشرين سنة، لم يتركوا طريقا للقضاء عليه وعلى أتباعه وعلى دعوته إلا سلكوه، فلما تم له النصر عليهم وفتح عاصمتهم لم يزد أن استغفر لهم وأطلق حريتهم.

إن هذا لا يصدر إلا عن رسول كريم لم يرد بدعوته ملكا ولا سيطرة، وإنما أراد أن يكون هاديا وفاتحا للعقول والقلوب»[1].

بل أظهر النبي ﷺ من التواضع لله عز وجل لما أتم الله عليه النعمة بفتح مكة ما لا نراه لدى أي منتصر حين ينتصر؛ فقد جاءه رجل يرتعد خوفا حين رآه، فقال له الرحمة المهداة: **«هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»**[2].

«هذه كلمة لو تأملها طالب الدليل القاطع على نبوته، لكان له منها أقوى حجة تفوق في سطوع دلالتها أعظم الخوارق؛ لأن رجلا يبلغ إلى هذه الدرجة من السلطان على الأجساد والقلوب يجرد نفسه مختارا من أرفع لقب لا تتطاول إليه أرفع الرءوس، لعلوه عن متناول أبعد المطامع، وقد تيسر له سبيله إلى حد أن كلمة منه تكفي لحصوله عليه، إن رجلا يبلغ إلى هذا الحد من التجرد عن الدنيا، لهو رجل لا يوفيه حقه أي وصف غير وصف النبوة»[3].

---

(١) الأستاذ محماس الجلعود: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية ٢/ ٥٩٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٢٤، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ١٠١ (١٨٠٨).

(٣) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ٢٧١.

فالحرب ليست للتشفي فالرفق ملازم المعركة ذاتها، ذلك أنها حرب نبوة وليست مغالبة ولا تناحرًا، ولقد قال رسول الله ﷺ في وصف دعوته وحربه: «**أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة**». والحق أن المرحمة والملحمة متلاقيتان، فما كانت الملحمة إلا لأجل المرحمة(١).

لكن الحرب في الإسلام ليست مجالًا لتصفية الحسابات والتشفي من المهزومين، لا ليس هذا هو منطق الإسلام في الحروب، ولا سمعنا عن أناس حاربوا المسلمين فلما دخلوا في الإسلام حاسبهم المسلمون على ما سلف منهم.

وكان لموقف الرسول ﷺ من القرشيين، أن دخلوا في دين الله أفواجًا أفواجًا، فقد أسلم في الأيام العشرة الأولى ألفا قرشي..... وكانت مدة مكوثه في مكة خمسة عشر يومًا أسلم فيها غالبية السكان، ولقد رأى منصفو المستشرقين بفتح مكة سلمًا الرد القاطع، والدليل الساطع على أن الإسلام ليس دين السيف وحسب، بل هو دين السلم كذلك، ومن هذه الأقوال اعتراف السير وليم موير، حين علق على هذه الحادثة التاريخية، بقوله: «على الرغم من أن البلدة رحبت بسلطانه ترحيبًا بهيجًا، فلم يكن جميع سكانها قد اعتنقوا الدين الجديد، ولم يكونوا قد اعترفوا رسميا بصحة دعواه النبوئية. ولعله عقد العزم على أن يسلك ههنا ذلك النهج الذي سلكه في المدينة، ويدع الناس يدخلون في الإسلام، شيئًا بعد شيء، من غير إكراه»(٢).

إن الإنسان إذا تحلى بالعفو والسماحة والرأفة في أوقات السلم، فسيكون الأمر مستساغا لا غرابة فيه، وسيعد من مكارم الأخلاق وأجزلها، لكن إذا لازمت هذه الأخلاق صاحبها في ميدان القتال وساحة الوغى، فسيكون أمرا يدعو إلى الدهشة،

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، العهد المكي، ص ٦٩٩.

(٢) وليم موير: حياة محمد، نقلا عن كتاب مولانا محمد علي، ص ٢٠٨.

والتأمل في هذا الدين الذي زكى هذه النفس وجعلها تتحمل ما لو فرط في تحمله لم يتوجه إليه لوم.

هل سجل التاريخ لإنسان يستصحب معه تلك القيم العالية في قتال أعدائه؟ هل عرف التاريخ أن إنسانا أراد أن يقتل عدوه في المعركة فلم يستطع، فلما تمكن منه عفا عنه؟

نعم، سجل التاريخ ذلك لنبي الإسلام ﷺ الرءوف الرحيم؛ فعن جابر رضي الله عنه، أنه غزا مع النبي ﷺ، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة، فعلق بها سيفه، ثم نام، فاستيقظ وعنده رجل وهو لا يشعر به، فقال النبي ﷺ لصحابته: **«إن هذا اخترط سيفي، فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فشام السيف، فها هو ذا جالس»**. ثم لم يعاقبه[1].

بل وجيء ﷺ برجل أراد أن يقتله فقال له: **«لم ترع، لم ترع[2]، ولو أردت ذلك لم تُسَلَّط علي»**[3].

إن كل قول من أقوال الرسول الكريم ﷺ وكل عمل من أعماله، يعد مبدأ من مبادئ تعليم الناس الخير، ففي غزوة حنين غنم النبي ﷺ غنائم كثيرة ملأت الأودية، وقدمت له بعد انقضاء المعركة، فتركها في مكانها، واستمر يتتبع فلول الأعداء يدعوهم إلى الخير، ويرفق بهم في الطائف، ويتركهم لله والرحم، وينتظر في قسمة الغنائم قرابة عشرين يوما لعل أهلها يأتون إليه مسلمين، ولكنهم لم يحضروا، فقسم النبي ﷺ الغنائم على الطريقة التي رسمها الله عز وجل، وبعد انتهاء القسمة جاءت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر ٤/ ٤٨، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف ١/ ٥٧٦ (٨٤٣).

(٢) أي لا خوف عليك. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٢٧٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢/ ٣١٩ (٢١٨٣).

وفود الأعداء المقاتلين فأعلنوا إسلامهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم، فقال لهم: **«أحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم»**. وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا، فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: **«أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»**. فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله ﷺ لهم. فقال رسول الله ﷺ: **«إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم»**. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[(١)].

هكذا تظهر محبة النبي ﷺ لإسلام غير المسلمين، فلم يوزع الغنائم بين الفاتحين بمجرد انهزامهم، بل استأنى بهم رجاء أن يأتوا مسلمين ولو بظاهر من القول تقريبا للنفوس، فما كان محمد ﷺ إلا هاديا يدعو إلى الإسلام، فرجاؤه رجاء هاد مرشد يريد القلوب، وليس رجاء محارب يريد الحرب لذاتها، فالنبي ﷺ قد رد السبايا مكرمات، وكساهن كسوة كريمة، فكساهن من القباطي، وأعطى كل واحدة منهن قبطية، ولسان حاله يقول: مغلوبين مكرمين[(٢)].

وكذلك أظهر النبي ﷺ من التسامح مع اليهود ما كان مضرب المثل في قمة العفو والإغضاء عن أخطاء الآخرين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وهب شيئا لوكيل أو شفيع قوم جاز ٣/ ١٣٠.

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، القسم الثاني العهد المدني، ص ١٢٦١.

فمن الغنائم التي غنمها المسلمون من اليهود في خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها من المسلمين، أمر الرسول ﷺ بتسليمها لهم[١].

«لقد رأى الرسول ﷺ أن من حق اليهود أن يعلموا أولادهم دينهم، وأن ترد إليهم كتبهم، ذلك شيء مختلف عن العداوة والتآمر والتحاسد، فالصراع بين طرفين له حدود، ولا ينبغي في المفهوم الإسلامي أن يلغي شرعية الطرف الآخر، ولا ينبغي أن يدفع المسلمين إلى انتهاك حدود الحصانة التي قررها القرآن للإنسان، ذلك أن حرية الاختيار حتى في الدين هو حق يكفله الإسلام للإنسان وإن كان عدوا متآمرا»[٢].

ويعلق أحد المستشرقين على هذه الحادثة قائلا: «ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس اليهود من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرونه بإزاء ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة سبعين؛ إذ حرَّقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا صحف التوراة، هذا هو الفرق الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام»[٣].

بل إنه ﷺ سمح لمن أجلاهم من اليهود عن المدينة بالرجوع إليها مرة أخرى[٤].

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٨١.

(٢) الأستاذ فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون، ص ٩١.

(٣) ولفنستون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٧٠، نقلا عن الدكتور جميل المصري: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، ص ١٣٧.

(٤) الدكتور جميل المصري: أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، ص ١٣٧.

وبعد استسلام بني قريظة وحكم سعد بن معاذ فيهم بالقتل جزاء خيانتهم للمدينة في وقت حرج مما كان يمكن أن يتسبب في إفناء مواطني المدينة جميعًا جاء الصحابي الجليل أحد خطباء المسلمين ثابت بن قيس بن شماس إلى النبي ﷺ يستشفع في الزبير بن باطا، وكان شيخا كبيرا قد عمي، وكان قد مَنَّ يوم بُعاث على ثابت بن قيس بن شماس وجز ناصيته، فلما كان هذا اليوم أراد أن يكافئه فجاءه فقال: هل تعرفني يا أبا عبد الرحمن؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك. فقال له ثابت: أريد أن أكافئك. فقال: إن الكريم يجزي الكريم. فذهب ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستطلقه فأطلقه له، ثم جاءه فأخبره فقال: شيخ كبير لا أهل ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فذهب إلى رسول الله ﷺ فاستطلق له امرأته وولده، فأطلقهم له. ثم جاءه فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فاستطلق مال الزبير بن باطا، فأطلقه له[1].

إن الإسلام لا تفارقه الرحمة في مرحلة من المراحل، فحتى بعد أن يثبت الجرم على صاحبه، يتحين الإسلام أي فرصة ولو واهية للعفو، فيهود بني قينقاع غدروا ونقضوا العهد المبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي. وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في موالي. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني». وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا، ثم قال: «ويحك أرسلني». قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي؛ أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٢.

غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»[1].

ونرى هنا أن العفو خرج من رسول الله ﷺ سجية، فمن المعلوم أن ابن أبي لم يكن له في قلب رسول الله ﷺ تلك المنزلة التي تجعله لديه الشافع المشفع. ولكن إيثار السلامة والعفو والتسامح طبع في رسول الله ﷺ.

إن تعامل النبي مع أعدائه ولو في أثناء القتال كان أساسه الرحمة وإرادة الخير لهم، فهو يريد ردهم إلى خالقهم، وها هو ﷺ تفيض منه الرحمة حين أسر المسلمون ثمامة، وكان مادة أهل مكة من قِبَل اليمامة، فلما أسلم كتب إلى أهل مكة - وهم يومئذ حرب للنبي ﷺ - أما والله الذي لا إله إلا هو لا يأتينكم طعام ولا حبة من قبل اليمامة حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فأضر ذلك بأهل مكة حتى كتبوا إلى رسول الله ﷺ - وهم حرب - فشكوا ذلك إليه، فكتب إلى ثمامة: أن لا تقطع عنهم موادهم التي كانت تأتيهم[2].

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبة ٢/ ٤٣٩.

الباب السابع

شبهات
حول موضوع الدراسة

تمهيد

إن الإسلام قد وجد طريقه إلى القلوب، وخالطت بشاشته النفوس، وقد دخل فيه كثير من اليهود والنصارى، حيث وجدوا في هذا الدين الكريم الأصولَ الصحيحةَ لليهودية والنصرانية، فآمنوا بمحمد وعيسى وموسى جميعا، واعتنقوا الإسلام عن رغبة وإعزاز بالحجة والإقناع.

وعلى الرغم من ذلك، فأنه بقيت بعض الطوائف من غير المسلمين حرصوا على التجريح في الإسلام ونبيه ﷺ، ولم يزدهم تطاول الأيام إلا افتراء على الرسالة العظمى وصاحبها الأمين، فلا يزالون حتى الآن يشنون حروبا من الأكاذيب ضد هذا الدين الحنيف، كلما سنحت لهم الفرصة.

إننا قد نلتمس العذر لحسني النوايا من غير المسلمين، لا سيما إذا كانت هذه الشبه تقدم على سبيل الاستفسار وطلب إزالة الشبه، ونقبل منهم العذر إذا كانوا على هذا النحو لأنهم بطبيعة خلفياتهم الثقافية والعقيدية غير مهيئين من الأساس لاستقبال توجيهات الإسلام في صورته الصحيحة، نظرا لما توارثوه عن آبائهم من عداء للإسلام أصم أسماعهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤية الدليل، ونقبل منهم العذر أيضا لأنهم قاسوا الإسلام بمقاييس ما يدينون به، والبون شاسع، فهؤلاء نقبل منهم العذر مع دعوتهم للبحث عن الحقائق فقط بكل موضوعية وحياد، كما تدعو إلى ذلك مناهج البحث الحديثة.

أما من لا نقبل لهم عذرا، فهؤلاء الذين درسوا الإسلام وفي أنفسهم رواسب من الحقد الديني ضده وضد من يدين به، لقد كان من الممكن لو جاءت دراسات هؤلاء

عن الإسلام ملتزمة بالحيدة والموضوعية كان يمكن أن يصبح لها أجلّ الثمرات ولأفاد منها العالم أجمع.

إلا أن هؤلاء مع الأسف خدم للاستعمار، ونحن نحملهم اللائمة كاملة لفقدانهم الأمانة العلمية، والنزاهة النفسية فيما كتبوا عن القرآن، وعن النبي ﷺ وعن الإسلام وتاريخه.

فالباحث كما تزعم مدارسهم المنهجية يدخل ميدان البحث، وهو خلو من كل غرض، بعيد عن أي تحيز، ثم يستعرض ما جمعه من معلومات، ثم يرجح ما رآه صحيحا بالأدلة والبراهين، ويستبعد الفروض التي لم يثبتها دليل، ولم يشفع لها برهان.

أما أن يأتي مستشرق يدعي حرية الرأي، فيتناول التراث الإسلامي كله، وهو ينوء تحت وقر من الترهات، فيسوغ هذه الترهات في قالب من البحث غير الأمين، ثم يزعم أنه أتى ببحث حر بعد دراسة طويلة الأمد، على هذا الأساس، فذلك ما ينظر إليه بعين الازدراء والسخرية.

وعلى أية حال فقد انطلق هؤلاء يصفون الإسلام ونبيه بأقبح الخصال، ومن بين ما افتروه على هذا الدين:

- أن الإسلام ما انتشر إلا بحد السيف.
- أن هدف النبي ﷺ وأصحابه من هذه الفتوحات إنما كان غرضه اقتصاديا بحتا، فاتهموا النبي ﷺ وصحابته الكرام بأنهم قوم أضراهم الجوع، فما الفتوحات الإسلامية إلا غارة عربية قامت بها قبائل كانت تشتغل قبل ذلك بالسلب والنهب.
- مهاجمة عير قريش تدل على ابتداء المسلمين بالحرب ودعوة قريش للنزال.

- الحروب دلالة على نفي نبوة محمد ﷺ.
- كذلك زعموا أن التاريخ الإسلامي على مداره كان تاريخ هضم وظلم لغير المسلمين، وأنه قد أساء إلى مخالفيه.
- قسوة المعاملة التي عومل بها يهود بني قريظة تتنافى مع ما يزعمه الإسلام من روح التسامح التي يتحلى بها.

هذه قضايا مختلقة تتعلق بموضوع هذه الدراسة، وغير ذلك من الافتراءات التي قد لا تكون في مثل صلة هذه الافتراءات بموضوع هذا البحث.

وهي قضايا كما ترى قديمة حديثة تدل على أن دراسة مثل هذا الصنف للإسلام دراسة غير جادة لا تبغي الحقيقة العلمية.

ويأتي ردنا على هذه الافتراءات لا لأننا في حاجة إلى إزالة شبهات علقت بأذهاننا، فإننا على يقين تام بأن بطلان هذه الافتراءات يغني عن إبطالها، بل إننا على يقين أيضا بأن مروجي هذه الافتراءات يوقنون بأنها كذب وافتراء، وأن الإسلام ونبيه ﷺ منزهان عما يُنسب إليهما من هذه الشبهات.

ولكن يأتي ردنا عليها مصحوبا بنتائج دراسات قام بها باحثون غير مسلمين، كما سنرفق بهذا الرد اعترافات وشهادات علمائهم ومفكريهم.

على أننا كذلك لا نفتقر إلى هذه الشهادات، أو أننا في حاجة إلى التدليل بها، ولكن لتكون حجة عليهم، ولنثبت أن الباحث المحايد إذا بذل أدنى عناية في البحث انكشف له من الحقائق ما لا يمكن لعاقل أن ينكرها.

الرد على فكرة انتشار الإسلام بحد السيف

هذا الزعم، الذي يئول إلى أن الرسول ﷺ قد أكره الناس على الدخول في الإسلام، زعم باطل من ناحيتين:

الأولى: أن الواقع يكذبه على نحو، فالتاريخ حافل بالحوادث التي لا يمكن معها إقرار هذه الفرية.

الثانية: أن منهج الإسلام لا يقر الدخول في الإسلام عن طريق الإكراه؛ لأنه ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1]. على حسب ما هو مقرر في القرآن الكريم، فغير المسلم إذا دخل الإسلام عن طريق الإكراه فإسلامه غير صحيح.

قال ابن قدامة: وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه؛ كالذمي والمستأمن، فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام، حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعا[2].

والحق أن الذي يدعي أن الإسلام انتشر بالسيف، إنما يريد تنفير الشعوب غير المسلمة عن الدخول في الإسلام كرد فعل لما يراه من دخول الكثير منهم فيه، فالذي يروج هذه الافتراءات إنما يحاول إيقاف المد الإسلامي، الذي ما زال يخرج الكثير من غير المسلمين إلى أنوار التوحيد والإيمان، كما أن كثيرا من أبواق التنصير في أرجاء العالم ظهر فشلها في استقطاب المسلمين وردهم عن دينهم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) المغني ١٢/ ٢٩١.

فإذا كان الإسلام انتشر بالسيف كما يزعم الزاعمون، فلماذا يغزو أوربا الآن ويهتدي إليه كثير من العلماء والقساوسة، بالرغم مما فيه المسلمون الآن من عدم تمكينهم من الدعوة إلى الإسلام، ثم كيف كان إسلام الأولين مثل أبي بكر وعمر وأبي ذر، فهل كان النبي ﷺ بيده سيف حتى أدخل هذا العدد الغفير في الإسلام، ثم أكبر دليل على عدم صدق هذا الزعم بقاء غير المسلمين على دينهم حتى الآن. يقول توماس أرنولد: «... نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة يشاهد على هذا التسامح»[1].

ويقول المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام في عهد النبي ﷺ وفي عصور الفتوحات من بعده: «قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشارًا في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا في الوقت الحاضر»[2].

هذا وقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل في الإسلام خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن لدى رسول الله ﷺ

(١) سير ت. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٥١.
(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١٢٨، ١٢٩.

ثروة عظيمة يغري بها هؤلاء الداخلين، ولم يكن إلا الدعوة، والدعوة وحدها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمَّل المسلمون - لا سيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم - من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الجبال الرواسي عن تحمله، فما صرفهم ذلك عن دينهم وما تزعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة في الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحدًا منهم ارتدّ سخطًا عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء.

والحقيقة أنه لم يدرس إنسان عاقل يخلص في البحث عن الحق الإسلامَ إلا انقاد للإسلام وانشرح صدره لهذا الدين، واللافت للنظر أن أكثرهم من القساوسة.

وتحوي قائمة المهتدين للإسلام أعدادا كبيرة تجل عن الحصر وأكثرهم من العلماء والمفكرين؛ يقول برنارد شو: «إن الإسلام يستحق الاحترام والإجلال؛ لأنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، وهو خالد خلود الأبد، وإني أرى كثيرا من بني قومي من العلماء قد دخلوا هذا الدين على بينة من أمرهم، ومستقبلا سيجد هذا الدين مجاله الفسيح في كل أنحاء أوربا، وقد درست سيرة محمد فوجدته بعيدا عن مخاصمة المسيح، ويمكن بحق أن نعتبر محمدا منقذا للإنسانية، وأعتقد أن رجلا مثله لو حكم العالم بآثاره وخلقه لجلب للعالم السلام والسعادة...»[1].

ويقول السير توماس أرنولد: «وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق...»[2].

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء السادس، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ سبتمبر ٢٠٠٠م، ص ٨٣٥.

(٢) سير ت. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٥.

ويقول أيضا: «ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دين الإسلام من أسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتي مذهبا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالا تاما عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين، ولهذا فإن بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم»[1].

ويقول مسيو إدوارد مونتيه: «.. لقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة، وقلما توجد، بل لا توجد أبدا ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار، وأن ما صادفه الإسلام من أول عهده كان عظيما وباهرا، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التي وطدت سلطة نبي الإسلام ﷺ وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب.. ولقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى القوة والسيف في عهد محمد وعهد خلفائه الأولين - يعني الخلفاء الأربعة - ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع»[2].

وتقول كاتبة إنجليزية في جريدة الناقد السورية، وقد طلبت الكاتبة من الجريدة عدم ذكر اسمها: «.. يقولون: إن دين محمد عليه السلام دين السيف. مع أن دين

(١) السابق: ص ٧٣، ٧٤.

(٢) محمد فهمي: محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير كتابه، ص ١٧.

محمد دين القوة الإلهية»[1].

وتتوالى هذه الشهادات إلى حد يصعب استقصاؤه، على أن العاقل لا يقول: كيف انتشر؟ بل يقول: ما الذي انتشر؟ هل هو الحق أم الباطل؟ ثم يترك عقله وفطرته يجيبان، فإذا تيقن أن الله أمره ونهاه، فإنه لا يملك بعد ذلك إن كان مؤمنا إلا أن ينقاد إلى دين الله. يقول: توماس كارليل: «أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان، أم بأي طريقة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها...».

ويقول أيضا في كتابه الأبطال: «لقد أصبح من أكبر العار على أي متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى أناس حاقدين كاذبين على محمد، وآن لنا أن نحارب مزاعمهم السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا..»[2].

إن إعطاء الإنسان الحرية الكاملة في اختياره عقيدته وعدم إجباره على تغيير دينه بأي واسطة من وسائط الإكراه، ثمرة من ثمار محمد ﷺ، إن العرب هذا الشعب كان يمكن أن يمثل في حال النصر الدور الذي مثله التتار فيما بعد من قتل جماعي ومحو للحضارة، ولكن العرب على العكس من ذلك، مثلوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة، أن عملية الجهاد المستمر والتضحيات الكثيرة التي بذلت من أجل نشر دين الله مع إعطاء الفرد الحرية الكاملة في اختيار عقيدته دون إكراه، لدليل على أن محمدا رسول الله حقا، فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافى مع الحرب تصوراتهم معكوسة، فإن حرب الأنبياء وحدها هي الحرب

(١) السابق: ص ٢٦.

(٢) مجلة الأزهر: مرجع سابق، ص ٨٣٧.

المعقولة في العالم، إذ إن الحياة البشرية لا تستقيم إلا على قانون الله وشريعته، والذين ينكرون على الرسول الجهاد في سبيل الله إما ملحدون وهؤلاء أصغر من أن يرد عليهم؛ لأن القتل والخراب الذي يحدث على أيديهم يندى له جبين الوحوش، وإما أهل كتاب كاليهود والنصارى وهؤلاء يناقدون أنفسهم، فإن في التوراة التي يؤمن بها جميعهم ما يدل على أن الأنبياء جاهدوا في سبيل الله[1].

إن «حرية التدين هي أخطر صور الحرية الفكرية وأشدها حساسية، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية التفكير.. وحرية ممارسة الدين وشعائره هي أخطر صور إعلان الرأي، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية الرأي والتعبير»[2].

(١) الأستاذ سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص ١٢٥.

(٢) الدكتور محمد فتحي عثمان: من أصول الفكر السياسي، ص ٢٣٣.

الرد على فكرة أن الهدف من حروب الرسول ﷺ وصحابته هو الغنائم

«لأن يهدي الله بك رجلا، خير من أن يكون لك حمر النعم»[1].

هذا ما أعلنه النبي ﷺ ليحدد لجنوده بواعث رسالته، وأنها في المقام الأول إنما هي لهداية الناس، وكثير من الحوادث سواء منها ما حدث في عهد النبي ﷺ أو تأخر إلى بعد وفاته، تدل على ما نقول؛ فمثلا في غزوة حنين ماذا حدث بعد انتصار المسلمين؟ لقد غنم المسلمون في هذه المعركة غنائم كثيرة ملأت الأودية، وقدمت للنبي ﷺ بعد انقضاء المعركة، فتركها في مكانها، واستمر يتتبع فلول الأعداء يدعوهم إلى الخير، ويرفق بهم في الطائف، ويتركهم لله والرحم، وينتظر في قسمة الغنائم قرابة عشرين يوما لعل أهلها يأتون إليه مسلمين، ولكنهم لم يحضروا، فقسم النبي ﷺ الغنائم على الطريقة التي رسمها الله عز وجل، وبعد انتهاء القسمة جاءت وفود الأعداء المقاتلين فأعلنوا إسلامهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم، فقال لهم: **«أحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم»**.

وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا، فإنا نختار سبينا،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل ٤/ ٧٣، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ٤/ ١٨٧(٢٤٠٦).

فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: **«أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»**. فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله ﷺ لهم. فقال رسول الله ﷺ: **«إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم»**. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا.

هذا ما حدث أول الأمر، أما في توزيع الغنائم فقد تألف الرسول ﷺ بمعظمها أناسا أسلموا بأفواههم ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يعط الأنصار الذين كان لهم فضل كبير في هذا الانتصار، وتعرضوا لأفدح الأهوال في تأييد دعوته.

«فلو كان أمر المجتمع الإسلامي قائما على هذه الأغراض الزائلة لكفى هذا العمل في حل جماعته، أو على القليل لحدثت فتنة تعرض وجودهم للخطر، وقد شوهد أنه لم يحدث شيء من ذلك.

على أن من يرجع للتعاقد الذي حدث بين رسول الله والذين انتدبوا لحماية دعوته من أهل يثرب، يرى أنهم لم يعطوا مقابلا لجهادهم غير ثواب الآخرة؛ فإنهم لما اجتمعوا في الهزيع الأخير من الليل في بعض شعاب مكة، وعرض عليهم النبي ﷺ ما يطلب منهم أن يبذلوه من التضحيات في سبيل الإسلام، سألوا: وما لنا على ذلك يا رسول الله؟ فقال لهم: **«الجنة»**. فأجابوه: رضينا بذلك. وانصرفوا.

وقد نزل في ذلك قرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

فهو لم يشتر منهم أنفسهم فحسب، بل وأموالهم أيضا، مقابل أن يتفضل عليهم بالجنة.

ومن هنا يتبين أن هذا الدين قام على أثبت ما يقوم عليه بناء مجتمع، وهو الإيمان مجردا عن المطامع الدنيوية، وهذا سر بقائه إلى اليوم أيضا»[1].

ولقد وعى جنود النبي ﷺ هذا المقصد جيدا فهذا أبو عبيدة رضي الله عنه بلغه أن هرقل جمع الجموع لمهاجمة المسلمين، فاضطر إلى تجميع قواته لمواجهته، فكتب إلى عمال المدن المفتوحة يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط. وبذلك ردت مبالغ طائلة من أموال الدولة، فدعا غير المسلمين بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: ردكم الله علينا، ونصركم عليهم «الروم» فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا، وأخذوا كل شيء بقي لنا[2].

هذا هو موقف الإسلام النبيل الذي يرد من يزعم أن الجزية والغنائم كانا من الأهداف الأساسية للفتوحات الإسلامية[3].

وموقف أبي عبيدة هذا واحد من مئات المواقف، التي تدل على فهم المسلمين لأهداف رسالتهم، وأن الجزية إنما كانوا يتقاضونها لما يتمتع به غير المسلمين من خدمات الدولة وحمايتها من أي عدوان عليهم، كما أن الإسلام يعفي الكثير من أخذ

(١) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ٢٨٦.

(٢) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص ٢٩٩.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٧٣.

الجزية يقول ابن الجوزي: «فأما صفة الذين تؤخذ منهم الجزية، فهم أهل القتال. فأما الزَّمِنُ، والأعمى والمفلوج، والشيخ الفاني، والنساء، والصبيان، والراهب الذي لا يخالط الناس، فلا تؤخذ منهم»[1].

بل ورد أن المسلمين كانوا يألمون إذا آل الأمر بغير المسلمين أن يفضلوا تأدية الجزية على الدخول في الإسلام، لأنهم يدركون أن النبي ﷺ قد أرسلهم هداة ولم يرسلهم جباة، فهذا خالد رضي الله عنه، يغري أهل الحيرة بالدخول في الإسلام ويرجو أن يرضوا به عن أي خيار آخر، فيخلو برئيسهم ويقول له: ويحكم ما أنتم؟ أعرب فما تنقمون من العرب؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ فقال له عدي: بل عرب عاربة وأخرى متعربة. فقال: لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا. فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية. فقال: صدقت. وقال: اختاروا واحدة من ثلاث أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم في دياركم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة؛ فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة. فقال: بل نعطيك الجزية. فقال خالد: تبا لكم، ويحكم إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها[2].

وأخذ الجزية له عدة أهداف:

أولها: أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق.

وثانيها: أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم،

(١) زاد المسير ٣/ ١٦٦، وانظر: كتاب الخراج لأبي يوسف، ص ٢٧٢.

(٢) تاريخ ابن جرير الطبري ٢/ ٣١٦.

ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها: المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمة، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة.

ولقد سجل خالد بن الوليد في المعاهدة التي أبرمها مع أهالي بعض المدن المجاورة للحيرة أن الجزية مقابل الحماية فقال: «فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم»[1].

بل ولما عاهد خالد أهل الحيرة جاء في عهده: وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا ثم افتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار المسلمين[2].

هكذا رأى المسلمون في دينهم أنه يأمرهم بالنفقة على غير القادر من غير المسلمين على الكسب، فقد مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل، وكان شيخا أعمى ويبدو عليه أنه ذمي فضرب عمر بعضده، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي، قال: وما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأعطاه شيئا مما عنده، ثم استقدم خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾[3] وهذا من المساكين من أهل الكتاب، فله

(١) السابق ٢/ ٣١٩.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ١٤٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

حق في الصدقة ووضع عنه الجزية وعن أمثاله، واجعل له رزقا في بيت المال[1].

من هذه الوقائع وهي قليل من كثير ندرك صيانة الإسلام للعلاقات الإنسانية مع مخالفيه رغبة في التعايش السلمي معهم، فلم يكن الإسلام حريصا على إيذائهم، بل كان هدفه دعوتهم إلى دين الله ودخولهم في الإسلام، وبالفعل دخل عدد كبير جدا منهم الإسلام بسبب تعاليم الإسلام التي احترمها المسلمون الأوائل واعتنقوها دينا وتحركوا وفق إرشاداتها.

يقول الفيلسوف الإنجليزي توماس كاريل: «أيزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمدا وأثاره؟ وهذا الزعم حماقة وايم الله، وسخافة وهوس.. أي فائدة أو حاجة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما في الدنيا من تيجان وصوالج؟؟ وأين تعبير الممالك والتيجان والدول جميعا بعد حين من الدهر.. لقد كان محمد عليه السلام زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر حياته وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز بل التمر والماء، وربما كان يصلح ويرفو ثوبه بيده، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة»[2].

بل ثبت عنه ﷺ أنه لم يترك عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا شيئا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضا تركها صدقة[3].

كما أن الغنائم التي يأخذها المنتصر، فإن ذلك قانون الحروب ولا يقتصر على المسلمين فحسب، ثم نسأل: ماذا غيرت هذه الغنائم من شخصية محمد ﷺ، هل

(١) أبو يوسف: الخراج، ص ٢٧٨.

(٢) توماس كاريل: الرسالة المحمدية، نقلا عن الأستاذ محمد فهمي: محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير كتابه، ص ٢٢، ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي ﷺ: وصية الرجل مكتوبة عنده ٣/ ١٨٦.

تكبر كما يفعل المتكبرون؟! يجيب على هذا السؤال السير فلكد الأمريكي المعروف فيقول: «إن هذه الفتوحات والانتصارات لم توقظ في شعوره العظمة والكبرياء. ففي ذلك الوقت الذي وصل فيه إلى غاية القوة والسيطرة، كان على حالته الأولى في معاملته ومظهره، حتى بالرغم من الغنائم وغيرها، فإنه كان يصرفها على نشر دعوته ومساعدة الفقراء»[١].

ثم ما هدف النبي ﷺ، هل أراد الجاه، هل أراد السلطان، هل حصل على شيء لنفسه أو لذويه؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة واضحة كل الوضوح لمن يفتح صفحات التاريخ، فقد كان ﷺ غنيًّا بمال زوجته، ولكنه رهن درعه عند يهودي قبل وفاته، بل لقد عرض عليه قومه المال والسلطان، ولكنه رفض وقاسى من أجل النبوة ألوانا من العناء والتنكيل.

وماذا ترك لأقاربه وذويه، إنه ﷺ قد وضع حدا من حدود النبوة قبل موته قائلا: **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة»**[٢].

ونختم هذه الجزئية بهذا الحديث القوي في الدلالة، والذي يعبر عن زهده ﷺ، فقد دخل عليه عمر بن الخطاب وهو مضطجع على حصير، فجلس، فإذا عليه إزاره[٣]، وليس عليه غيره، فإذا الحصير قد أثر في جنبه ﷺ، فنظرعمر ببصره في خزانة

(١) الأستاذ محمد فهمي: محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير كتابه، ص٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة» ٨/ ١٨٥، ومسلم، كتاب الجهاد، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة». ٥/ ١٥١(١٧٥٩).

(٣) الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. لسان العرب مادة (أ ز ر).

رسول الله ﷺ فإذا هو بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا[1] في ناحية الغرفة، وإذا أفيق[2] معلق. قال: فابتدرت عينا عمر من البكاء قال: **«ما يبكيك يابن الخطاب؟»** فقال: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك؟ وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى؟ وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله وصفوته، وهذه خزانتك؟ قال: **«يابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»**[3].

الشبه الواردة على مهاجمة عير قريش قبل غزوة بدر

يدعي البعض أنها تعد بمثابة مناوشات لقريش، أو دعوة لها إلى النزال وأن المسلمين بهذا الفعل هم الذين بدءوا بالقتال.

وهذا الاتهام بعيد عن الصواب؛ فإن عير قريش كانت تسير في طريقها آمنة حتى بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وأنه رغم معرفة المسلمين لحقهم المسلوب لدى قريش لكنهم لم يفكروا في مسألة الإغارة على عير قريش إلا بعد أن أعلنت قريش الحرب على دولة المدينة، وهذا الإعلان يتمثل في عدة حوادث، نوجزها فيما يلي:

أولا: تعرض أبي جهل لسعد بن معاذ أثناء عمرته في مكة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدث عن سعد بن معاذ، أنه كان صديقا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرا، فنزل على أمية بمكة،

---

(١) القرظ: ورق شجر السلم يدبغ به. لسان العرب مادة (ق ر ظ).

(٢) الأفيق: سقاء من الجلد الذي لم يدبغ، أو جراب من الجلد غير المدبوغ. لسان العرب مادة (ف ي ق).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ١/ ١٥٦ (١٥٣).

فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت. فخرج به قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما. فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه؛ طريقك على المدينة[1].

تدل هذه الواقعة على أن أبا جهل يعتبر سعد بن معاذ من أهل الحرب بالنسبة إلى قريش، ولولا أنه دخل مكة في أمان زعيم من زعمائها لأهدر دمه، وهذا تصرف جديد من رؤساء مكة حيال أهل المدينة، لم يكن قبل الدولة الإسلامية فيها.

فلم يكن أحد من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمان لكي يسمح له بالدخول إلى مكة ! بل إن قريشا كانت تكره أن تفكر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد، وقالوا في هذا الصدد يخاطبون أهل المدينة ما نصه: والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم[2].

كما تدل هذه القصة على أن قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشام كانت في أمان إلى حدوث هذه الواقعة، وإلا ما ترك أبو جهل سعدا، فيتبين أن القوافل آمنة لا تتعرض لها الدولة الإسلامية بمكروه. أي: كانت الدولة الإسلامية إلى هذا الوقت لم تعامل أهل مكة معاملة أهل الحرب، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصادي، ولم تصادر لهم أية قافلة، أو تقصدها بسوء ! ومعنى هذا أن الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت، وأعلنت الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر ٦/ ١٠١.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤٤٨.

واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يسمح لهم بدخول مكة إلا بصفتهم مستأمنين[1].

ثانيا: أما الحادثة الثانية - أو قل الدليل الثاني - على مبادرة رؤساء مكة في إعلان الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة ما جاء في سنن أبي داود:

أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**». فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[2].

كانت هذه الحوادث كما ذكرنا بمثابة إعلان الحرب من قبل قريش على الدولة الإسلامية قبل غزوة بدر الكبرى.

أضف إلى ذلك أن «المجاهدين في هذه السرايا كانوا من المهاجرين فقط، وقد عللت الروايات أن عهد الأنصار للنبي ﷺ كان للدفاع والحماية في دارهم، وكان الثأر بين المهاجرين والمشركين فقط لسابق ما سلف منهم ضدهم، فلم يندب النبي ﷺ إلا المهاجرين وهو تعليل وجيه»[3].

الشبه الواردة على موقف النبي ﷺ من يهود بني قريظة

لما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرا وادع يهود كلها، وكتب بينه وبينهم كتابا، وجعل

---

(1) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية ١/ ٦١٦.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والفيء، باب في خبر النضير ٢/ ١٧١(٣٠٠٤).

(3) الأستاذ محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ، صور مقتبسة من القرآن الكريم، ص ٣٢١.

بينه وبينهم أمانا، وشرط عليهم شروطا؛ منها ألا يظاهروا عليه عدوا، وينصروه ممن دهمه.

وكان يهود المدينة ثلاث طوائف هم: بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة. فأما بنو قينقاع فقد أجلاهم النبي ﷺ من المدينة إلى أذرعات وهي مدينة بأطراف الشام، وأما بنو النضير فقد أجلاهم من المدينة بعد سبعة وثلاثين شهرا من الهجرة بسبب خيانتهم ونقضهم العهد، وقد نزل بعضهم بخيبر، وذهب البعض الآخر إلى الشام.

إلا أن هؤلاء اليهود بالرغم من إجلائهم عن المدينة، لم يكفوا عن عداوتهم للنبي ﷺ والكيد له، ومن كيدهم أن نفرا منهم ذهبوا إلى قريش مع بعض رؤسائهم من بني النضير مثل حيي بن أخطب، يحرضون قريشا على مهاجمة المدينة ومقاتلة المسلمين، ويعدونهم بالنصر فأجابوهم إلى ذلك، ثم ذهب هؤلاء اليهود إلى قبيلة غطفان وهيجوهم على قتال المسلمين، وأعلموهم بعزم قريش على مهاجمة المسلمين فأجابوهم إلى طلبهم.

وهكذا تجمع المشركون وتوجهوا إلى المدينة يريدون قتال النبي ﷺ والمسلمين، وعلم النبي ﷺ بمقدمهم، فأمر أصحابه بحفر الخندق حول المدينة لصد المشركين، ومنعهم من دخول المدينة.

ولم يكتف اليهودي حيي بن أخطب بما فعل، بل قدم على بني قريظة في حصونهم وما زال يحرضهم على نقض عهدهم مع النبي ﷺ، ذلك العهد الذي يلزمهم بنصرة المسلمين ضد من يريد مهاجمة المدينة، أو وقوفهم على الحياد على الأقل، حتى استجاب يهود بني قريظة إلى تحريضه، فأعلنوا الخيانة ونقض العهد والتعاون مع الأحزاب، وهم المشركون المحاصرون للمدينة، مما جعل الوطئة شديدة على المسلمين، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن

فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

يقول الحافظ ابن كثير: إن الذين جاءوا من أسفل المؤمنين هم بنو قريظة لما نقضوا العهد[2].

وأخذت بنو قريظة ترسل جماعات منها للإغارة على المدينة، فأرسل النبي ﷺ قسما من جند المسلمين إلى المدينة لمقابلة اليهود المغيرين عليها وردهم عنها حفاظا على الذراري والنساء فيها؛ إذ كان خوف المسلمين على هؤلاء من هجمات اليهود أشد من خوفهم من هجمات قريش وغطفان من خلف الخندق.

وبعد أن رد الله تعالى الأحزاب عن المدينة، وزال الحصار المضروب على المسلمين، توجه النبي ﷺ والمسلمون معه إلى بني قريظة ليضعوا حدا لخيانتهم، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة، فلما اشتد الحصار عليهم، وأبوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وكانوا يطمعون في ميله إليهم باعتباره سيد الأوس، وكانوا حلفاءهم في الجاهلية.

وقد رضي الرسول ﷺ أن يكون الحكم بينه وبين بني قريظة سعد بن معاذ، فقال له النبي ﷺ: **«إن هؤلاء نزلوا على حكمك»**. قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية. فقال ﷺ: **«لقد حكمت فيهم بحكم الملك»**[3].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٤/ ١٥٨، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم ٣/ ١٣٨٩ (١٧٦٩).

وقد نفذ النبي ﷺ فيهم حكم سعد بن معاذ؛ فقتل مقاتلتهم، وكان عددهم أربعمائة، وقيل: ستمائة أو سبعمائة[1].

تقدير هذه المعاملة:

زعم بعض أعداء الإسلام أن معاملة النبي ﷺ لبني قريظة كانت قاسية جدا، وبعيدة عن العدل، وكان يسعه أن يجليهم عن المدينة كما فعل مع بني النضير وبني قينقاع.

والواقع أن هذا الادعاء باطل، وبعيد عن الموضوعية وعن العدل الذي يطالبون به، وذلك للأسباب الآتية:

أولا: أن العقوبة تكون عادلة إذا كانت بقدر الجريمة، فهل كانت عقوبة بني قريظة بقدر جريمتهم؟

والجواب: أن هذه المساواة لا يمكن أن تتضح إلا بعد كشف الغطاء عن جسامة جريمة بني قريظة، فمن العرض السابق لخيانتهم ونقضهم يتبين الآتي:

١- جاء المشركون بجيش كثيف، وضربوا الحصار على المدينة بغية استئصال شأفة المسلمين.

٢- أن موقف المسلمين كان حرجا وخطيرا جدا، فهم في موقف الدفاع وراء الخندق، وعددهم أقل من عدد المشركين المهاجمين.

٣- كان بين صفوف المسلمين مرجفون ومنافقون.

٤- أن العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين اليهود ينص على أن من كان عدوا للنبي ﷺ يكون عدوا لليهود، فلا يجار قرشي و لا من يناصر قريشا، فعلى اليهود ألا يوالوا المشركين؛ لأنهم أعداء النبي ﷺ، وذلك

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٩٢.

لأن الميثاق يجعل عدو أهل المدينة من المسلمين واليهود واحدا؛ ليكون الأمن للجميع واحدا، فمن هاجم فريقا من أهل المدينة فقد هاجم المدينة كلها، وذلك بلا ريب يلزم اليهود لأن الوثيقة أعطتهم حقوقا، وأوجبت عليهم واجبات، فإذا أخلوا بما يجب عليهم فقد أسقطوا ما لهم من حقوق.

وقد وفى المسلمون بذلك العهد؛ لأن الميثاق يوجب الوفاء من الجانبين، فإن أخلَّ أحدهما ذهبت الحقوق التي تضمنتها الوثيقة، وإذا كان الإخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية وهي موالاة اليهود للمشركين ضد المسلمين، فإنه بذلك تزول صفة الجوار، ويكون من الواجب على من ينكث العهد أن يترك هذا الجوار، ويتخلى عن الإقامة في المدينة، كما يحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها، فإن لم يفعل فله أن يحمي ظهره ولو بقتله؛ لأنه صار عدوا في حالة حرب.

٥- أن يهود بني قريظة لم تقف على الحياد إن لم تشارك في الدفاع عن المدينة كما هو منصوص في العقد بل هاجموا النبي وشنوا الغارة على المسلمين، مما أظهر ما في خبيئة نفوسهم أنهم يريدون محو الدين.

٦- نشط المنافقون فأخذوا يرجفون ويثبطون عزائم المسلمين، ويشيعون الوهن بحجة أن بني قريظة دخلت الحرب مع المشركين ضد المسلمين، وأن هزيمة المسلمين لا شك فيها.

٧- اضطر المسلمون إلى المحاربة في جبهتين رغم قلة عددهم بالنسبة للمشركين، مما جعل قوة المسلمين مشتتة بين الجبهتين.

هكذا لم يجنح النبي ﷺ لما فعله إلا بعد أن ظهرت بوادر الغدر والخيانة منهم المرة تلو الأخرى، ومن ثم لا نقبل تخرص أعداء الدين فيما يدعون من أن محمدا ﷺ قد اتجه إلى إقصاء اليهود من المدينة لمجرد أنهم يهود.

على أنه لا نعدم بين الحين والآخر أن تظهر كلمة حق على ألسنة البعض، ومن ذلك ما كتبه الباحث الإنجليزي مونتجومري وات بشأن المعاهدة التي أجازت لليهود الإقامة جنبا إلى جنب مع المسلمين، يقول: «... إن استمرار بقاء اليهود في المدينة وإن كانوا أقلية، يكفي للدلالة على خطأ الباحثين الأوروبيين الذين يقولون: إن محمدا اتخذ في السنة الثانية للهجرة مبدأ يقضي بإقصاء كل اليهود عنها لمجرد أنهم يهود، وأنه استمر في هذه السياسة بلا هوادة. بل إن هذه لم تكن وسيلته ولا سياسته، فقد كانت له دائما نظرة متوازنة إلى المواقف، وكان يكيف الأمور طبقا للظروف المتغيرة دون التزام بموقف واحد متجمد، وقد كانت مهاجمته لقبيلتين يهوديتين لا تعدو أن تكون نتاجا لموقف اليهود أنفسهم الذين كانوا يهدفون إلى الإساءة على الإسلام؛ بإنكار الوحي والنقد لنصوص القرآن، كما أنهم كانوا يؤيدون أعداء محمد ويتحالفون معهم، والذين لم يلجئوا منهم لهذه السياسة هم الذين سمح لهم بالبقاء في المدينة، وكم كان يمكن أن يتغير تاريخ البشرية لو أن اليهود وهم أصحاب ديانة توحيدية أمكنهم أن يصالحوه أو يتعاونوا معه»[1].

تكييف جريمة بني قريظة:

في ضوء ما بيناه يمكن القول بأن أقل ما توصف به جريمة بني قريظة هو وصف الخيانة

(1) مونتجومري وات: محمد النبي ورجل الدولة، عرض الأستاذ محمد الحديدي، مجلة الهلال، يناير ١٩٧٩م، ص ٩٢ (نقلا عن الدكتور إدوار غالي الذهبي: معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ٤٨).

العظمى ضد الدولة، في الوقت الذي كان يحاصرها فيه عدو قوي، مع نقض العهد في أحرج الظروف، ومع مقاتلة المسلمين ومعاونة الأعداء المحاصرين للمدينة(١).

الأمر الذي جعل «التنكيل عملا لا معدى عنه، على أن يكون متناسبا مع شدة الخطورة التي أحدقت بالمسلمين، وإذا لاحظنا أن مظاهرة اليهود للغزاة كانت نتيجة للحلف الذي وفد اليهود إلى مكة بقصد القضاء المبرم على النبي والمسلمين، واغتناما لفرصة ما حل بهم من ضعف بعد وقعة أحد، بدا بعد مدى الموقف اليهودي وخطورته وشدة نكاية نيتهم المبيتة، ووضح الحق في صحة تبرير التنكيل الواقع، وسفه المغرضين في غمز النبي ﷺ؛ لأنه جاء قاسيا لا هوادة فيه»(٢).

يضاف إلى جسامة جريمتهم هذه إصرارهم على عداوتهم، وإظهار هذه العداوة للنبي ﷺ، ولم يفكروا في إظهار الندم ولو على سبيل المجاملة على خيانتهم، ولم يطلبوا العفو من النبي ﷺ، ولم يقدموا أي عذر، يدل على ذلك أن طلائع المسلمين بقيادة علي بن أبي طالب التي وصلت حصون بني قريظة قبل أن يصل النبي ﷺ ومن معه إلى هذه الحصون، قوبلت بالشتم والسباب، والنيل من النبي ﷺ(٣).

ومع إصرارهم على عداوتهم للنبي ﷺ، رفضوا النزول على حكمه، واختاروا سعد بن معاذ ليكون هو الحكم، وقد رضي رسول الله ﷺ بذلك فحكم فيهم سعد بما حكم.

«إنهم مقاتلون، واستمرت لهم صفة المقاتلين إلى آخر لحظة، وعلي بن أبي طالب عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون، وقال رضي الله عنه وهو يهاجمهم:

(١) الأستاذ أمير علي: روح الإسلام، ص ٩٤.

(٢) الأستاذ محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، ص ٢٠٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٧٧.

لأذوقن ما ذاق حمزة، ولأفتحن حصنهم. فلما رأوا العزيمة في علي ومعه الزبير، وأنهم مغلوبون لا محالة، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد، منهم ارتضوا ما ينفذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم، فهم الذين نفذوا الحكم فيهم إذ ارتضوا المحكم فيهم، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه، فقد فوض لهم، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا ولقد حكم، وهو الذي ذهب إليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه ردا منكرا، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الإسلام وقتل أهله.

ولقد خضع المدبرون منهم لحكمه، وأدركوا أنه بما قدمت أيديهم، حتى لقد روي أن حيي بن أخطب عندما قدم للقصاص قال لرسول الله ﷺ: والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم تقدم فضربت عنقه.

وهكذا كانوا يحسون بأن ما نزل بهم من قصاص، وما للناس يقولون كان على النبي ﷺ أن يشفق عليهم، ومع ذلك إذا لم يقتل رجالهم، فماذا يصنع معهم، أيعفو عنهم، ولو تمكنوا لقتلوه وقتلوا الإسلام، وشردوا أهل المدينة؟ إن العفو عن الجاني ظلم في ذاته.

أم يخرجهم من أرضهم ويجردهم من أموالهم؟ وذلك لا يخلو من عفو، ثم ماذا يكون إذا خرجوا وفيهم أكثر من سبعمائة مقاتل؟ ألا يكونون حربا عليه؟! ويتجمعون يؤلبون يهود الجزيرة العربية، ويكون قد أشفق عليهم لينقضوا عليه إن واتتهم الفرصة، كمن يشفق على اللصوص ليجمعوا أمرهم، ويستلبوه ما يعتز به ويأخذوا ما عنده.

إنه لم يكن إلا القتل كفاء ما صنعوا، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا، وبما فعلوا.

قد يقال: إنهم قد صاروا أسرى، والأسرى لا يقتلون، ونقول في الجواب: إن

المسلمين والنبي ﷺ لم يشدوا الوثاق؛ لأنهم منهيون عن ذلك بحكم آية الأسرى إذ يقول سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

فما كان للنبي ﷺ أن يشد الوثاق وهو لم يثخن فيهم جراحا، ولم ينل منهم نيلا، بل إنهم هم الذين ارتضوا حكما معينا، والقتال من جانب المسلمين قائم، لم تعد السيوف إلى أجفانها ولا القلوب إلى جنوبها، بل إن قتالهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالئوهم ولم ينته، وإذا كان المشركون قد ألقى الله في قلوبهم الرعب، فأولئك قد بقوا وكان حقا عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا.

وقد يقول قائل: إن النبيين رحماء.

ونقول لهم: إن العدالة رحمة والقصاص حياة، ورفع الإسلام للظلم وإقلاعه من أساسه رحمة، والنبي ﷺ يقول: «**أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة**»[2].

عدالة العقوبة:

وبناء على ما قدمنا تبدو العقوبة عادلة كل العدل؛ لأنها تقدر بقدر الجريمة، بل أقل مما تستحق هذه الجريمة، أما إنها عقوبة قاسية فالعقوبة ليست مكافأة على فعل جميل، وإنما هي عقاب على فعل قبيح، وليس من شروط العدالة في العقوبة أن تكون لينة هينة، فالقسوة لا تنافي العدالة.

والخلاصة في عقوبة بني قريظة: أنها كانت عادلة؛ لأنها بقدر جريمتهم، ولا يحق لمجرم يصر على جريمته -وهي الخيانة العظمى- أن ينتظر الرأفة، وهو لم يطلبها ولم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ العهد المدني، ص ٩٥٠.

يعتذر لجريمته، كما لا يحق للغير أن يطلب لهذا المجرم المصر الرأفة والتسامح، وإنما يطلب العدل في عقابه، والعدل موفور في عقاب بني قريظة يبصره كل منصف.

ربما يعترض معترض فيقول: إن الذي عُرف عن الإسلام أنه دين الرحمة والسماحة والصفح، وأنه فيما سنه للحرب قد فاق تسامحه وسعة صدره كل ما عرف من أوضاع المدنية الراهنة، وهذا من أقوى الأدلة على إلهيته، فما بال القارئ يشعر بالحيرة من المعاملة التي عومل بها بنو قريظة، وما حكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل(١)، جزاء قتلهم رجلا واحدا وتمثيلهم به، وما كان يرسل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة مثل كعب بن الأشرف(٢)، وابن أبي الحقيق(٣)؟

---

(١) حديثهم في الصحيح: فعن أنس رضي الله عنه قال: إن رهطا من عكل ثمانية قدموا على النبي ﷺ فاجتووا المدينة (كرهوا المقام فيها)، فقالوا: يا رسول الله، أبغنا رسلا (الرسل: الدر من اللبن). قال: «ما أجد لكم إلا أن تلحقوا بالذود». فانطلقوا فشربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وسمنوا وقتلوا الراعي واستاقوا الذود وكفروا بعد إسلامهم، فأتى الصريخ النبي ﷺ، فبعث الطلب فما ترجل النهار حتى أتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم أمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها وطرحهم بالحرة يستسقون فما يسقون حتى ماتوا. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق ٤/ ٧٥.

(٢) حديثه في الصحيح: كان من نقض عهده بأذاه للمسلمين، وهو أحد بني النضير وقيمهم، وقد آذى النبي ﷺ بالهجاء، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ بالشعر ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر، وكان قد قال حين بلغه هزيمة قريش ومقتل أشرافهم: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير لنا من ظهرها. ثم خرج إلى مكة ليؤكد الحلف الذي يربط اليهود بمشركي قريش للوقوف ضد المسلمين، فآذى المسلمين حتى قال النبي ﷺ: **«من لنا من ابن الأشرف؟ قد استعلن بعداوتنا وهجائنا»**. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف ٥/ ١١٥. وانظر: تاريخ المدينة لابن شبة ٢/ ٤٥٥.

(٣) حديثه في صحيح البخاري كتاب المغازي باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق ٥/ ١١٧، وانظر: تاريخ المدينة ٢/ ٤٦٧.

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي للرد على مثل هذه الادعاءات: «جاء الإسلام لينشر إصلاحا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التي تقود الجماعات الإنسانية وأخرجت عن حدودها، ولبثّ أصول ومبادئ أدبية جديدة لا بد منها لتطوير أدوات التطور الاجتماعي؛ تكميلا لا تحتاج بعده إلى أخرى، واقتضى هذا الإصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه؛ لأنه ثبت أن كل إصلاح ديني أو اجتماعي لا تتقمص روحه دولة تنافح العوامل المحللة دونه، يضمحل ويزول كأن لم يكن.

والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدني قام بدون دولة، وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة، سُفكت في سبيلها دماء، وهدمت هياكل وبيع، فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوربا برمتها، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى.

فكان لا بد للإسلام من أن يقيم لنفسه دولة، والدولة عمل إنساني يقتضي - ككل عمل إنساني - أن يناسب البيئة التي يعمل فيها، والنفوس التي يحتك بها، ويحطم العقبات التي تقوم دونه.

وهذا العمل الإنساني في البيئات التي لم تصل بعد إلى أرفع درجات السمو الأدبي لا يجدي فيه القيام على المثل العليا إلا بعد أن يصل إلى غايته القصوى، أما وهو لا يزال في دور التكوين فلا بد للقائم به أن يتنزل إلى استخدام الأساليب التي لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها.

وإذا كان من النفوس من تكفيها الإشارة، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السوط يلهب ظهور أصحابها، فمن الجماعات ما تجزئ في زجرها المثل العليا من العدالة، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها، ولا ينفع إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتقاد إلى ما يصلحها.

إذا أنصف خصوم الإسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة في الدور الأول من تأسيس الدولة الإسلامية، وتكون هي الأسلوب العملي لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر، لا أن تقتصر على حادثة أو حادثتين أو ثلاثة فيه، فإن معالجة الجماعات التي فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على البداوة، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين إلى وسائل توائم ما هي عليه من التحجر المستعصي، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هي عليه، خلافا لسنن التطور في سنين معدودة.

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلي بإصلاح رجل واحد ممن نذكر، ورأى كيف تعجز جميع وسائل التقويم المعروفة في علاجه، وكيف يلقي المنطق سلاحه، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده»[1].

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ٢٣١، ٢٣٢.

الرد على شبهة إنكار النبوة عن طريق الحرب

وقد يلقي قائل بشبهة فيقول: أليس لو كان محمد ﷺ نبيا حقا، فمن الأمثل لنبوته أن يجنب أصحابه ويلات الحروب ولا يعرضهم لهذه المحن التي قد تحدث اضطرابا لجماعته، كالذي حدث في أحد؟ أليس لو كان نبيا لكان يبلغهم بما يخوضونه في حروب أوحي إليه بالنتائج السيئة للمسلمين فأنبأهم، فلا يدخلون فيما فيه هزيمة لهم؟

وهذه شبهة تنطوي على مرمى خبيث يهدف إلى إنكار نبوة رسولنا ﷺ لكن قبل أن نفند هذه الشبهة ونبطلها أود أن أشير إلى أنه يلاحظ أن في حروب النبي ﷺ لم يهزم المسلمون هزيمة فيها استسلام قط؛ لأن الاستسلام فيه ذلة، والإسلام دين العزة والكرامة، فلا مجال لأن يستسلم المؤمنون بقيادة النبي ﷺ، بل لما هُزم المسلمون في غزوة أحد، أراد النبي ﷺ أن يجمع متفرق الجيش ويتتبع به المشركين، فلما علم المشركون بذلك مضوا في طريقهم قافلين، ورضوا من الغنيمة بالإياب؛ إذ علموا أنه مؤيد من عند الله، وأنه يجاهد في سبيله[1].

أما عن تفسير ما قيل فالله سبحانه أراد أن يجعل للعالم كافة مثلا أعلى للدين، فأوحى الإسلام، وأراد أن يقيم له أمة تدين به وتنتدب لنشره، فقضى أن تكون تلك الأمة ذات كيان عالمي لا تقوم على الجنسية والضرورات المادية، على مثال سائر

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ القسم الثاني العهد المدني، ص ٧٠٧.

الأمم، ولكن تتألف حول المبادئ الخلقية والأصول الحكمية، فكانت هي الأمة الإسلامية.

فأما الدين فقد تولى الله تعالى وحيه جملة وتفصيلا، وأما الأمة فلا يمكن أن تجعل كل حركاتها وسكناتها صادرة عن الوحي؛ لأن الوحي متى انقطع بوفاة النبي المرسل، ستجد الأمة نفسها قاصرة عن الاستقلال بنفسها؛ لأنها لم تعتمد على قواها الذاتية قط، ولم تكتسب بمجالدة الحوادث، والوقوع في المآزم، ما يربي في نفسها عناصر الرشد، ويستكمل لها ميزات النضج، ولذلك تركها الله لتفتح لنفسها وبمحض جهودها الذاتية وقواها المعنوية مكانا تحت الشمس وإن لم يخل الأمر من تأييد.

ومن أصول علم التربية أن الطفل لكي يستكمل صفات الرجولة، ويشب صالحا لمكافحة حوادث الحياة وجوائحها، يجب ألا يحاط بعد أن يشب ويترعرع بكثير من العناية، خشية أن يصاب بجرح في يده، أو بشجة في رأسه، أو بكدمة في جسمه، ولكن يجب أن يعرض لذلك في حد محدود ليتعود تحمل الآلام ومكابدة العوائق.

وعلى ذلك فكل ما نراه في حروب المسلمين ما يبدو أنه فشل أو تعرض لهزائم، فيجب رده إلى ذلك الأصل المذكور، وهو لا يصح أن يكون مثار شبهة على النبوة، ولا مصدر شك في الرسالة، ولو كان يصح لتأثر به - قبل غيرهم - أولئك الذين ابتلوا به، وكيف يتأثرون به وقد أخبروا به قبل أن يصيبهم؟ فالله تعالى يقول لهم: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1]. وخاطبهم ربهم قائلا: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢، ٣.

أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧)﴾[1].

فالذين دخلوا في الإسلام أول عهده، قبلوه على أنه دين تمحيص وابتلاء لإبلاغ إنسانيتهم إلى أوجها الأعلى من الكمال، بتعريضهم لعوامل التطهير والاصطفاء، وقد وفوا بعهدهم، فاستحقوا أن يكونوا في الرعيل الأول، وكوفئوا بأن مكن الله لهم ما لم يمكنه لغيرهم في الأرض[2].

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٥٥-١٥٧.

(٢) الأستاذ محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

الخاتمة

الخاتمة

وقبل أن أضع القلم إيذانا بالفراغ من هذه الدراسة، أسجل ما أريد أن أؤكد عليه من نتائج، من خلال معايشتي لسيرة النبي ﷺ في جانب حروبه مع أعدائه، ومما أريد التأكيد عليه:

- أن الحرب ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنساني، والإسلام لم يخرج عن هذه الضرورة، فالحرب أو القتال عمل يقوم به أغلب شعوب العالم إن لم نقل كلها، يلجأ إليه المتحضر منها عندما تخفق الوسائل والأساليب السلمية فيما يطلبه أو يدفعه عنه، والذي يحكم على هذا العمل بالحسن أو القبح هو شرعية رايته، ونبل أهدافه، وسلامة أساليبه ووسائله.
- أن الإسلام أول من فرق بين الحرب المشروعة والحرب غير المشروعة، حيث نظم أحكام الحرب تنظيما متكاملا، يتجلى فيه مدى الرقي الإنساني، وسمو الخلق وشهامة المحارب، وعلى هذا النمط سارت حروب النبي ﷺ وغزواته.
- أن المفارقة كبيرة بين تعاليم الإسلام بشأن الحرب، وتعاليم غيره من الأمم والحضارات والنظم.
- الإسلام ينبذ الحروب في ذاتها، والأصل فيه السلام.
- الحرب لا تكون مشروعة إلا إذا ارتبطت بأهداف نبيلة وغايات سامية، وهذه الغايات، كما بينتها الآيات والأحاديث وسيرة النبي ﷺ، هي:

١- رد العدوان والدفاع عن النفس.

٢- تأمين الدعوة إلى الله وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها.

٣- المطالبة بالحقوق السلبية.

٤- نصرة الحق والعدل.

- إذا قامت الحرب لقيام موجباتها، فإن لها آدابا وأخلاقا وقواعد يتعين التزامها، ويتجلى فيها مدى سمو رسالة الإسلام، ونبل أحكامه حتى في الحرب التي هي في الأصل عداء وقتال، ومحاولة كل خصم لإفناء الآخر، ومع ذلك فإن الإسلام يجعل لها آدابا تقطع برفعته ورحمته بالأعداء، وذلك بغير غفلة.

فمن شروط وضوابط الحرب:

١- النبل والوضوح في الوسيلة والهدف.

٢- عدم التعرض لغير المقاتلين من النساء والصبيان والشيوخ. فلا قتال إلا مع المقاتلين ولا عدوان على المدنيين.

٣- إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين.

٤- المحافظة على الأسرى والمهزومين ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان كإنسان بغض النظر عن دينه.

٥- المحافظة على البيئة، واجتناب الفساد في الأرض، ويدخل في ذلك النهي عن قتل الحيوان لغير مصلحة وتحريق الأشجار، وإفساد الزروع والثمار، والمياه، وتلويث الآبار، وهدم البيوت.

٦- المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم، فالحرب ليست للإكراه على الدخول في الدين.

- وإذا عاهد المسلمون عدوا على نبذ الحرب، فلا بد من الوفاء وعدم الخيانة، حيث لا يحل للمسلمين قتال من تعاهدوا معهم، إلا إذا خان العدو العهد، أو

قامت خشية لها أساس من الخيانة والغدر، فعندئذ يحتم الإسلام نبذ العهد أولا قبل الحرب تحرزا من الغدر والخيانة، وحتى يكون العدو على بينة من أمره.

مما سبق يتضح أنه لا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماما في هذا السياق من النبل والوضوح؛ لأن النتائج فرع عن المقدمات، ومن هذه الآثار:

١- تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية.

٢- إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

٣- إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

٤- تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

٥- تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطانهم.

أن مفكري الغرب قد أعلن الكثير منهم تبرئة الإسلام ونبيه مما نسب إليهما كذبا وزورا في القرون الماضية.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

والله ولي التوفيق

الفهارس العامة

- فهرس الآيات القرآنية الكريمة
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- ثبت المصادر والمراجع
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

رقم الآية	السورة	الصفحة
	سورة البقرة	
٢٧	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ...﴾	٢٤٦ – ٢٥١
٧٤	﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾	٤٨
١٠٩	﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ...﴾	٣٢
١٩٠، ١٩١	﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ...﴾	٧١، ٩٢، ١١١، ١٢٨، ١٣٧، ١٦٧
١٩١ – ١٩٤	﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ...﴾	١٣٨
١٩٢، ١٩٣	﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ ...﴾	٧٣، ٨٢، ٩٢، ١١٤
١٩٣	﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ...﴾	
١٩٤	﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ...﴾	٣٢، ٨٥، ١٨٥
٢٠٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ...﴾	٦٣
٢١٦	﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ...﴾	٩٢
٢١٧	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾	٨٢، ١١٤، ١٣٧
٢٥١	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ...﴾	١٨، ٣١

رقم الآية	السورة	الصفحة
٢٥٦	﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾	٣٦، ٧٧، ٧٨، ٨١، ١١١، ١١٦، ١٤٣، ٢٣٠

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

رقم الآية	السورة	الصفحة
١٢، ١٣	﴿ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾	١٣٩
١٩	﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾	١٠٦
٧١	﴿ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾	١٠٩
٧٥	﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾	١٧٨
٧٦	﴿ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾	١٧٧، ١٧٨
٧٧	﴿ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ﴾	١٧٧
١١٠	﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ... ﴾	٨١
١٣٩	﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾	٢٠٢
١٤٦	﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ ... ﴾	٩٢
١٥٤	﴿ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ... ﴾	١٠٠
١٥٧، ١٥٨	﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ ... ﴾	١٠٠
١٦٩	﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾	٩٢
١٦٤-١٧٩	﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ... ﴾	١٤٨
٢٠٠	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ... ﴾	١٠١

رقم الآية	السورة	الصفحة
	سورة النساء	
١	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾	٣٥
٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا...﴾	٨٣، ١١٧، ١٩٨
٢٤	﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	٢١٣
٧٥	﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا...﴾	٦٤، ١١٢، ١٣٨
٧٦	﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٨٢
٨٤	﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ...﴾	٧٦
٩٠	﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ...﴾	٥، ١٧٠
٩٧، ٩٨	﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ...﴾	٨٠
	سورة المائدة	
٢	﴿قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا...﴾	٣٦، ١٢٨
		١٣٧
٨	﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا...﴾	١٢٨
١٤	﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ...﴾	٤٨
٢٤	﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا...﴾	٢١
٢٧	﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾	٢١

رقم الآية	السورة	الصفحة
٣٠	﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ...﴾	٢١
١٤١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	١٤١
	سُورَةُ الأَعْرَافِ	
١٥٨	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾	١٠٦
	سُورَةُ الأَنْفَالِ	
٩	﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾	١٣٦
٣٩	﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾	٣٤
٥٥-٦١	﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾	١٧٩
٥٨	﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ...﴾	١٩٢، ٢٠٠
٦١	﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾	٣٤، ١٦٩
٦٧، ٦٨	﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾	١١٨، ٢٠٥، ٢٥٣
٧٢	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ...﴾	١١٧
	سُورَةُ التَّوْبَةِ	
٤	﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾	١٧٨
٥	﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ...﴾	١٩٧

رقم الآية	السورة	الصفحة
١٢، ١٣	﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ ...﴾	١١٢، ١٥٢
١٣	﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ ...﴾	١١٦
٣٦	﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ...﴾	١١٢، ١٥١
٣٧	﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾	٤٣، ١٣٤
٦٠	﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ...﴾	٢٤٠
١١١	﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴾	١١٩، ٢٣٧
	سُورَةُ يُونُسَ	
٩٩	﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ...﴾	٧٧
	سُورَةُ هُودٍ	
١١٨	﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾	٧٨
	سُورَةُ النَّحْلِ	
٩٠	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ...﴾	١٠٦
٩١، ٩٢	﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ...﴾	١٧٧
١٢٦	﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ...﴾	٣٣، ١٨٤
	سُورَةُ الإِسْرَاءِ	
١٥	﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾	١٧١

رقم الآية	السورة	الصفحة
	سورة الأنبياء	
١٠٧	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٦
	سورة الحج	
٣٨	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾	١٧٧
٣٩	﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟...﴾	١١١، ١٢٨، ١٣٦
٤٠	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ...﴾	٢٧، ١٣٦
٤٠، ٤١	﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ...﴾	١٣٧
٤١	﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾	١٩
٤٩-٥١	﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾	١٠٧
٧٢	﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ ...﴾	١٠٨
	سورة النور	
٥٤	﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾	٧٨
	سورة القصص	
٨٣	﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾	٣٦، ١٤٣
٥٦	﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾	٧٨

رقم الآية	السورة	الصفحة
	سورة العنكبوت	
٢، ٣	﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ... ﴾	٢٥٨
	سورة الأحزاب	
١٠	﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ... ﴾	٢٤٧
١١	﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾	١٠٠
	سورة سبأ	
٢٨	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ﴾	١١٥
	سورة الزمر	
٤١	﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ... ﴾	٦٩
	سورة الشورى	
٣٩	﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾	٨٤
	سورة محمد	
٤	﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ... ﴾	٢٠٦، ٢٠٩
	سورة الفتح	
١٥	﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ... ﴾	٨٣

رقم الآية	السورة	الصفحة
١٦	﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾	٨٣
١٨	﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ...﴾	١٥٣
	سُورَةُ الحُجُرَاتِ	
٩	﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا...﴾	٧٣، ١١٠، ١١٦
١٣	﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ...﴾	٣٥
	سُورَةُ الحَشْرِ	
٥	﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا...﴾	١٩١
١١-١٧	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ...﴾	١٤٥
	سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ	
٨، ٩	﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ...﴾	١١٣
	سُورَةُ الإِنسَانِ	
٨، ٩	﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا...﴾	٢٠٤
	سُورَةُ الغَاشِيَةِ	
٢١، ٢٢	﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)﴾	٧٨

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الصفحة
«أحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم»	٢٢٠
«أحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بهم»	٢٣٦
«أحسنوا إساره»	٢٠٧
«أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك»	١٨٠
«إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا»	١٧٢
«إذا قاتل أحدكم أخاه فليتق الوجه»	١٨٤
«إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا أخبارهم»	١٣٢
«اذهب إلى يهود فقل لهم: اخرجوا من بلادي، فلا تساكنوني وقد هممتم بما هممتم به من الغدر»	١٩٥
«اذهبوا فأنتم الطلقاء»	١٥٨
«ارمِ، فداك أبي وأمي»	١٠١
«استوصوا بالأسرى خيرا»	٢٠٣
«أطعميه الأسارى»	٢٠٥

طرف الحديث	الصفحة

«اطلبوه فاقتلوه...» ٢١٢

«أطلقوا ثمامة» ٢٠٧

«أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل» ٢١٣

«أعف الناس قتلة أهل الإيمان» ١٨١

«اغزوا باسم الله، قاتلوا من كفر، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا...» .. ١٨٢

«اغزوا في سبيل الله... وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...» ١٧١

«أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!» ١٩٧

«أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟!» ١٩٧

«أقول لكم ما قاله أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء» ٢١٦

«اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» ١٥٤

«الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك» ٨٠

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» ١٣٥

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» ١٩٩

«أما إن الله قد كتب لك لكل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر» ١١٩

«أما إن الله قد كتب لك من كل إنسان منهم كذا وكذا من الأجر» ١٧١

طرف الحديث	الصفحة

«أما إنه من أهل النار» ١١٨
«أما إني سأكتب لك بالوصاة بعدي» ١٧١
«أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم........ ٢٢٠، ٢٣٧
«أما ظاهرك فكان علينا، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك» ٨٠
«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» ٢١٠
«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة... .... ٧٥، ١٩٤
«إن لك حقا، وإنك لرسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها؛ إنا سَفْرٌ مُرمِلون» ٢١١
«إن هذا اخترط سيفي، فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فشام السيف، فها هو ذا جالس» ٢١٩
«إن هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم» ١٨٩
«إن يكن في القوم أحد يأمر بخير، فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر» ١٦٩
«أنا أحق بذلك منك» ١٤١
«أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني» ١٥٥
«إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم» ٢٢٠

طرف الحديث	الصفحة
«إنـا لا نـدري من أذن منكم في ذلـك ممن لم يأذن، فارجعوا حتـى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم»	٢٣٧
«إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين	١٥٣
«أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة»	٢١٨
«أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة»	٢٥٣
«أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين»	١٢٠
«أنزعت منك الرحمة يا بلال؛ حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»	١٨٢
«انطلـق إلـى خالد فقل له: إن رسـول الله ﷺ يأمرك يقـول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفا»	١٨٧
«انطلقوا باسـم الله، وبالله، وعلى ملة رسـول الله، ولا تقتلوا شـيخا فانيا، ولا طفلا، ولا صغيرا، ولا امرأة...»	١٨٧
«انفذ على رسـلك حتى تنزل بساحتهم، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا، خير من أن يكون لك حمر النعم»	١٦٨
«إنه لخبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، فلا أرب لنا بديته، ولسنا مانعيكم أن تدفنوه»	٢١٥
«إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»	١٠٢
«إني أخشى عليهم أهل نجد»	١٤٤
«إني قد علمت أن العرب قد رمتك عن قوس واحدة، وإن الحارث يسألكم أن	

طرف الحديث	الصفحة

تشـاطروه تمـر المدينة، فـإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هـذا، حتى تنظروا في أمركم بعد» ٢٠٠

«إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد ارجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع» ٢١١

«اهج المشركين فإن جبريل معك» ١٩٠

«أوسع من قبل، رجليه أوسع من قبل رأسه» ٢٠٥

«أيكم ينزل هذا الرجل؟» ٢١١

«بل اليوم يوم المرحمة» ١٥٧

«تألفوا الناس ولا تغيروا على حي حتى تدعوهم إلى الإسلام... .... ١٦٩

«حتى أستأمر السعود» ٢٠٠

«خياركم الموفون المطيبون» ١٧٤

«رحمـة الله عليك، قد كنت وصولا للرحم، فعـولا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أدعك حتى تجيء من أفواه شتى» ١٨٤

«ردوهم إلى مأمنهم، ثم ادعوهم» ١٧٢

«صلوا كما رأيتموني أصلي» ٧٠

«فارجع فلن أستعين بمشرك» ٢٠١

«فافعل ذلك بالأسرى كلهم» ٢٠٥

«فإن أسلموا فاقبلوا منهم» ١٧٣

طرف الحديث	الصفحة
«فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»	٢٠١
«قسمته لك»	١٢٠
«كيف بنسبي؟»	١٩٠
«لا أجر له»	١١٩
«لا أمثل فيمثل الله بي وإن كنت نبيا...»	١٨٣
«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية»	٣٢
«لا تقاتلوهم حتى تدعوهم...	١٧٠
«لا تقتله فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»	١٩٨
«لا يتعاطين أحدكم أسير صاحبه إذا أخذه فيقتله»	٢٠٩
«لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك»	٢٠٢
«لا، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشا»	٢١٦
«لأن يهدي الله بك رجلا، خير من أن يكون لك حمر النعم»	٢٣٦
«لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»	٢٤٥
«لقد حكمت فيهم بحكم الملك»	٢٤٧
«لقد قتلت قتيلين لأدينهما»	١٧٤
«لم ترع، لم ترع، ولو أردت ذلك لم تُسَلَّط علي»	٢١٩

طرف الحديث	الصفحة

«له سلبه أجمع» ٢١٢
«لو كان المُطْعِم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له» ٢٠٦
«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» ١٣٢
«ما بال أقوام جاوز بهم القتل، حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية» ١٨٧
«ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل» ١٨٧
«من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة» ٢١٤
«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ١١٨
«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» ١٧٨
«نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة» ٢٤٢
«نستعين الله عليهم، ونفي بعهدهم» ١٧٣
«هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة» ٢١٦
«هم لك» ٢٢٣
«همت يهود بقتلي وأخبرنيه الله عز وجل ادعوا إليَّ محمد بن مسلمة» ١٩٥
«هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» ٢١٧
«والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم وتدعونه إذا كذبكم هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان» ٢٠٨

طرف الحديث	الصفحة
«والله لأمثلنَّ بسبعين منهم مكانك»	١٨٤
«ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»	٢١٣
«وفاء لا غدر»	٢٠٠
«ولا تقتلوا وليدا»	١٨٦
«يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا	١٧٦
«يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك»	٢٠٧
«يا معشر يهود، أسلموا، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله...	١٩٤
«يا أبا جندل، قد أخذ القوم علينا وأعطيناهم، وقد لجت القضية بيننا وبينهم، ولا يصح لنا الغدر ونقض العهد، اذهب فسيجعل الله لك ولأمثالك مخرجا»	١٥٦
«يابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»	٢٤٣
«يوم المرحمة»	١٥٨

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

* **أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري**، للدكتور جميل المصري، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

* **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، ترتيب: الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

* **أحكام أهل الذمة**، لابن قيم الجوزية، طبع جامعة دمشق، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

* **أخبار مكة**، للأزرقي، طبع المدرسة المحروسة، عتنغة، ١٣٧٥م.

* **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، لابن عبد البر، تحقيق: على محمد البلجاوى، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

* **الإسلام في نظر منصفي الشرق والغرب**، للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي.

* **الإسلام والأديان دراسة مقارنة**، للدكتور مصطفى حلمي، مكتبة الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

* **الإسلام والاستبداد السياسي**، للشيخ محمد الغزالي، الطبعة السادسة، نهضة مصر، سنة ٢٠٠٥م

* **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

* **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، للشنقيطي، المطابع الأهلية للأوفست بالرياض، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

* **الأم**، للشافعى، تصحيح: محمد زهري النجار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

* **الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله**، للدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ١٤١٨هـ.

* **انتهاء القتال بدخول العدو في الإسلام**، للدكتور محمد نعيم ياسين. بحث ضمن مجلة الشريعة الكويت السنة الأولى العدد الثاني محرم ١٤٠٥هـ/ نوفمبر ١٩٨٤م.

* **الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف**، للمرداوي (مطبوع مع الشرح الكبير والمقنع، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)

* **بحوث في الإسلام والاجتماع**، للدكتور علي عبد الواحد وافي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

* **البحر المحيط**، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩هـ.

* **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، للكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مصورة عن طبعة الجمالية بالقاهرة ١٣٢٨هـ.

* **البداية والنهاية**، لابن كثير، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى، بالتعاون مع دار هجر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

* **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**، للهيثمى، تحقيق مسعد السعدني، دار الطلائع القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

* **البيان النبوي**، للدكتور محمد رجب البيومي، دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

* **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، للدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة، الطبعة السادسة، ١٩٦٤م.

* **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت.

* **تاريخ مدينة دمشق**، لابن عساكر، دراسة وتحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، سنة١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

* **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)**، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦١م.

* تاريخ العرب القديم من إبراهيم عليه السلام إلى ظهور الإسلام، للدكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م

* تاريخ المدينة المنورة، لابن شبة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة السيد حبيب محمود أحمد، دار الأصفهاني للطباعة والنشر بجدة، بدون تاريخ.

* تاريخ اليعقوبي، طبعة بيروت، سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

* تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، للمباركفوري، دار الكتاب العربي، بيروت.

* التشريع الجنائي في الإسلام، للأستاذ عبد القادر عودة، دار الكاتب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

* التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، للشيخ محمد الغزالي، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة مصر ٢٠٠٥م.

* تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق عبد العظيم غنيم وآخرون، دار الشعب القاهرة، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، وزارة الأوقاف المغربية، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

* تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

* تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

* الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار القلم، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.، ودار الكاتب العربي، القاهرة، عن طبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

* جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري تحقيق الدكتور سهيل زكار، والدكتور رياض زركلي، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

* الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، مطبعة المدني، مصر، سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

* حاشية على الشرح الصغير، للصاوي طبع مصر، دار المعارف.

* حاشية ابن عابدين، طبع إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

* حضارة العرب، غوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتر، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، مصر ٢٠٠٠م.

* حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للأستاذ عباس محمود العقاد، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، مصر، سنة ١٩٩٩م.

* الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، للأستاذ سعيد القحطاني، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

* حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، مصر، سنة ٢٠٠١م.

* خاتم النبيين ﷺ، للشيخ محمد أبو زهرة، المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية، الدوحة، ١٤٠٠هـ طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر، عنى بهذه الطبعة خادم العلم الشريف عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

* الخراج، لأبى يوسف، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الشروق.

* الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطى، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي. بالتعاون مع دار هجر، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

* دراسات أخلاقية، للدكتور عبد الحميد مدكور، دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م.

* دراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمد السيد الجليند، دار الثقافة العربية، سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

* الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر، تحقيق الدكتور: شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

* الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، سير ت. و. أرنولد، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن، والدكتور عبد المجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية

* دلائل النبوة، للبيهقى، تحقيق د. عبد المعطى أمين قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)، للمباركفوري، الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

* الرسول ﷺ، للشيخ سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

* زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

* زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية.

* سبل الهدى والرشاد، للصالحي، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد وآخرين، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر ١٣٩٢.

* سماحة الإسلام، أحمد الحوفي، القاهرة، سنة ١٩٥٨م.

* سنن الترمذي، تحقيق الشيخ: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

* سنن الدارقطني، عالم الكتب، بيروت الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* سنن أبي داود، دار الحديث القاهرة.

* السنن الكبرى، للبيهقي، دار المعرفة بيروت، مصور عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، سنة ١٣٤٤هـ.

* سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٥٢م.

* سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

* سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

* سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم، للأستاذ محمد عزة دروزة، المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية، الدوحة، ١٤٠٠هـ طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر، عنى بهذه الطبعة خادم العلم الشريف عبد الله بن إبراهيم الأنصاري.

* السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م. السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، للأستاذ محمد فريد وجدي، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، مصر، عام ١٩٩٩م.

* شرح ابن بطال على صحيح البخاري، لابن بطال، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد ناشرون، الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

* شرح ثلاثيات الإمام أحمد بن حنبل، للسفاريني، المكتب الإسلامي بدمشق

* شرح صحيح مسلم، للنووي، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

* الشرح الكبير ومعه المقنع والإنصاف، تحقيق الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

* شرح المعلقات السبع، للزوزني، طبعة الحلبي، بدون تاريخ.

* شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

* الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، تحقيق على محمد البجاوي، مكتبة الإيمان، ومطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة،١٩٧٧م.

* صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرماني، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. مصورة عن المطبعة البهية سنة ١٩٣٩م.

* صحيح البخاري، طبعة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٧٨هـ.

* صحيح مسلم، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، بمصر، سنة ١٩٥٥م.

* الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م.

* عقائد النصارى الموحدين بين المسيحية والإسلام، حسني يوسف الأطير، مكتبة النافذة، مصر، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٤م.

* عقد الأمان في الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد نعيم ياسين (بحث ضمن مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الكويت السنة الثانية العدد الثالث رمضان ١٤٠٥هـ/ يونيو ١٩٨٥م).

* العلاقات الدولية في الإسلام، للشيخ محمد أبو زهرة، (ضمن المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ/ أكتوبر ١٩٦٦م).

* العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، تأليف لجنة من أساتذة كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

* عمدة القاري، للعيني، دار إحياء التراث بيروت.

* عون المعبود على سنن أبي داود، أبي عبد الرحمن شرف الحق محمد أشرف الصديقي العظيم آبادي، دار الكتاب العربي بيروت.

* غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى، لمرعي بن يوسف الحنبلي، الطبعة الأولى، مؤسسة دار السلام للطباعة والنشر.

* الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، للدكتور عبد الكريم يونس الخطيب، ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦هـ أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر بالجامعة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ.

* فجر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م.

* فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالي، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

* في ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق القاهرة.

* قصة الحضارة، ول ديورانت، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة سنة ٢٠٠١م.

* **الكامل في التاريخ**، لابن الأثير، دار صادر، ودار بيروت سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

* **كشاف اصطلاحات الفنون**، للتهانوي، تحقيق د. لطفي عبد البديع و د. عبد النعيم محمد حسنين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م.

* **الكفر والمكفرات**، للأستاذ أحمد البيانوني، الطبعة الرابعة، دار السلام، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

* **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، للمتقي الهندي، ضبط وتفسير بكري حياني، تصحيح وفهرسة صفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، دار بيروت، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

* **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضيئة في عقيدة الفرقة المرضية**، للسفاريني، المكتب الإسلامي بيروت، مكتبة أسامة الرياض، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* **المبتدأ والمبعث والمغازي**، لابن إسحاق، تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، المغرب.

* **المبسوط**، للسرخسي، دار المعرفة، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة ١٢٣١هـ.

* **المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام**، للشيخ محمد أبو زهرة (ضمن المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية، جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ/ أكتوبر ١٩٦٦م).

* **مجلة الأزهر** (الجزء السادس/ جمادى الآخرة ١٤٢١هـ/ سبتمبر ٢٠٠٠م).

* **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٦٧م.

* **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مطابع الرياض، سنة ١٣٨١هـ.

* **محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير كتابه**، للأستاذ محمد فهمي عبد الوهاب، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٩م.

* **محمد قائد الأمم**، للدكتور: إسماعيل حلمي، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، مصر، سنة ٢٠٠٥م.

* مختصر سيرة الرسول ﷺ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، طبع على نفقة الشيخ علي بن الشيخ عبد الله ابن قاسم الثاني حاكم قطر، الطبعة الثانية، بإشراف محمد زهير الشاويش ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

* المستدرك على الصحيحين في الحديث، للحاكم النيسابوري، وملحق به تلخيص المستدرك للذهبي، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض) مصور من طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن الهند.

* المستقبل لهذا الدين، للأستاذ سيد قطب، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، السالمية، الكويت.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

* مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، بدار هجر، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

* مسند الشاميين، للطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م

* مسند الفردوس (الفردوس بمأثور الخطاب)، للديلمي، تحقيق السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٦م.

* مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* المصنف، لابن أبي شيبة، تحقيق: عامر العمري الأعظمي، الدار السلفية، بومباي، الهند، الطبعة الأولى.

* مصنف عبد الرازق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* معالم في الطريق، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، الطبعة السابعة عشرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

* معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، للدكتور إدوار غالي الذهبي، مكتبة غريب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

* **المعجم الأوسط**، للطبراني، تحقيق: طارق عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٥٥م

* **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، مكتبة الأسدي، طهران، سنة ١٩٦٥م.

* **المعجم الكبير**، للطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الدار العربية للطباعة، بغداد سنة ١٩٧٨م.

* **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* **المعرفة والتاريخ**، للفسوي، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٠هـ.

* **معرفة الصحابة**، لأبي نعيم، تحقيق محمد حسن، ومسعد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

* **مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج**، للشربيني، طبع بيروت بإشراف شركة سابي، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

* **المغني**، لابن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبد الله عبد المحسن التركي، ود. عبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* **المقنع**، لابن قدامة (مطبوع مع الشرح الكبير والإنصاف تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

* **مكارم الأخلاق**، للقرشي، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

* **الملل والنحل**، للشهرستاني، تحقيق الأستاذ عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي.

* **من أصول الفكر السياسي**، للدكتور محمد فتحي عثمان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

* **الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية**، للأستاذ محماس الجلعود، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار اليقين بالمنصورة مصر، وتوزيع دار الفرقان الرياض.

* مواهب الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن محمد الخطاب، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ/ ١٩٧٨م.

* الموطأ، للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

* النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي، ود. محمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٣م.

* النهج المحمدي، للأستاذ عبد العزيز المسند، النادي الأدبي، الرياض ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

* هذا هو الإسلام، للدكتور محمد غلاب، مطابع الشعب مصر ١٩٥٩م.

* وقفات تربوية مع السيرة النبوية، للأستاذ أحمد فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* اليهود في تاريخ الحضارات، غوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتر، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، سنة ١٩٧٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

مقدمة ٥

الباب الأول: تمهيد ١٣

الفصل الأول: الحرب ضرورة من ضروريات الاجتماع الإنساني ولم يخرج الإسلام عن نطاق الضرورة.. ١٥

الحرب في العهد الجديد.. ٢٦

الفصل الثاني: الحرب في الشرائع والحضارات غير الإسلامية ٣٧

النصارى تحت وطأة الاضطهاد ٥٤

الاضطهاد النصراني لليهود.. ٦٠

الباب الثاني: بواعث الحرب وغاياتها في الإسلام ٦٥

الفصل الأول: حقائق عن الحرب النبوية ٦٧

الحقيقة الأولى.. ٦٩

الحقيقة الثانية ٦٩

الحقيقة الثالثة.. ٧٠

الحقيقة الرابعة ٧٠

الحقيقة الخامسة ٧٢

الحقيقة السادسة ٧٣

الحقيقة السابعة ٧٣

الحقيقة الثامنة.. ٧٥

الحقيقة التاسعة ٧٦

الحقيقة العاشرة.. ٧٧

الفصل الثاني: بناء الرسول ﷺ لجيش المسلمين.. ٨٧

الفصل الثالث: حرب النبي ﷺ بين البواعث والغايات ١٠٣

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثالث: اخلاقيات الحرب في السيرة النبوية ١٢٣
الفصل الأول: غزوات الرسول ﷺ وحروبه بين الشرعية واللاشرعية ١٢٥
سرية سيف البحر ١٣٠
سرية الرابغ ١٣١
سرية ضرار ١٣١
غزوة ودان وهى غزوة الأبواء ١٣١
غزوة بواط ١٣١
غزوة سفوان أو بدر الأولى ١٣١
غزوة ذي العشيرة ١٣٢
سرية عبد الله بن جحش ١٣٢
غزوة بدر الكبرى ١٣٥
سرية عمير بن العدي الخطمي ١٣٨
سرية سالم بن عمير الأنصاري ١٣٩
غزوة بني قينقاع ١٣٩
غزوة السويق ١٣٩
غزوة قرقرة الكدر أو غزوة بني سليم ١٤٠
سرية قرقرة الكدر ١٤٠
سرية محمد بن مسلمة ١٤٠
غزوة ذي أمر أو غزوة غطفان أو أنمار ١٤٠
سرية قردة ١٤١
غزوة أحد ١٤١
سرية قطن أو سرية أبي سلمة المخزومي ١٤٣
سرية عبد الله بن أنيس ١٤٣
سرية الرجيع ١٤٣
سرية بئر معونة ١٤٤
غزوة بني النضير ١٤٥

الموضوع	رقم الصفحة

غزوة ذات الرقاع ١٤٦
غزوة بدر الأخرى التي وعد بها أبو سفيان ١٤٦
غزوة دومة الجندل ١٤٨
غزوة بني المصطلق أو المريسيع ١٤٨
غزوة الخندق ١٤٨
غزوة بني قريظة ١٥٠
الإذن بقتال مشركي الجزيرة العربية كافة ١٥١
صلح الحديبية ١٥٢
فتح مكة ١٥٦
غزوة حنين وغطفان ١٥٨
وقعة مؤتة ١٦٠
الفصل الثاني: أخلاقيات اللقاء المسلح في السيرة النبوية ١٦٥
أخلاقيات القتال وآدابه كما شرعها النبي ﷺ ١٦٨
توابع اللقاء المسلح أخلاقيات التعامل مع المحاربين ٢٠٣
الباب الرابع: شبهات حول موضوع الدراسة ٢٢٥
الرد على فكرة انتشار الإسلام بحد السيف ٢٣٠
الرد على فكرة أن الهدف من حروب الرسول ﷺ وصحابته هو الغنائم ٢٣٦
الشبه الواردة على مهاجمة عير قريش قبل غزوة بدر ٢٤٣
الشبه الواردة على موقف النبي ﷺ من يهود بني قريظة ٢٤٥
تقدير هذه المعاملة ٢٤٨
تكييف جريمة بني قريظة ٢٥٠
عدالة العقوبة ٢٥٣
الرد على شبهة إنكار النبوة عن طريق الحرب ٢٥٧
الخاتمة ٢٦١
الفهارس العامة ٢٦٧
فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٢٦٩

الموضوع	رقم الصفحة
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة	٢٧٩
ثبت المصادر والمراجع	٢٨٩
فهرس الموضوعات	٣٠٣